

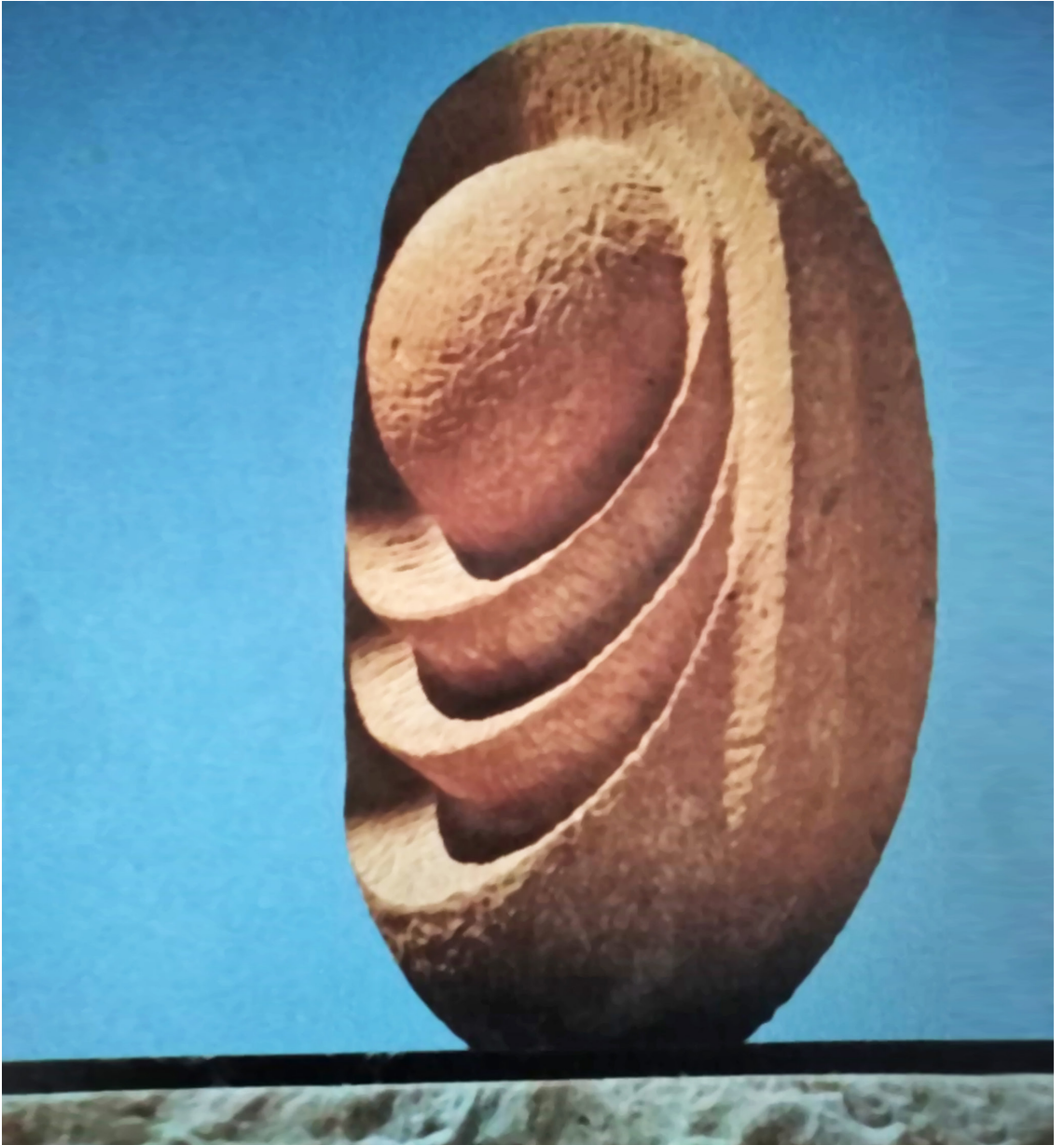
العدد

51

شتاء 2021

# التيار

فكرية فصلية محكمة



---

« اتجاه » فكرية فصلية محكمة،

المدير المسؤول: د. أنور خطار

رئيس التحرير: د. علي حمية

العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت: 00961 1 750053 – 00961 70 543166

البريد الإلكتروني: editor@ittijah.info

www.ittijah.info

تباع في المكتبات التالية: مكتبة أنطوان، نوفل، فرات، بيسان (بيروت)، المكتبة العصرية، مكتبة القدس، المكتبة العلمية (الضاحية الجنوبية)،

مكتبة علم (جلّ الديب)، مكتبة المكتبة (المطيلب)، مكتبة فونيكس (ضهور الشوير)، مكتبة صيّا، مكتبة Eureka (جبيل)،

مكتبة جرّوس، منشورات عصام الرحولي، دار الإنشاء (طرابلس)، المكتبة العصرية، مكتبة الإتحاد (صيدا)، مكتبة الفقيه (الصرفند)،

مكتبة الطليعة، مكتبة الزين (النبطية)، مكتبة نعمة، مكتبة الإتحاد (صور)، سوبرماركت غزالة (شتورا)، مكتبة الجامعة (كسارة)،

مكتبة الأحمر (بعلبك)، أطلبها أيضاً من نيل وفرات: www.neelwafurat.com

**Ittijah:** revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.

**Adresse:** C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,

tel: 00961 70 543166.

# إنجاء

فكرية فصلية محكمة

العدد 51

شتاء 2021

## محتويات العدد

- 03 علي حمية .. أن تفقد الأحبة في "زمن الكورونا"
- 05 عبدالإله بلقزيز العقلانية الفلسفية العربية في مرآة ناصيف نصّار
- 09 ريتا فرج الجندر والإسلام والحجاب في أعمال ليلي أحمد
- 35 عفيف عثمان مقولات في العنف
- 51 خالد كموني الواقع والحدث والأنا: دراسة في إمكان الحضور المعرفي للذات
- 83 فريال عبدالله الرضا عن الحياة وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والإجتماعية لدى المرأة اللبنانية.
- 111 مبارك حمد مبارك الدسمة الخطاب الدعائي السياسي عن الأزمة الليبية الأخيرة
- 123 عبدالله نجم آراء في الوحدة: الريماوي وعصمت سيف الدولة نموذجاً
- 133 عمر جابر «إلى بيروت الأنثى» لنزار قبّاني قراءة في فنّ الأغنية الوطنيّة.
- 149 لارا ميشال حداد في مواجهة الكورونا.. ملزمون بالتفلسف أيضاً!
- 01 Implementing Clinical Supervision for professional development Adiba Hamdan Nancy Ghazzawi
- 13 Saint Phocas Church in Amioun Archaeological and History Study Khawla El Khoury
- 25 Changement climatique et céréales Elie Kfoury
- 51 Les normes professionnelles enseignantes canadiennes: Jean Wardé entre le droit et l'éthique.

صقر أبو فخر

الماسونية في عماء التاريخ  
خرافات وأغاليط وحقائق





# .. أن تفقد الأحبة في "زمن الكورونا"

علي حمية

ويحه الموتُ يندسُّ في قلب الأزمات الكبرى ليكونَ الوجه المقنَّع لذاته، متسللاً بصمت خبيث ما بين ضجيجنا ووجعنا، فلا نلاقي الراحلين في وداع أو في جمع أحبة على مؤاساة. هنا، كلُّ وسائل التواصل الاجتماعي لا تقي الوصل الذي بيننا، وكل تكنولوجيا الاتصالات لا توازي ألقَ الروح عندما يتكوى الحزن على الحزن، وهو يعلن طيب الذكر جهارا نهارا في جموع المودعين .

..كذا باغت الموت، في التاسع من كانون الأول 2020، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني 2021، على التوالي، كلاً من الزميل الدكتور علي دحروج والزميل الدكتور جورج زيناتي،

برحيل هذين الزميلين، خسرت الجامعة اللبنانية، لا سيَّما قسم الفلسفة فيها، وخسرت الفلسفة، بشكل عام، علمين مبرزين من أعلامها، كم قدَّما لها من خبرتهما الفنية بكل علم وكل معرفة وكل فكر، تدريساً وتأليفاً وكتابة وترجمة وتحقيقاً وإشرافاً، وكم بعثا من حيوية في أروقتها ومندياتها، بين بيروت والبقاع والجنوب، دون كلل أو ملل أو تقاعس!

\*\*\*

الدكتور زيناتي ابن حيفا، في جنوبنا المحتل، أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة أينما حلَّ أو اسقَرَّ، درَّسها في غينيا أحمد سيكوتوري، وكونغو باتريس لوموبا، مواكباً حروب التحرير القومية، في القارة السمراء. في بيروت حيث استقرَّ في جامعتها بعد ترحال طويل بين المدن الكبرى، على امتداد العالم، شارك في تأسيس "الجمعية الفلسفية اللبنانية" وأصدر عشرات الكتب كان آخرها "الظمأ الأبدي"، وتخرَّجت على يديه كوكبة من الطلاب الذين تركوا، ولا زال، بصمات قوية في الحقل الفلسفي.

\*\*\*

الدكتور علي دحروج اشتَّهر كمدِّرس، بامتياز، للمنطق الصوري والرياضي حتى ارتبطت هذه المادة باسمه، أسَّس بالتعاون مع أساتذة الفلسفة في الفرع الأول "الجمعية الفلسفية اللبنانية" وشارك بشغف في أعمالها ونشاطاتها، لا سيَّما في إصدار مجلتها الفصلية فالفصلية، كما مارس تدريس الفلسفة، لسنوات طويلة، في كلية الدراسات الإسلامية في جامعة المقاصد في بيروت، وفي كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في لبنان، وشارك بفاعلية في تنظيم المؤتمرات الفلسفية العربية والدولية في هذين الصرحين الجامعيين. من أشهر أعماله في ميدان التحقيق الفلسفي الموسوعي: "مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم" للعلامة أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، منشورات مكتبة لبنان، بيروت 1988، في 1093 صفحة. كان صديقاً لمجلة "اتجاه"، مساهماً في تحرير بعض ملفاتها، حريصاً على افتتاحها عدداً عدداً، مثابراً على إهدائها لمكتبة كلية الإمام الأوزاعي، خسرت "اتجاه" أيضاً وتأسف لرحيله المبكر. جورج زيناتي وعلي دحروج علما يُطويان، في دنيا الفلسفة!.

٢٥ الأعمال الكاملة

## فراس السواح

Save

### عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود



# العقلانية الفلسفية العربية في مرآة ناصيف نصّار

عبدالإله بلقزيز

كاتب وباحث  
من المغرب

ينتمي ناصيف نصّار إلى المدرسة التاريخية النقدية عينها التي إليها ينتمي مجالون مثل عبدالله العروي، وعليّ أومليل، وعبدالمجيد الشرفي، وعزيز العظمة... إلخ، في قراءة الموروث الثقافي والديني الإسلامي. ينفرد بكونه ظل الأكثر اتصالاً منهم - إلى جانب عليّ أومليل - بالتراث الفلسفي العربي الإسلامي بما هو القطاع الأكثر صلة بالعقل. ومع أنه كتب في أغراضٍ شتى، وطَرَقَ مجالات عدّة من تراث الإسلام مثل الفكر السياسي، والاجتماعي والديني، إلّا أن مساهمته الأظهر في دراسة التراث إنما كانت في مجال الفكر الفلسفي، والاجتماعي الفلسفي في ذلك التراث. ونصوصه، بهذا الحسبان، تسمح لنا بأن نُطل على مسألة تناولها كثيراً، وهي بالغة الأهمية، هي حدود العقل في الإسلام، وفي تراثه الفكري الفلسفي على نحوٍ خاص. قد يكون محمد عابد الجابري أبكر من عني بهذه المسألة من الدارسين العرب للتراث، منذ النصف الثاني من عقد السبعينات في القرن الماضي، حيث ألمح إلى أن الرشدية المطلوبة، اليوم، ليست رشدية الفكر، أو المادة المعرفية الفلسفية، وإنما الروح الرشدية القابلة للاستدعاء. وقد يكون تجديد الدعوة عينها إلى استثمار الروح العقلانية الخلدونية، من دون التمسك بالمضمون المعرفي الخلدوني، ممّا عَنَى أنه وَعَى محدودية فكر المفكرين الكبارين. غير أن أكثر مَنْ شَدَّد على تاريخية العقل ومحدوديته، في تراث الإسلام، هو عليّ أومليل، وخاصة في دراسته عن ابن رشد وابن خلدون، قبل أن يستأنف ناصيف نصّار المهمة المعرفية عينها بإعادة وضع التراث العقلي الإسلامي الفلسفي

والاجتماعي موضع فحصٍ نقديّ لبيان تناقضاته الذاتية وعيوبه و—الأهم من ذلك— حدوده . نسمّي هذه النظرة نقدية وتاريخية، لأنها تتوسّل أداة النقد والمساءلة، بما يدخل فيها من محاولةٍ لمراجعة الكثير من اليقينيّات الراسخة عن التراث العقلي في الإسلام (في الحالة التي نحن فيها)، ثمّ لأنها تسلك سبيل النظرة النقدية من مدخلٍ تاريخي، أو قُل من مدخل قراءة المادة التراثية في نطاق شرطها التاريخي الذي تولّدت منه، أكان ذلك بمعنى الشرط الموضوعي (= الزمني، والاجتماعي — السياسي)، أو بمعنى الشرط المعرفي والفكري (= مستوى المعارف المتاح أمام مفكّر بعينه)، علماً أنّ الفصل بين الشرطين ممّا يتعذّر أمره على التحليل، لأن المعرفة، وإن كانت ذات زمنيّة ذاتية خاصة بها، تتطور في نطاقها، تظلّ محكومةً بالتطور العام: التاريخي والاجتماعي . هل في وسعنا أن نكتب تاريخاً نقدياً للعقلانية العربية؟ هذه إشكالية شغلت ناصيف نصّار، وخاض فيها مثلاً فَعَلَ آخرون . غير أنّ ما ميّز مساهمته في مقاربتها أنّه توسّل، للتفكير فيها، مقدمات نظرية ذات قيمة فكرية ومنهجية لا سبيل إلى تجاهلها . أهمّ هذه المقدمات النظرية اثنتان هما: إن العقلانية، في التراث الفلسفي العربي، عقلانيات يتمايز بعضها من بعضٍ ويتميز، وإن العقلانية العربية مزيج من فلسفةٍ خاصّة بكل فيلسوف ومن سماتٍ عامّةٍ مشتركة وجامعة بين الفلاسفة كافة . وهما مقدمتان مترابطتان أو متداخلتان . لم تتنوّع العقلانيات، أو تنقسم العقلانية العامّة الجامعة إلى عقلانيات متباينة؟ لأنّ تباينها، في نظر ناصيف نصّار، تبعٌ لتباين مفهوماها للعقل، وعلاقة ذلك العقل بالوجود، ووظيفته في الحياة الإنسانية . إن أخذنا ابن رشد، مثلاً، سنلاحظ أنّه اطّرح جانباً نظرية الفيض والعقول الفلكية المفارقة عند الفارابي (كما عند ابن سينا)، واتخذ منظوراً آخر للطبيعة هو ما انعكس على نظريته إلى العلاقة بين العقل والوحي، الحكمة والشرعية . وقد يزدوج موقف الفيلسوف الواحد فيكون في موضعٍ غير ما يكونه في موضعٍ آخر: كالفارابي الذي يهيمن على تفكيره المفهوم الأفلاطوني للعقل في نظريته في الفيض، بينما يختفي، مثلاً، في رسالة في العقل . وقد يتجاوز مفكّرٌ سابقه، في قواعد النظر، كتجاوز ابن خلدون تقسيم العقل إلى عقلٍ نظري وعقلٍ عملي، على ما درج عليه سابقوه، إلى تصنيف جديد لمراتب العقل (= عقل تمييزي، عقل تجريبي، عقل نظري). إذا كان هذا التباين في مفهوم العقل ممّا يتولد منه تنوّع في العقلانيات، فهو ممّا يفرض الاعتراف بأن لكل فيلسوف فلسفة لا تقبل النظر إليها بما هي نظيرٌ لغيرها، بل لا مهرب للدارس من تحليلها في صورتها الخاصة المستقلة، قبل البحث عن روابطها بغيرها من الفلسفات الخاصة، ذلك أن الاستقلال النسبي لفلسفة كلّ فيلسوف إنما هو ثمرة عاملين اثنين: زمنه

التاريخي والمعرفي، وإشكاليته الخاصة . وليس معنى ذلك أن هذا التميز في الفلسفات ينفي عنها ما بينها من تكاملٍ وتراكمٍ واتصال، ذلك أن العلاقات بينها تستوعب حالتَي الانفصال والاتصال معاً، من دون أن يكون في ذلك وجهٌ تَجَافٍ أو تعارضٌ، فالفلسفات تلك تنتمي إلى مجالٍ ثقافيٍّ واحد، على ما يخترقه من تنوُّعٍ وتعدُّدٍ للأسباب التي سبق الإلماح إليها . من هذه المقدمات يتأدى ناصيف نصار إلى اشتقاق ما يعرفه بأنَّه الخصائصُ الرئيسُ للعقلانية في التراث الفلسفي العربي، ويحددها في خمس خصائص: أوَّلها ما سمَّاه بـ «التركيز على الاستدلال البرهاني لتبيين ماهية العقل أو فعله»، وعنى به أن فلاسفة العرب يسلّمون بأن المعرفة، وإن كانت تنهل من الحسّ، الذي ينقل صور الموجودات في العالم الخارجي، لا تقوم على النشاط الحسيّ المباشر، بل على فعلٍ تجريديٍّ ينتزع المعقولات الكلية من المحسوسات الجزئية . والعقل ليس سوى تلك القوة، من قوى النفس، التي تجرّد المعقولات، أو الصور، من موادها، أي التي تنتزع الكليات من أعيانها، وتُدرك الماهيات المجرّدة . والعقل، بهذا المعنى، قوة استنباط تركّب القضايا قصد الوصول إلى يقينيات جديدة . وهذا ما يقود نصار إلى وصف العقل الفلسفي العربي بالعقل المنطقي، وإلى التشديد على وجود تلازمٍ بين العقلانية في المعرفة (= الاستدلال البرهاني) والعقلانية في الوجود عند الفلاسفة العرب (الفارابي وابن رشد خاصة). وثانيها رابطة السببية بين أشياء الطبيعة وأفعالها . وناصر نصار يجد في أطروحات ابن رشد تمثيلاً مكثفاً لهذه الخاصية المركزية في العقلانية العربية، التي ورثها عن فلاسفة سابقين (الفارابي، ابن سينا)، لكنه ذهب بها بعيداً إلى الحدود التي استجّرت عليه نقداً من الخصوم: وأظهر مسألة في هذه النظرية، حسب نصار، هي مسألة الضرورة في العلاقة بين الأسباب والنتائج، ومقتضاها أن في الأشياء طبائع ثابتة، والأفعال تلازمها حكماً (من طبيعة النار الإحراق، وهو فعلٌ ثابت فيها ثبات الطبيعة فيها) . وإذا كان للشيء، في نظر أرسطو، علل أربع (= مادية، صورية، فاعلة، غائية)، فالحديث هنا يجري - حصراً - على العلة الفاعلة . وهكذا تعني العقلانية في معرفة الموجودات «إدراك الأسباب الفاعلة لهذه الموجودات»، بما هي ضرورية وإن جرى التعبير عنها - عند آخرين - باسم العادة . على أن التشديد على السببية، بما هي علاقة ضرورية بين الأشياء، يقتزن معناه مع التشديد على علاقات الترابط بين القضايا والحدود المنطقية والبرهان في الاستدلال المنطقي، إذ ينسجم هذا الاقتران مع مبدأ التطابق بين اليقينيّ الضروري والوجوديّ الضروري، الذي اجتمع على القول به فلاسفة العرب . من هنا يخلص ناصيف نصار إلى القول إن العقلانية المنطقية والعقلانية

السببية، في الفلسفة العربية، لا تنفصلان عن العقلانية الميتافيزيقية المطلقة . وثالثها تأسيس الوجود الإنساني على نظامٍ كوني صادر عن عقلٍ مطلق، العالم، عند الفلاسفة العرب (المشائين)، عالم معقول، قائم على الروابط الثابتة بين الأشياء انطلاقاً من سببٍ أوّل هو الموجود الأوّل (= في لغة الفارابي)، ولا شيء في هذا العالم يحدث عفواً أو من دون نظام مرتّب . يختلف الفلاسفة أولاً، في كيفية صدور العالم عن السبب الأوّل (بين نظرية الفيض وغيرها)، لكنهم يجتمعون على القول بمعقوليته، وانتظامه على مقتضى عقلي . إن معقوليته ليست سوى نتيجة للسبب الموجد للعالم، والصانع لمعقوليته، وهو العقل الأزلي . وعلى معقولية العالم الطبيعي ينبغي أن تقوم معقولية الوجود الإنساني. أما الإنسان فهو مدعوّ إلى إدراك نظام المعقولية في الكون من طريق ردّه إلى سببه الأوّل، والعقل ليس أكثر من ذلك الإدراك لنظام الضرورة الثابت في العلاقة بين الأسباب والنتائج. إن قوة الضرورة، هنا، أعلى من قوة الإرادة، بل إن الإرادة الإنسانية تبعّ للضرورة في الطبيعة . هذا ما يفسّر، في نظر نصّار، لماذا هيمنت فكرة الضرورة، ووعيتها أو عقلها، على فكرة الحرية في الفعل الإنساني عند الفلاسفة العرب، وخاصة عند ابن رشد . أمّا رابعها فهي ما سمّاه ناصيف نصّار بـ «اعتماد الاتجاه المحافظ»، وعنى بها أن العقلانية الفلسفية العربية لم تتكرس وظيفتها لخدمة أهداف التنوير والتحرر، وإنما لخدمة النظام القائم وتبريره! ولهذه النظرة المحافظة إلى المجتمع والإنسان في تلك الفلسفة . وقد يكون ممّا يدعو إلى الاستغراب، أو إلى التساؤل، أن ينتصر نصّار للفارابي على ابن رشد في هذا الباب! نعم، إنّه يسلم بأن الفارابي كان مسكوناً بهذه «العقلانية المحافظة»، شأنه شأن الفلاسفة العرب الآخرين، لكنه تميّز منهم ببعض الانفتاح على فكرة التغيير والإصلاح، ولكنه -وهو يحلّل العقلانيتين- ذهب إلى إنزال أقسى الأحكام بالعقلانية الرشدية، واصفاً إياها بالانغلاق والتزمّت . . . بل والتخلف! هذه النظرية التركيبية - الاستنتاجية إلى خصائص العقلانية الفلسفية العربية وسماتها ستوجّه قراءات ناصيف نصّار إلى تراث العقل في الإسلام، ليس عند المشائين فحسب، وابن رشد في طليعتهم، وإنما حتى في صيغته الخلدونية التي ظل نصّار يتميّزها من دون سائر العقلانيات العربية الكلاسيكية .



# الجنـدر والإسلام والحجاب في أعمال ليلى أحمد: القراءات والمناهج

ريتا فرج

باحثة لبنانية في علم  
الاجتماع والإسلاميات  
المعاصرة

شغلت القضايا والإشكاليات المعاصرة المعنية بالجنـدر (Gender) والديانات التوحيدية، موقعاً مهماً عند الحركات النسوية والمتخصصين والمتخصصات في تحليل أحوال النساء وأدوارهن في المنظومة الدينية. تطورت الإصدارات، كمّاً ونوعاً، في هذا الحقل المعرفي، فبرزت فرضيات وخلاصات جديدة اتخذ بعضها — مسارين: الأول: اعتبر أن الأبوية الدينية في اليهودية والمسيحية والإسلام أقصت المرأة عن تاريخ المقدس وجعلتها في الهامش، بعد أن كانت في المركز والمتن قبل التوحيد؛ والثاني: أن تأويل النص الديني إستناداً إلى المناهج الحديثة، بإمكانه تحقيق المساواة بين الجنسين التي عطلتها الغلبة البطريركية أو القراءة الذكورية<sup>1</sup>.

ظهرت النقاشات العلمية الجادة حول المسلمات ومواقعهن في الدين، بشكل متأخر، إذا ما قورنت باليهودية والمسيحية؛ مع إدراكنا أن الوعي المعرفي النسوي الإسلامي<sup>2</sup>، سبق حركة الإنتاج البحثي والأكاديمي. يمكن اعتبار عالمة الأمريكية نايبا أبوت (Nabia Abbott) (1897-1981) — المولودة في ماردين إبان السلطنة العثمانية — أول من قدمت الدراسات العلمية الحديثة<sup>3</sup> حول الجنـدر والإسلام، فنشرت كتباً عدة في اللغة الإنجليزية أبرزها اثنان: (Aishah: The Beloved of Mohammed) (عائشة حبيبة محمد) الصادر عام 1942 — لم ينقل بعد إلى العربية — (Mother and Wife of Harun al-Rashid) (1946)

«ملكتان من بغداد: الأم والزوجة في حريم الرشيد»<sup>4</sup>. على مستوى تأويل النص الديني وحق النساء في الاجتهاد، كانت اللبنانية نظيرة زين الدين (1908-1976) السبّاقة في التاريخ المعاصر في الدعوة هذه؛ إذ سبقت المطالب التي ترفعها المنضويات في الحركة النسوية الإسلامية التي من بين رائداتها: أمانة ودود وأسماء برلاس ورفعت حسن، فهي أول امرأة قدمت تفسيراً منهجياً نسائياً للقرآن (في المدى التاريخي الطويل)؛ وأكدت المساواة القرآنية بين الذكر والأنثى، فدرست هذه القضية الحيوية مشروعاً فكرياً في كتابها «السفور والحجاب»<sup>5</sup> الذي أثار حين صدوره عام 1928 ردود فعل سلبية من قبل رجال دين بسبب ما تضمنه، فوضعت «الفتاة والشيخ» رداً على مهاجمي كتابها الأول، وعلى رأسهم الشيخ مصطفى الغلاييني صاحب «نظرات في كتاب السفور والحجاب». يسجل أن عالمة الاجتماع المغربية فاطمة المرنيسي (1940-2015)<sup>6</sup> من الرائدات العربيات في زعزعة الصورة المستقرة عن النساء في العقل الإسلامي الجمعي؛ تميز مشروعها الفكري/ البحثي بالمنهجية الدقيقة في إبراز «الأنثوي المغمور» في التاريخ والمصادر والتراث والذاكرات. شكلت كتابات الأكاديمية والباحثة المصرية الأمريكية ليلي أحمد علامة فارقة في الدراسات النسوية. يعد (Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate) (1992) «المرأة والجُنوسة»<sup>7</sup> في الإسلام: الجذور التاريخية لنقاش حديث<sup>8</sup> من أهم أعمالها، فهو الكتاب الذي حددت فيه رؤيتها وأدواتها المنهجية في دراسة التحولات التي أدخلها الإسلام على العلاقات بين الجنسين وتأكيداته للنظام الأبوي، وقد سبقته بنشر دراسات متسقة معرفياً، خصوصاً أوضاع المرأة في الإسلام المبكر إبان الدعوة المحمدية، نذكر منها: (Women and the Advent of Islam)<sup>9</sup> (1986) «المرأة ومجيء الإسلام»، ونفترض أن هذه الدراسة شكلت الحقل أو الطبقة المعرفية الأولى التي انطلقت منها، الأستاذة في «كلية اللاهوت في جامعة هارفرد» (Harvard Divinity School)، في التأسيس لكتابها المذكور أعلاه، كما أن الدراسة التي نشرتها في مجلة (Feminist Studies) الأمريكية عام 1982 المعنونة: (Western Ethnocentrism and Perceptions of the Harem) «المركزية العرقية الغربية وتصورات الحريم»<sup>10</sup> — بالإضافة إلى مساهمات أخرى — أسست لنقاشها المنهجي للدراسات الاستشراقية والغربية المعاصرة، التي تناولت المسلمات، لا سيما «الحجاب» الذي أفردت له كتاباً صدر في الإنجليزية عام 2011 (A Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America)<sup>11</sup> «ثورة هادئة: عودة الحجاب من الشرق الأوسط

إلى أميركا»، لم يتم تعريبه إلى الآن.

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية ونقدية لأبرز طروحات ليلى أحمد<sup>12</sup> حول الدور الذي اضطلع به الإسلام في تحديد المواقع الجديدة للنساء في نظام السلطة والجنـدر؛ والسجلات الدائرة حول الحجاب في الأدبيات الاستشراقية والغربية المعاصرة، مع إبراز تعددية المناهج التي اعتمدت عليها. تأتي الدراسة في محورين أساسيين: أولاً: المرأة في تاريخ الإسلام من الحقبة المبكرة إلى العصر العباسي؛ ثانياً: الحجاب في الإسلام: الصراع والاستيهامات الاستعمارية.

أولاً: المرأة في الإسلام من الحقبة المبكرة إلى العصر العباسي

#### 1- في المنهج

يُدرج بعض الدارسين ليلى أحمد في «النسوية الإسلامية» (Islamic feminism)<sup>13</sup> نظراً لاشتغالها على حق الإسلام والجنـدر، غير أن القراءة الواعية لأطروحاتها والإشكاليات التي أثارتهـا، تبرهن على الخطأ المنهجي الكبير الذي وقع به باحثون/ باحثات، بعدّها إحدى المنضويات في هذه الحركة. لم تسع أحمد في كتابها الأساسي «المرأة والجنوسة في الإسلام: الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة»<sup>14</sup> إلى تبرئة «الإسلام الأبوي» من مقولة اضطهاد النساء، إذ عملت على إظهار المؤثرات التي تركها الدين الجديد في محيطه التاريخي على المرأة، وأنه ساعد على توطيد النظام البطريكي<sup>15</sup> في زمن عرفت فيه مناطق في شبه الجزيرة العربية وجوداً وآثاراً للنظام الأمومي.

استخدمت أحمد مناهج العلوم الاجتماعية الحديثة، لا سيما المنهج التاريخي والنقدي في دراسة مواقع النساء في الإسلام تحديداً في حقبة الإسلام المبكر، سواء في كتابها الأساسي أو الدراسات الأخرى، وهي لم تطالب بأسلمة مصطلحات تستعار من الفكر النسوي الغربي كـ«أسلمة التمكين» و«أسلمة الجنـدر» و«جهاد الجنـدر»، كما فعلت رائدات النسوية الإسلامية، أمثال: أمنة ودود، ورفعت حسن، وعزيزة الهبري، وغيرهن، ولا تدعو إلى «إسلام نسوي»، بل إنها تعمل على ثلاثة موضوعات أساسية: الأول: وضع جذور النظام الأبوي والسلطة المتحيزة ضد النساء في الإسلام داخل الثقافات السائدة في المنطقة ومحيط شبه الجزيرة العربية، إبان الدعوة المحمدية، في بلاد الرافدين وفي الثقافتين الهيلينية والمسيحية؛ الثاني: تغيير الإسلام لأسس العلاقة بين الجنسين (الزواج، الطلاق، الميراث، الحجاب، العلاقات الجنسية، تعدد الزوجات) من خلال تحويل حقوق المرأة الجنسانية وأبنائها من سياق المرأة وقبيلتها إلى مجال الرجل<sup>16</sup>؛ الثالث وهو الأهم: التمييز بين صوتين مميزين في إطار

الإسلام وصورتين متنافرتين ومتنافستين من حيث الجنـدر: القواعد أو الرؤية البراغمية  
الفقهية/ الأبوية والرؤية الأخلاقية الصوفية.

اعتمدت أحمد على المناهج النقدية: التحليل التاريخي والتفكيك ونقد المصادر. كتبت  
«المرأة والجنوسة في الإسلام» في مدار الكتابة النقدية النسوية؛ واستعانت بأدوات النسوية  
ما بعد الكولونيالية في دراستها للحجاب والرؤية الاستشراقية والغربية المعاصرة تجاه النساء  
في الإسلام، والتي سندرسها في المحور الثاني من الدراسة.

## 2- الإسلام والنساء: الخطابات والتغيرات المؤسسية

استعارت أحمد مصطلح «الجنـدر» من حقل المصطلحات الغربية، الناشئ مع التطور اللافت  
الذي طرأ على حقل الدراسات الاجتماعية والإنسانية؛ خلال بلوغ الموجة النسوية الثانية  
أوجها. «فبحلول سبعينيات القرن العشرين، نجحت عالمة الاجتماع البريطانية آن أوكلي  
(Ann Oakley) في إدخال مصطلح (Gender) للمرة الأولى في حقل الدراسات  
الاجتماعية في دراستها الشهيرة المعنونة: (Sex, Gender and Society)<sup>17</sup>. أرادت  
أوكلي أن تستخدم كلمة (Gender) مُعادلاً موضوعياً (...) لاصطلاح (Sex) بوصفه تحديداً  
بيولوجياً في سياق العلوم الطبيعية. ومن ثم فإن «الجنـدر/ Gender» تُعنى ببحث مكانة  
الرجل والمرأة ودورهما في المجتمع، بصرف النظر عن الاختلافات البيولوجية بينهما.  
أو بعبارة أخرى: تتعلق الجنوسة [الجنـدر] بدراسة السلوك الاجتماعي للرجل والمرأة من  
منطلق الكينونة الإنسانية؛ ودراسة سلوك النساء وتصرفاتهن وفق الضوابط الاجتماعية في  
سياق مجتمع ما، فضلاً عن الأفكار النمطية التي تحظى بالقبول العام في المجتمع، مراعية  
ومستوعبةً الأنوثة بوصفها عنصراً أولاً، وفي الوقت ذاته تُعنى الجنوسة [الجنـدر] بدراسة  
الكيفية التي يمارس بها الرجل دوره الاجتماعي، المُعرّف والقائم بدوره على رموز نمطية  
مجتمعية ذات أبعاد أخرى، تأخذ بعين الاعتبار الذكورة عنصراً أولاً، أي إنه يمكن القول:  
إن المنظور الجنوسي [الجنـدر] في التحليل الأخير، ليس سوى تحليل للانعكاس الاجتماعي  
الحضاري لظاهرة بيولوجية بحتة. سرعان ما اعتمد المصطلح من قبل الباحثات النسويات  
اللائي أردن نفي الحتمية البيولوجية. ومن ثم تقاطعت النسوية مع الاستشراق الحديث،  
فاستلهمته بدلالاته، وكانت الجنوسة [الجنـدر] في السياق الإسلامي موضوعاً لدراسات  
بعض الناشطات النسويات أمثال: جوديت توكر (Judith E. Tucker)<sup>18</sup>، وباربرا ستواسر  
(Barbara Stowasser)<sup>19</sup> (...) كما أصبح موضوعاً للباحثات النسويات المشرقيات  
أمثال: ليلي أحمد وفاطمة المرينسي<sup>20</sup>.

تقدم أحمد قراءة تاريخية مبنية على المنهج النقدي في تفسيرها للتحويلات الاجتماعية والثقافية التي أدخلها الإسلام على العلاقات بين الجنسين، متأثراً بثقافات بلاد ما بين النهرين والحضارة الفارسية والديانات السابقة عليه: الزرادشتية واليهودية والمسيحية. ترى أن تبادل الممارسات بين الثقافات المختلفة؛ من ضمنها نظام «الحريم» وعزل النساء، أثر في الإسلام وفي التأسيس للحجاب والحريم الإسلاميين: «شهدت القرون الأولى للمسيحية تحول مفهوم عزل النساء - وهو ما كان يتحقق معمارياً من خلال إنشاء مبانٍ أو مناطق خاصة بسكنى النساء فحسب، يحرسها الغلمان - وكذلك مفاهيم الحجاب واحتجاب النساء لتصبح من أبرز معالم حياة الطبقة العليا في كل من بلاد فارس والعراق ومنطقة الشرق الأوسط<sup>21</sup> البحر متوسطية. وقد كانت هذه المواقف والممارسات تجاه المرأة قائمة في السواحل الشمالية للبحر المتوسط - في المجتمع البيزنطي على سبيل المثال - بالقدر نفسه الموجود في السواحل الجنوبية. وإذا كانت تلك الممارسات قد انتشرت في العصور المسيحية الأولى، فإنها لم تتبع فقط من بلاد فارس. وإنما تبدو كما لو كانت تعبر عن توافق بين المواقف والممارسات المتشابهة التي ولدت داخل الثقافات الأبوية المتنوعة في المنطقة. فقد ساهمت كل ثقافة من ثقافات المنطقة في إيجاد الممارسات التي تتحكم في النساء وتحجمنهن، كما قامت بالاستعانة بممارسات المناطق المجاورة والخاصة بالسلطة الإنجابية، بما في ذلك ثقافة بلاد الرافدين والثقافة الفارسية والهيلينية والمسيحية ثم الإسلامية<sup>22</sup>.

نجحت أحمد في الضرب على أوتار كثيرة عندما عادت إلى الأعراف المتعلقة ببعض ثقافات المنطقة، للبحث عن الأصل الثقافي للإسلام الذي جاء في القرن السابع الميلادي<sup>23</sup>، ليتخذ «شكل الديانات القائمة على الوحدانية مثل اليهودية والمسيحية، بل وفي صورة جديدة لهاتين الديانتين. كانت المنطقة إبان غزوات المسلمين واقعة تحت سيادة الكنيسة المسيحية التي كانت - إلى حد كبير - قد قننت وبررت التحيز ضد المرأة، اعتماداً على قصص الكتاب المقدس، تلك القصص التي اعترف بها الإسلام علانية أو أقرها بصورة غير مباشرة على أنها صادرة عن الوحي الإلهي. وهكذا استوعب الدين الجديد تلقائياً التحيز ضد المرأة الذي كان قائماً بالفعل في صورة مقدسة، ليصبح جزءاً من عالمه الاجتماعي والديني الذي ما لبث أن اتخذ بدوره صيغة كتابية مقدسة<sup>24</sup>.

تناولت أحمد في منهجها النسوي التاريخي النقدي، الخطابات المؤسسة لمواقع المرأة ووضعيتها الجديدة مع نشأة الإسلام، في مسائل وأد البنات والزواج والطلاق والحجاب

والعلاقات الجنسية والميراث. وعبر استعادة تاريخية لما كانت عليه النساء في ما يطلق عليه «العصر الجاهلي» -نفضل استخدام تحقيب تاريخي محايد ثقافياً ودينياً هو «العرب قبل الإسلام» (Pre-Islamic)- تلاحظ الكاتبة أن «الآراء التي يتبناها بعض الباحثين المسلمين وقولهن بأن تحريم الإسلام وأد البنات، يؤكد موقف الإسلام من تحسين وضع النساء في المجالات كافة؛ هو رأي يبدو على درجة من التبسيط وعدم الدقة. حيث يتضح لنا أن مكانة النساء كانت تختلف تبعاً لاختلاف المجتمعات في المنطقة العربية، إضافة إلى ذلك نجد أنه على الرغم من أن ممارسات الزواج الجاهلية لا تعني بالضرورة تزايد سلطة النساء أو غياب التحيز ضد المرأة، فإنها في الوقت نفسه تتناسب مع تمتع المرأة بقدر أكبر من الاستقلال الجنسي عما كان متاحاً في ظل الإسلام، كما تتناسب مع اتساع نطاق الأنشطة المتاحة للمرأة من خلال قيام النساء بالمساهمة الفاعلة وأدوار الزعامة والقيادة في المجتمع، بما في ذلك المجالان الحربي والديني. وقد تقلص هذا الاستقلال وتلك المساهمات مع نشأة الإسلام، خصوصاً بفعل مؤسسة الزواج الأبوي بوصفه الزواج الشرعي الوحيد، وما تبع ذلك من تحولات اجتماعية لاحقة»<sup>25</sup>.

تعتبر أحمد أن انتقال محمد من الزواج الأحادي مع خديجة إلى الزواج المتعدد بعد وفاتها، «يحمل معالم التغيرات التي سرعان ما لحقت أوضاع النساء في المنطقة العربية الإسلامية. إن طبيعة المجتمع الجاهلي وعاداته -وليس الإسلام- هي التي وجهت تصرفاتها [أي خديجة] وحددت معالم حياتها، واستقلالها الاقتصادي وعرضها الزواج على محمد دون وصي من الرجال يقوم بدور الوساطة، وزواجها برجل يصغرها بسنوات عديدة، وبقاءها الزوجة الأولى والوحيدة لزوجها في حياتها، إنما تعكس كلها معاً ممارسات الجاهلية لا الإسلام»<sup>26</sup>. وتخلص أحمد في تحليلها إلى «أن الفارق بين حياة كل من خديجة وعائشة -وخصوصاً من حيث الاستقلال وحرية التصرف- كان إرهافاً بالتغيرات التي سيفرضها الإسلام على المرأة العربية. إلا أن عائشة كانت تعيش في مرحلة انتقالية، ومن هنا تعكس حياتها بعض المظاهر الجاهلية بجانب الممارسات الإسلامية. إن احتلالها القصير لموقع الزعامة السياسية بعد وفاة زوجها يعود بجذوره -بلا شك- إلى ما كان معروفاً بين أسلافها وهو ما يتضح أيضاً في المكانة والسلطة التي منحها المجتمع إياها. ومع ذلك تراجع المجتمع باطراد شديد في العصر الإسلامي عن تقبل قيام النساء بأدوار السيادة والمساهمة في قضايا المجتمع الأساسية»<sup>27</sup>.

تنحو وجهات نظر أخرى، في تفسيرها لنظام العزل/ الحجاب وتعدد زوجات النبي بعد



وفاة خديجة، باتجاه العامل النفسي «المتصل برغبة الرسول وعلاقاته بالنساء، وقد بينّه منصور فهمي [الباحث المصري وأستاذ الفلسفة] منذ بداية القرن الماضي، وبجراً نادرة. فقد تحدث عن «نوبات الغيرة» التي كانت تصيب النبي، وتحدث عن دور هذه الغيرة في تشريع الرسول للآخرين واستثناء نفسه من التشريع، من ذلك تحريمه نساءه على الرجال من بعده في آية الحجاب نفسها. بين المحلل النفسي فتحي بن سلامة تغيير نوعية علاقات الرسول بالنساء بعد وفاة خديجة، وتغير «اقتصاده الليبيدي» (Économie Libidinale) وانتقاله «من موقع تمام أنثوي ينبي على استقبال الآخر إلى موقف قضبي متماش مع المؤسسة السياسية لمدينة الله». ليس بين العاملين التاريخي البنيوي والعامل النفسي تعارض، فطبيعة علاقة الرسول بالنساء هي التي جعلته يذكر بضرورة مراعاة الحجاب، ويلج عليه، ويسبغ عليه طابعاً دينياً»<sup>28</sup>.

لا تخفي أحمد الصعوبة التي تواجهها حين تعود إلى حقبة «ما قبل الإسلام» في تناولها للعلاقات بين الجنسين والأنظمة الاجتماعية السائدة، فثمة «حيرة معرفية» تصيب الباحثين بشأن دعائم وإمكانات النظامين الأبوي والأمومي. «إن الصعوبة الحقيقية في التفسير، في هذه المسافة الزمنية البعيدة، لفهم ما حدث بالضبط في هذا المجتمع، (قبل الإسلام) خصوصاً بالنظر إلى الطبيعة المحيرة والمخالفة للأدلة المتاحة، ربما هي أيضاً سبب لإهمال الموضوع على الرغم من أهميته الواضحة. على أساس هذه الأدلة، على سبيل المثال (إعطاء فكرة عن مدى تعقيدها ومدى إثارتهما للجدل والنقاش)، خلص أحد الباحثين<sup>29</sup> إلى أن المجتمع الجاهلي كان أمومياً، وقام الإسلام بإزاحته لإنشاء نظام أبوي. طرح أحد الباحثين المتخصصين في الإسلام رأياً مختلفاً عن هذه النظرية: جمع الأدلة على ممارسة عرفت ما قبل الإسلام للزواج المتعلق بالعيش مع قبيلة الزوجة (Uxorilocal Marriage) حيث ساد في بعض أجزاء الجزيرة العربية، وهو لا يقترح أن المجتمع كان أمومياً، ولكن النظام الأبوي لم يكن غالباً، وكان المجتمع في طور التغيير في وقت قريب من ولادة محمد. لقد وقع الانتقال من نسب الولد إلى أمه (Matrilineal) إلى نسبه إلى أبيه (Patrilineal)؛ وهو التغيير الذي جاء الإسلام فأكد»<sup>30</sup>.

ثمة خلاصة لا نوافق أحمد عليها في إطار تحليلها لموقع خديجة بنت خويلد في الفترة الإسلامية المؤسسة، فهي تتجه إلى إعطاء الأولوية لعائشة (الزوجة الحبيبة) لسببين: الأول: أنها أول امرأة في الإسلام<sup>31</sup>؛ والثاني: فاعليتها في إدارة الدين وتفسيره: محدثة وفقيهة ورجلة رأي. إن النقطة التي نجاح أحمد فيها أن موقع خديجة في حياة محمد الدينية

والزوجية يأخذ مركزية مهمة، فهي لم تكن تلك المرأة الداعمة مادياً والحاضنة نفسياً فحسب، لقد رافقته في أصعب مراحل الدعوة منذ اختلاعه في غار حراء، وعرفت معه مرحلة انقطاع الآيات عنه، وهي أصعب أزمة عرفها، حيث عاش فترة عصيبة. إن دور خديجة - الطاهرة كما لقبت قبل الإسلام - على أهمية كبيرة في المحيط الديني البيتي والعاطفي المرافق لبداية دعوة محمد؛ فهي بفطرتها الإيمانية وتساؤلاتها العقائدية، احتضنت الرسول، ورسخت علاقته بالوحي المنزل، ولما سمعت خديجة حادثة النبي المنتظر في تجارته إلى الشام، أبلغتها لورقة بن نوفل الذي قال: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر هذا زمانه»<sup>32</sup>. يذكر ابن هشام في السيرة النبوية نظم ابن عم خديجة لشعر يكشف فيه عن شوقه لملاقاة النبي المنتظر.

تخلص سلوى بالحاج صالح إلى أن حديث «ورقة بهذه الطريقة الحميمة عن خديجة ومحمد يؤكد أنه كان على صلة بهما، وإننا نرجح أن صلاتهم خلال الفترة التي سبقت البعثة، كانت متينة وكان محورهما عقائدياً بالنظر إلى نوعية اهتمامات ورقة ثم ما سيصبح عليه محمد في فترة لاحقة». وتتابع صالح تفسيرها لمركزية خديجة في الوحي فتقول: «إن كتب التاريخ تكتفي بذكر أن محمداً كان كثير التأمل، وكانت له خلوات في غار حراء، وكانت خديجة تساعد، وبالنظر إلى ما نعرفه عنها من قوة شخصية، بل ومن تبعية محمد لها، فلا نخاله يتغيب للتأمل دون أن تكون سنداً له. كان يعيش من ماله في غار حراء ويُطعم المساكين، وهي ترعى أولادهما. وبالنظر إلى ما عرف به محمد من ميل إلى العزلة، وهو ما يجعله ذا علاقات قليلة مع المجتمع، فالأرجح أن كل شيء كان يقع في الداخل، أي في بيت خديجة، وأن حواراً مستمراً بينهما كان قائماً»<sup>33</sup>. لا يسعفنا صمت المصادر كثيراً في الإجابة عن سؤال إشكالي نطرحه لفهم السياق الديني المرافق لبدايات البعثة: هل كانت خديجة «نصرانية» أو تأثرت بها وأثرت بمحمد بحكم علاقتهما بورقة؟ يرى المؤرخ التونسي هشام جعيط أنه «لا بد من وجود مثل هذه التأثيرات... ولا مناص من هذه الفرضية»<sup>34</sup> إذ لا يمكن فهم تأثيرات مسيحية الشام على الرسول لو لم تجد صدى مسبقاً في النفس. لقد حصل على الأرجح بثّ قسط من المعرفة انفتح على الروحانيات لدى محمد قبل مرحلة الشام<sup>35</sup>. لكن ليس ضمن مقولة انبثاق الإسلام من المسيحية ف«المسألة تقف عند حوار بين رجلين اثنين يؤمنان بالله ليس أكثر»<sup>36</sup>.

يضعنا «المرأة والجنوسة في الإسلام» أمام تاريخين منقطعين/ متصلين في تحديدهما لأوضاع النساء وأدوارهن. طبقت أحمد المنهجية التاريخية النقدية المقارنة، على قضايا

شائكة مثل تعدد زوجات محمد والحجاب وعزل النساء والعلاقات الجنسية. في الحجاب والاحتجاب، من منظور تاريخي/ مؤسسي، ترى أنه كان «خاصية تتمسك بها زوجات محمد طوال حياته، كما أن عبارة «اتخذت الحجاب» تستخدم في الأحاديث بمعنى أن المرأة المعنية تزوجت محمداً، مما يشير إلى أنه في فترة تواتر الأحاديث بعد وفاة محمد، كان الحجاب والاحتجاب يتعلق بزوجات محمد فقط، وليس من المعروف كيف امتدت تلك العادة لتنتشر في بقية المجتمع. ولعل شيوع الحجاب يرجع إلى انتصارات المسلمين في المناطق المجاورة؛ حيث كان الحجاب سائداً بين الطبقات العليا، وإلى تزايد الثروات وما صاحبه من ارتفاع في مستوى معيشة العرب ومكانتهم، بجانب اتخاذ زوجات محمد أنموذجاً يُحتذى»<sup>37</sup>.

تلقت أحمد إلى أن مجيء الإسلام، بما حمله من تغيرات وفرضه من قيود على النساء، كان «مصدر كدر»، «فما من شك أن بعض نساء العرب —لا الكاهنات فحسب<sup>38</sup>— قد فهمن القيود التي فرضها الدين الجديد على النساء وتحديده لأوجه استقلالهن، ولم يتقبلن هذا الدين في بداية تأسيس الدولة الإسلامية. ولعل وفاة محمد كانت مناسبة للاحتفال، وكذلك اعتبرن نهاية عقيدته أملاً منشوداً، وهناك دلائل تشير إلى تحول الإسلام إلى مصدر كدر، فحين سُئلت سكينة حفيدة فاطمة ابنة محمد عن سبب شخصيتها المرححة، بينما شقيقتها فاطمة تميل إلى الهيبة، ردت قائلة: إن ذلك يرجع إلى كونها مسماة على اسم إحدى جداتها ممن عشن قبل الإسلام في حين سُميت فاطمة على اسم جدتهما المسلمة»<sup>39</sup>.

على نقيض ما خلصت إليه بعض الباحثات في مجال الإسلام والجنود، إلى أن «الإسلام المحمدي» كرس المساواة بين النساء والرجال، بينما «النزعة الأبوية العمرية»<sup>40</sup> (نسبة للخليفة الراشدي عمر بن الخطاب) وتأثيرها اللاحق في «الإسلام الفقهي»، عطلتها لصالح «المركزية الذكورية» (Androcentrisme)؛ تتجه أحمد إلى القول: إن الدين الجديد قام «بتغيير أسس العلاقة بين الجنسين من خلال تحويل حقوق المرأة الجنسية وأبنائها من سياق المرأة وقبيلتها إلى مجال الرجل، وما تبعه من تحديد التعريف الجديد للزواج، بناءً على حق امتلاك الرجل. وقد جاء في إطار هذا النظام الجديد حق الرجل في التحكم في النساء وحرمانهن من التعامل مع الرجال الآخرين، وهكذا تمّ تمهيد الطريق أمام القيود التي تلت ذلك وهي: استبعاد النساء من الأنشطة الاجتماعية التي قد تؤدي إلى تعامل المرأة مع رجال غير الذين يمتلكون حقوقاً جنسية عليهن، وعزل النساء وحجبهن الذي ما لبث أن تحول إلى ظاهرة سائدة وتأسيس آليات داخلية للتحكم مثل تثبيت الفكرة حول تبعية المرأة بوصفها واجباً مفروضاً عليها. وبذلك تمّ تهيئة المناخ للمجتمع العربي، لتقع المرأة العربية

محاصرة في الدائرة التي تضم أخواتها من النساء في منطقة البحر المتوسط من الشرق الأوسط»<sup>41</sup>.

إن التحليل الأهم —من وجهة نظرنا— في خلاصات أحمد قولها بـ«وجود صوتين مميزين في إطار الإسلام وصورتين متنافرتين ومتنافستين من حيث الجنوسة [الجندر]، حيث يعبر أحد هذين الصوتين عن نفسه في القواعد البراغمية التي يقوم عليها المجتمع، والصوت الآخر يتبدى من خلال التعبير عن الرؤية الأخلاقية. فحتى عندما قام الإسلام بتأسيس الزواج بناء على تراتبية جنسية، أكد الصوت الأخلاقي —ذلك الصوت الذي لا يكاد يسمعه الحكّام وواضعو القوانين— باستمرار أهمية البعدين الروحي والأخلاقي للوجود والمساواة بين الأفراد كافة. وقد تمّ إفراة مساحة واسعة للصوت الأول في الفكر السياسي والقانوني [الشريعة الإسلامية] الذي يكوّن جوانب الفهم العملي للإسلام، إلّا أن الصوت الثاني لم يترك أثراً يذكر في التراث السياسي والقانوني للإسلام، على الرغم من أن هذا الصوت هو الجانب الذي يقبله عامة المسلمين والمسلمات ممن لا يعرفون التفاصيل الدقيقة للتراث القانوني الإسلامي. إن الوجود الواضح للمساواة الأخلاقية في الإسلام هو الذي يفسر تأكيد النساء المسلمات، عدم وجود تحيز لجنس ضد آخر في الإسلام. فعند قراءتها للنص المقدس تسمع المرأة المسلمة وتقرأ رسالة مختلفة حقاً عما يقدمه واضعو الإسلام التقليدي المتحيز للرجال والقائمون على تطبيقه»<sup>42</sup>. من الأمثلة التي تبرزها الكاتبة حول هذه الثنائية، حيث نفضل أن نطلق عليها «ثنائية القراءات» ضمن تعدد أوسع، موقف الصوفية والخوارج والقرامطة من تعدد الزوجات والحجاب ونظام العلاقات الجنسية، فتقول: «إن الجدل الذي يدور حول أي من الصوتين هو الأصح، وطبيعة العقيدة والمجتمع التي عُنِيَ محمد بتأسيسها، هو جدل يدور عبر التاريخ، بدأ بعد وفاة محمد بفترة قصيرة. كان هذا الجدل في بدايته شديداً واستمر على ذلك خلال عصر الغزوات العربية وحتى نهاية العصر العباسي (750–1258) على وجه التحديد. كانت توجد منذ البداية مجموعة ممن كانوا يركزون على الجانب الأخلاقي والروحي بوصفه أساس رسالة الإسلام، وأن القواعد التي وضعها محمد بما في ذلك ممارساته الشخصية، هي مجرد جوانب عابرة من الإسلام، لا تتعلق سوى بذلك المجتمع في لحظته التاريخية الماضية، وأن تلك القواعد والممارسات لم تكن أبداً ملزمة للمجتمع المسلم. كان الصوفيون والخوارج والقرامطة ضمن الفئات التي اتخذت ذلك الموقف إلى حد ما، واختلفت آراؤهم بشأن النساء والقواعد والمبادئ الخاصة بالمرأة بصورة بالغة الأهمية عن تلك التي تضعها المؤسسة الإسلامية في موضع الصدارة،

رأوا أن القوانين المطبقة في المجتمع الإسلامي الأول، لا تسري بالضرورة على المجتمعات التالية. رفض الخوارج والقرامطة — على سبيل المثال — الممارسات المرتبطة بامتلاك الجواري وزواج البنات ممن في التاسعة والعاشرة من العمر، كما منع القرامطة تعدد الزوجات وألغوا الحجاب، وفوق هذا وذاك تحدى الفكر الصوفي تصور المؤسسة الإسلامية للجنوسة، وهو ما يشير إليه إباحتهم للنساء التفرغ للعمل الروحي<sup>43</sup>، ليؤكد أن الجانب الروحي يفوق الجوانب البيولوجية. ومع ذلك نلاحظ أنه على مدار التاريخ لم تكن السلطة في يد الفئة التي تركز على الأبعاد الأخلاقية والروحية للدين. ولم تستمع السلطة القانونية والسياسية الدينية في الفترة العباسية تحديداً سوى إلى الصوت الرجولي للإسلام، وهي الفترة التي شهدت تبلور التراث القانوني والتفسيري الذي علق بالإسلام منذ ذلك الحين محدداً معالمه<sup>44</sup>.

نقرأ ما تقدمت به أحمد — كما أشرنا سابقاً — ضمن ثنائية القراءات، ونرى في تحليلنا أن «الصوت الأخلاقي» لا ترجعه أو تربطه بمحمد، إنما تنظر إليه بوصفه انشاقاً أو قراءة مغايرة ضمن قراءات أخرى أكثر أبوية، وهي تخالف حتى سلوك الرسول الذي لم يقتصد في زيجاته بعد وفاة خديجة، والذي تظهره المصادر الإسلامية، أنه كان شديد الغيرة على زوجاته؛ غيرة واكبت آيات التنزيل وأتت استجابة لطلباته، وهذا لا ينفي انفتاحه على النساء وتساؤلاتهن.

إن التحولات الاجتماعية والتاريخية بعد القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كان لها تأثيرات وتداعيات بالغة على حياة النساء، «تقلصت الأدوار العامة للنساء بطريقة كبيرة، إلا أنها لم تختف تماماً بأي حال من الأحوال. وتشير الدراسات والبحوث الحديثة إلى أن التحول المتزايد الذي طرأ على العلوم الدينية، بدءاً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لتصبح مجالاً خاصاً بالرجال، هو تحول أدى إلى التهميش المتزايد للنساء بعيداً عن المشاركة في إنتاج وتلقي التعليم الديني بأنواعه كافة. وكنتيجة طبيعية لسلوك العام القائم على الأدب والتحفز الذي يفرضه القرآن على الرجال والنساء على حد سواء، بدأ تأكيد مبدأ عزل النساء خلال العصر العباسي [الذي شهد تأسيس الحجاب] ويرجع ذلك إلى التأثير بالفرس الذين عزلوا النساء المنتميات إلى الطبقات العليا. ومع استقرار المسلمين خلال القرنين الأول والثاني للإسلام وسيطرتهم على الأراضي الفارسية والبيزنطية تبنا عادات وممارسات هذه الشعوب، ممثلة في عزل وتحجيب نساء النخبة، وهي ممارسات كانت مؤشراً لرغبتهم في الرفعة والارتقاء الاجتماعيين<sup>45</sup>.

إن القراءة الهادئة لخلاصات ليلي أحمد في حقبة الإسلام المبكر وحتى العصر العباسي، تبين أنها لا تتبنى الدعوات والنتائج التي خرجت بها الحركة النسوية الإسلامية، وذلك استناداً إلى الملاحظات الآتية: أولاً: لم تأتِ إلى دراسة الإسلام الجنرد من باب الدراسات الإسلامية أو الدينية/ الفقهية، بل من حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ ثانياً: لا تدعو إلى المفاهيم والمصطلحات التي ترفعها النسوية الإسلامية الداعية للمواءمة بين الإسلام النسوي وأدوات النسوية الغربية؛ ثالثاً: صحيح أنها في بعض أفكارها تشير إلى المساواة القرآنية/ الأخلاقية، إلا أن هذه القراءة ندرجها في فهمها التأويلي للتاريخ الثائر حتى على سلوك السيرة النبوية؛ رابعاً: الخطاب والمناهج النقدية المستخدمة من قبل الكاتبة تبرهن على قيامها بـ «ثورة تفسيرية ناعمة» للتحويلات/ الإصلاحات الإسلامية المؤكدة للنظام الأبوي الذي غيّر أسس العلاقات بين الجنسين ومن ضمنها «اقتصاد المتعة الجنسية وأنظمتها».

ثانياً: الحجاب في الإسلام: الصراع والاستيهامات الاستعمارية

#### 1- في المنهج

تبنت ليلي أحمد في دراستها «الحجاب الإسلامي من منظور استعماري»، منهج «النسوية ما بعد الكولونيالية» وخرجت بنتائج جديدة، لا سيما في نقدها للأديب المصري قاسم أمين (1863-1908) وأفكاره في «تحرير المرأة» (1899) وذلك في ضوء إرهاباته «الاستعمارية» كما بيّنت في كتابها «المرأة والجنوسة والإسلام»، وطورت تحليلها في (A) Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America) «ثورة هادئة: عودة الحجاب من الشرق الأوسط إلى أميركا».

يتناول مفهوم «ما بعد الكولونيالية» (Postcolonialism)<sup>46</sup> آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات. ولمصطلح «ما بعد الكولونيالي» -بحسب استخدام المؤرخين له في الأصل عقب الحرب العالمية الثانية في سياقات مثل «دولة ما بعد الكولونيالية» - معنى تاريخي تسلسلي واضح، إذ يشير إلى فترة ما بعد الاستقلال. على أية حال فقد استخدم النقاد الأدبيون هذا المصطلح بداية في أواخر السبعينيات لمناقشة الآثار الثقافية المتعددة للاستعمار. وعلى الرغم من أن دراسة قوة التمثيل المسيطرة داخل المجتمعات المستعمرة، انطلقت في أواخر السبعينيات من أعمال إدوارد سعيد مثل كتاب «الاستشراق»، وأفضت إلى تشكل ما عُرف لاحقاً باسم نظرية الخطاب الكولونيالي في أعمال نقاد مثل هومي بابا (H. Bhabha) وغاي تري سبيفاك (G. Spivak)؛ فالمصطلح الفعلي «ما بعد الكولونيالي»، لم يوظف في تلك الدراسات الأولى حول قوة الخطاب الكولونيالي في تشكيل الرأي والسياسات

في المستعمرات. على سبيل المثال استخدمت سبيفاك مصطلح «ما بعد الكولونيالي» لأول مرة في مجموعة المقابلات الشخصية والكتابات المجمعـة، والتي نُشرت عام 1990 تحت عنوان «الناقد ما بعد الكولونيالي». وعلى الرغم من أن دراسة تأثيرات التمثيل الكولونيالي كانت محورية في أعمال هؤلاء النقاد، فإن مصطلح «ما بعد الكولونيالي» — في حد ذاته — استخدم في البداية للإشارة إلى أشكال التفاعل الثقافي داخل المجتمعات الكولونيالية في الدوائر الأدبية<sup>47</sup>.

يمكن تعريف خطاب «ما بعد الكولونيالية» وأدواته المنهجية بأنه «خطاب نقدي ينحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، وإعادة النظر في تاريخ آداب المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي. إن الهدف الأول لخطاب ما بعد الإمبريالية بجهودها الكبيرة هو إعادة كتابة تاريخ الحضارة الاستعمارية من وجهة نظر من استُعمروا (...)» إن نظرية ما بعد الكولونيالية، هي في الحقيقة قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق، من خلال مقارنة نقدية بأبعادها الثقافية والسياسية والتاريخية<sup>48</sup>.

أنتجت «الدراسات ما بعد الكولونيالية» ما يطلق عليه المتخصصون «دراسات التابع» (Subaltern Studies)؛ وهو ميدان معرفي يناقش مؤثرات الاستعمار في الثقافات والشعوب التي عانت من الحكم الكولونيالي. تبلور في ثمانينيات القرن المنصرم على يد مجموعة من الباحثين الهنود، وفي مقدمتهم المفكر الهندي رانا جيت غوها (Ranajit Guha)؛ أحد رواد «دراسات التابع». وبدءاً من منتصف التسعينيات دخلت «دراسات التابع» الدراسات النسوية والأفريقية والأميركية اللاتينية — ولاحقاً العربية وإن لم تأت بمستوى التنظير نفسه — ما جعلها مقاربة للتاريخ قائمة بعد ذاتها ولا تقتصر على منطقة جغرافية محددة<sup>49</sup>.

أفادت أحمد من هذا المنهج من خلال: أولاً: نقد الخطاب الجديد للحجاب في مصر المرتبط بالوجود الاستعماري البريطاني تحديداً تقارير اللورد كرومر (1841–1917)؛ ثانياً: نقد أفكار قاسم أمين ومواقفه من الحجاب المبنية أصلاً على التأثير بالمواقف الاستعمارية، ثالثاً: نقد الخطاب الغربي المعاصر تجاه الحجاب المتأثر بالرؤى الاستشراقية والصور النمطية عن الإسلام والمسلمات.

## 2- الصراع على الحجاب: التقاطعات بين الخطابين الاستعماري والحركي

تفجر الجدل حول الحجاب في مصر نهاية القرن التاسع عشر، مشعلاً الخلاف داخل المجتمع، وأشار إلى ظهور خطاب جديد قيد التشكل إبان السيطرة الاستعمارية، يمكن



النظر إليه بوصفه خطاباً مؤسّساً. «وقد تكرر تنجر موضوع المرأة والحجاب (...) على امتداد القرن العشرين» في دول عربية وإسلامية وأوروبية «ودائماً ما يحمل الجدل بمسائل أخرى مثل الثقافة والقومية والقيم الغربية ضد القيم الأصلية، وقد تم ربط هذا الجدل بخطاب المرأة في لحظة حرجة مرت بمصر، وأواخر القرن التاسع عشر» في ظل «السيطرة الاستعمارية والكفاح ضدها وانقسام الطبقات حول هذا الكفاح»<sup>50</sup>.

نظر الخطاب الاستعماري إلى الحجاب كمظهر من مظاهر القهر بين المسلمين، وساد هذا الموقف لدى الأوروبيين في القرن الثامن عشر. إن فكرة «الحجاب القهر» اتخذت بعداً جديداً وأهمية في القرن التاسع عشر<sup>51</sup>، وكما تبرهن أحمد، جعل المستعمرون هذا الاهتمام الجديد، جزءاً من تسويقهم لغزو الشرق الأوسط واستعمارهم. شعر الأوروبيون بالإرباك بسبب النساء المحجبات: كان هؤلاء الأوروبيون يعرفون أن النساء يراقبنهم، على حين لا يراهن أحد. وقد أتاح ذلك للنساء قدراً من السلطة عليهم، وكان ذلك قلباً للعلاقة المتوقعة بين الأعلى والأدنى، «أن ترى ولا تُرى»<sup>52</sup>.

تُدرج أحمد كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين في «الخطاب الاستعماري/ الكولونيالي» بعد أن أصبحت الثقافة جزءاً من الصراع على الحجاب والنساء؛ تمسك الأديب المصري «بهيذين الموضوعين كمدخل للتحويل الثقافي والاجتماعي، مفهوماً فقط بالرجوع إلى أفكار تمّ استيرادها من مجتمع المُستعمر إلى الموقف المحلي (...)» وقد كانت ممارسات الإسلام التي تقتصر عليه فيما يختص بالمرأة، تشكل دائماً جزءاً من القصة الغربية عن الأخروية (Otherness) الجوهرية ودونية الإسلام<sup>53</sup>.

بموازاة الخطاب الاستعماري حول الحجاب والمرأة؛ المؤسّس في الأدبيات الاستشراقية وأدب الرحلات، على «العين المتلصصة» أو ما يمكن أن نطلق عليه «عين الرغبة القضيبية»<sup>54</sup>، لسبر خفايا «إمبراطورية الحريم الغامض»، انضمت لغة الحركة النسوية التي ازدهرت بشدة في القرن التاسع عشر إلى الخطاب الاستعماري. وصمت أحمد ذلك الشكل الأولي للخطاب النسوي، الذي عمل على ربط التقدم الثقافي بمكانة المرأة، وربط رقي المرأة بالتخلي عن الثقافة المحلية لصالح الأعراف الغربية، بـ«النسوية الاستعمارية» (Colonial Feminism). فأوضحت مظاهر الثقافة الشرقية -وخصوصاً الحجاب- هدفاً رئيساً للنسوية الاستعمارية، الذي نظرت إليه بوصفه «رمزاً بصرياً لثقافة شرقية رجعية وقمعية»<sup>55</sup>. تنقد أحمد معايير «الأنوثة الفيكتورية» في مواقف كرومر الذكورية الاستعمارية، الذي اعتبر أن «الأسباب التي جعلت الإسلام نظاماً اجتماعياً فاشلاً تماماً متعددة» ومع ذلك، فهو يؤكد

أن أول وأهم الأسباب هو معاملته للنساء. وقد كتب يقول: إنه بينما تعلم المسيحية احترام المرأة، ويعلي الرجال الأوروبيون من شأنها، بدافع من تعاليم دينهم، فإن الإسلام يحقرهن، ولهذا التحقير الذي يبدو أوضح ما يبدو في ممارسات الحجاب والتفرقة، تعود دونية الرجال المسلمين التي يمكن التدليل عليها»<sup>56</sup>. (...) فبالنسبة للتبشيريين، كما هو الحال بالنسبة لكرومر، تعد المرأة مفتاحاً لتحويل المجتمعات الإسلامية المتخلفة إلى مجتمعات مسيحية متحضرة»<sup>57</sup>.

إن ثنائية الإمبريالية والجنـدر بمعاييرها الثقافية والدينية والعرقية، تبني إحدى مسلماتها على مركزية الذات الأوروبية، التي تريد تحرير العالم من الشوائب والثقافات القديمة، وقد شكل «نزع الحجاب» -وما زال- خطاباً تحريراً تبشيراً يتأسس على «المعرفة/ السلطة» بالمعنى الذي ناقشه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (Michel Foucault) (1926-1984)، خصوصاً إذا ما فهمنا نظريته في ضوء تمثلات ومجازات ومقاومات «الحجاب» -فحيث توجد مقاومة توجد رغبة- في الحالة الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي (1830-1960). تقدم الباحثة والأكاديمية التركية ميدا ييغينوغلو (Meyda Yeğenoğlu)، تحليلاً حقيقياً حول «رغبة الذات الاستعمارية والحجاب»، فتقول: «إن رغبة الذات الاستعمارية في السيطرة والهيمنة على البلاد الأجنبية، ليست مستقلة عن رغبتها الرؤيوية، عن رغبتها في الاختراق، من خلال عينها المراقبة، لما يوجد خلف الحجاب. إن اللامرئية التي يؤمنها الحجاب لأجل الآخر الاستعماري، هي في الوقت نفسه النقطة التي تمفصل عندها الرغبة والأرض التي يزاح عليها الدافع الرؤيوي للذات، لأن ثمة دائماً تهديداً يرد نظرة الآخر. على حد تعبير [فرانز] فانون [Fanon] «كانت الرغبة المسعورة للمستعمر في رفع الحجاب عن المرأة الجزائرية، هي رهانه على كسب معركة الحجاب». في هذه المعركة كان المحتل منكباً على رفع الحجاب عن الجزائر لأن في ذلك إرادة جعل هذه المرأة ضمن متناوله، وجعلها موضوعاً ممكناً للتملك (...) ووفقاً لفانون، بما أن الحجاب يسمح للمرأة «أن ترى من دون أن تُرى» فإنه يمنع الرد بالمثل، ويعني ضمناً أن المرأة لا تقدم نفسها على أنها متاحة للرؤية»<sup>58</sup>. إن نقد ليلي أحمد لقاسم أمين يأتي من وقوعه في «الفخ الاستعماري»، «فقاسم أمين الأبوي حتى النخاع ينادي في الواقع، في دعوته لتحرير المرأة بتحول المجتمع الإسلامي حسب النموذج الأوروبي، وبإحلال الهيمنة الذكورية بالأسلوب الغربي محل الهيمنة الذكورية على الطراز الإسلامي غير المألوف، وهكذا نجد أن فتح رداء الدعوة لتحرير المرأة، وقام بهجمة تعيد في أصولها إنتاج هجوم المستعمر على مجتمع وثقافة أهل البلاد الأصليين (...)»

فبالنسبة له كما هو الحال بالنسبة للمستعمرين، يرمز الحجاب وعدم الاختلاط إلى تخلف ودونية المجتمعات الإسلامية (...) وهكذا يمثل كتابه إعادة صوغ للنظرية الاستعمارية التي تقول بدونية أهل البلاد والمسلمين وتفوق الأوروبي ولكن بصوت أحد أبناء البلاد (...) لقد شكل مؤشراً «إلى دخول الخطاب الاستعماري عن المرأة والإسلام في التيار الرئيسي للخطاب العربي»<sup>59</sup> الذي تولد عنه خطاب عربي مقاوم لخطاب الاستعمار.

تناقش أحمد ظاهرة عودة الحجاب إلى العالم العربي في السبعينيات - بعد اضمحلاله وعدم مرثيته في الفضاء العام - فتضعها ضمن عوامل عدة، يتقدمها عامل «انفجار الأصوليات الإسلامية»، واختراقها للمجتمعات العربية خصوصاً جماعة الإخوان المسلمين التي وظفت «مرثية الحجاب» في أجندتها السياسية والدينية. ففي كتابها «ثورة هادئة: عودة الحجاب من الشرق الأوسط إلى أميركا» تقدم سرداً مهماً حول عودة ظهور الحجاب في مصر، والولايات المتحدة خصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر (أيلول) 2001، وقد جمعت بين تجربتها الشخصية والتحولات الاجتماعية والدينية والسياسية التي شهدتها مصر، لتخرج بنتائج دقيقة لأنظمة المعنى المرتبطة بالحجاب. وتحدث عن تجدد موازٍ للحجاب في المدن الأمريكية مع بداية هذا القرن والذي نتج عن انتشار الإسلاميين، وشبكة من المهاجرين المسلمين مثل «الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية» (ISNA).

إن انكسار المشروع القومي والناصري وإطلاق الرئيس المصري أنور السادات يد الجماعات الإسلامية، وفشل مشروعات التنمية والتحديث وبناء الدولة الحديثة، وتعرثر الإصلاح الديني، أدت كلها - مع عوامل أخرى - إلى صعود أنماط من «التدين الخشن»، وشكل الحجاب والمرأة حلقة من حلقات الصراع على الدين، بين «الإسلام التقليدي» و«الإسلام الحركي»، فقاتل الطرفان على أجساد النساء وعزلهن.

لم يقم «إسلام المؤسسات» كما تصنفه أحمد بتطوير خطابه، «فإن هذا الإسلام غير المتسامح مع أي فهم للدين عدا فهمه هو، وهو فهم سلطوي، ذكوري متعصب وعدائي للمرأة، كان وما زال هو النسخة المعترف بها للإسلام، إسلام الأقوياء سياسياً»<sup>60</sup>. غير أن الخطاب الأخطر ما أسس له «الحركيون الراديكاليون» في الإسلام السياسي، بعد استيلائهم على السلطة - كما هو الحال في النموذج الإيراني - حيث فرضوا قيوداً صارمة على حركة النساء في حالات عدة، خصوصاً الدول التي تطبق أنظمة صارمة للشريعة الإسلامية، بدءاً من سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم وذلك بموازاة «تضخم الأنا الدينية»؛ «لقد زاد ذم النساء بنسبة تتناسب مباشرة مع انتشار التصريحات الممجدة للذات في النظام الإسلامي»<sup>61</sup>.

إن صعود الإسلاموية هو أهم تحليلات أحمد حول ظاهرة «عودة الحجاب»، فقد تحولت في غضون أربعة أو خمسة عقود من «الهامش» إلى الشكل «المهيمن» للإسلام داخل الغرب، كما في أي مكان آخر. هذا التحول، كما تصفه، يؤثر في انتشار النمط الإسلامي للحجاب، الذي بدأ باعتباره «ظاهرة هامشية داخل الحرم الجامعي» في مصر<sup>62</sup>، ليتحول لاحقاً إلى «ثورة هادئة» في المجتمعات الإسلامية وكذلك في أمريكا الشمالية من خلال «الهجرة الإسلامية» ونشاط النساء اللاحق فيما يتعلق بحقوق المرأة والجنوسة [الجنـدر]<sup>63</sup>.

تتناول أحمد التوظيفات الاستعمارية المعاصرة للحجاب، تحديداً بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) وبداية الحرب على أفغانستان بوقت قصير «حيث سُلّطت الكثير من الأضواء على موضوع «المرأة في الإسلام» في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، ليصبح ذا أهمية قومية في خطاب لورا بوش وشيري بلير، اللتين رفعتا لواء تحرير النساء المحجبات. «ومن الطبيعي ألا تكون استراتيجية توظيف الصراع من أجل إنهاء اضطهاد المرأة كتبرير للحرب والسيطرة، سوى خدعة، طالما استخدمها الإمبرياليون البريطانيون والفرنسيون بشكل خاص في الماضي ضد المسلمين والهندوس ومن أرادوا. إنه بالتحديد ذلك الخطاب، التي وصفته غاياتري سبيفاك في جملتها الشهيرة: «الرجال البيض ينقذون نساء سمر من رجال سمر البشرية». من يعرف تاريخ الإمبريالية، تتاجاً من توظيف هذه الخدعة القديمة مجدداً، والمفاجأة الأكبر أنها نجحت بالفعل. وسرعان ما أصبح ذلك توافقاً عاماً أن قواتنا موجودة في أفغانستان من أجل حماية النساء هناك من فظاعات طالبان، وهي أعمال تتسب إلى الإسلام»<sup>64</sup>.

#### الخاتمة

تواجه دراسات الإسلام والجنـدر، السلطة الدينية الأبوية وتتحدى الحدود الفقهية التقليدية. لا يزال هذا الحقل المعرفي يجذب اهتمام الجامعات والصروح الأكاديمية، خصوصاً في الغرب، حيث عملت ودرّست ليلي أحمد. لا ترتبط هذه الجاذبية بفهم الأنساق العامة والرمزية بين الدين الإسلامي والنساء فحسب؛ فقد تطور الوعي الأكاديمي والعلمي حول أهمية تحليل ودراسة موقع المرأة في الديانات الأخرى، دون أن يقتصر على الأرومة الإبراهيمية، خصوصاً أن «الهرمينوطيقا الدينية» أتاحت للمشتغلات بها التوصل إلى خلاصات تخالف التفسير الكلاسيكي الذي يتجه — غالباً — إلى تحجيم الحضور النسائي وفاعليته في الدين والمقدس.

ركزت أحمد القادمة من الثقافات البعيدة عن الحاضرة الغربية، على قضايا تلقى اهتماماً

ملحوظاً في المؤسسات الجامعية والثقافية الأمريكية والأوروبية، ولا شك أنها صحت العديد من المفاهيم والرؤى النمطية السائدة عن حيوات وفضاءات المسلمات، في عملها على الدراسات النسوية ما بعد الكولونيالية، وكذلك اشتغالها، بشكل دقيق، على أحوال النساء في حقبة الإسلام المبكر، تحديداً إبان الدعوة المحمدية — وهي فترة زمنية بعيدة وكاشفة — مستخدمةً مناهج عدة أتاحت لها طرح خلاصات جديدة، اتخذت مسارين: أولاً: تأثير الدين الجديد في العلاقات بين الجنسين لصالح المنظومة الأبوية وبقياء النظام الأمومي؛ ثانياً: التمييز بين الصوت البراغماتي (الفقهي/ الأبوي) والصوت الأخلاقي (الصوفي والقرمطي/ المساواتي) اللذين طبعاً تاريخ الإسلام، وما زال الصراع قائماً بينهما.

إن الأفكار التي طبعت أدب الرحلات والاستشراق حول «نساء الآخر- المسلم» — كما درستها أحمد —، تتطلب بذل المزيد من الجهود، على مستوى التحليل والتفكيك وإعادة البناء، ضمن المناهج المتعددة التخصصات، التي تأخذ في الاعتبار «نرجسية الهوية الثقافية» و«ثنائية الهامش والمركز»؛ وأظن أن العمل هنا ضروري ومطلوب لتكثيف الفهم والقراءات الواعية حول سياسات الموقع والجنـدر والدين والثقافة والاستعمار.

## المراجع

- 1 — من المهم الإشارة إلى أن الإبراهيميات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، تختلف رؤيتها الدينية تجاه النساء، فالنص التوراتي يبنّي على بنى نصية/ أبوية صارمة، وتصارع النسوية اليهودية من أجل الحد من الطابع النصي البطريركي في مجالات مختلفة، وفي المسيحية فإن الأبوية الدينية أكثر رسوخاً في مواقف بولس الرسول من المرأة، على النقيض التام من إعلاء السيد المسيح للنساء، أما في الإسلام فتكشف الكثير من الآيات عن المساواة، وترى المشتغلات في النسوية الإسلامية أن القرآن لا يقيم تمييزاً أنطولوجياً بين الرجل والمرأة، فهو يمكن أن يُحيل على وظائف لكنه لا يؤسس لتراتبية ماهوية بين الجنسين. نرى أن اليهودية لا سيما على مستوى الشريعة أثرت في آباء الكنيسة والشريعة الإسلامية، وتبعاً لذلك نميز بين النص وتفسيره، مع إدراكنا أنه من الصعب — أحياناً كثيرة — تحريره من طابعه المعادي للنساء، إذا كانت الطبقات الأبوية أصيلة فيه.
- 2 — نفترض أن الوعي المعرفي النسوي للمسلمات يعود إلى حقبة الإسلام المبكر، يتضح ذلك من خلال جدلية العلاقة بين النص المقدس والتاريخ، حيث كان للمرأة فيه موقعٌ وفعلٌ تفسيريٌّ وتأويليٌّ، بدءاً بالسؤال التاريخي التدشيني الذي أطلقته أم سلمة زوجة محمد: «ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟»، فأنزل الله آيته، التي تلاها الرسول في الجامع {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِئِينَ وَالْقَانِئَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (سورة الأحزاب/ الآية 35). تعد عائشة التي جمعت إلى جانب نقل الأحاديث وحفظ القرآن وتفسيره، من المنتسبات إلى مدرسة الرأي، فهي لم تبادر بالأخذ من كل ما ينقل لمجرد أنه مروي ومنقول، ويدرجها التراجمة في طبقات الفقهاء. ما نسعى إلى قوله هنا أن الوعي النسوي بالنص الديني ومساءلته ودور النساء فيه لا يعود إلى التاريخ الحديث والمعاصر، فقد سجل أسبقيات تاريخية؛ وإن انقطع أحياناً عن مساره.

3- من المفيد التوضيح هنا أن كتابة تاريخ المرأة في الإسلام (التراجم والسير) التي بدأت مع الأدبية والشاعرة اللبنانية زينب فواز (1844-1914) صاحبة «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»؛ تختلف عن الدراسات الحديثة، التي استخدمت مناهج العلوم الاجتماعية والنقد لفهم النصوص وتفسيرها، لذا رأينا أن أبوت هي أول من افتتح الدراسات العلمية النقدية حول الإسلام والجنـدر/ الجنوسة.

4- عُرِّبَ الكتاب تحت هذا العنوان: المرأة والسياسة في الإسلام مع دراسة نموذجين من العصر العباسي: الخيزران أم الرشيد وزبيدة زوجته، ترجمة وتحقيق: عمر أبو نصر، طبعة دار ومكتبة بيبليون، جبيل - لبنان، 2009.

5- انظر: زين الدين، نظيرة: السفور والحجاب، محاضرات ونظرات مرماها تحرير المرأة والتجـدد الاجتماعي في العالم الإسلامي، دار المدى، دمشق، الطبعة الثانية، 1998. انظر أيضاً: الجوهري، عايدة: رمزية الحجاب مفاهيم ودلالات، مركز دراسات الوحدة، العربية بيروت، الطبعة الأولى، 2007.

6- أصدرت المرنيسي عام 1982 كتاباً بالفرنسية حمل عنوان (La Femme dans l'inconscient Musulman) «المرأة في اللاوعي المسلم» - لم ينقل بعد إلى العربية - وقَعَّته باسم مستعار هو «فتة آية صباح». حمّلت خلاصات العمل التراث وزر تهميش المرأة، كنتيجة لنظام عبادي يقضي بخضوع الرجل للخالق والمرأة للرجل. وتكشف المرنيسي النقاب عن تنوع الخطاب الفقهي، مقارنة بالخطاب الأيروسي السائد في القرن السادس عشر مع ما سمته الخطاب الأرثوذكسي الممثل بالنصوص الأصلية وبعض النصوص الفقهية المتشددة.

7- ثمة اختلاف بين الترجمات العربية في ما يتعلق بمصطلح (Gender) فالبعـض ينقله كما هو «الجنـدر» والبعـض الآخر يترجمه بـ«الجنوسة» وهناك أيضاً «النوع الاجتماعي» و«الهوية الجنسية» الذي نحته الكاتب المصري جابر عصفور. هذه التعددية الترجـمية للكثير من المصطلحات الغربية على صلة بسياق معرفي وفكري أوسع يمكن تأطيره في إطار من موضوع «النظرية المهاجرة» أو «المرحلة» أو «المسافرة» أو «النازحة» (Traveling Theory) تبعاً لصراع الترجمات. وهو الموضوع الذي كان إدوارد سعيد نفسه قد خصّه بمقال شهير، حمل العنوان نفسه، ونشره أول مرة عام 1982 وبعد ذلك ضمّه إلى مقالات «العالم والنص والناقد» الذي ظهر في العام نفسه. ولكي ترقى النظرية إلى مصاف النظرية المهاجرة لا بدّ من أن تخضع لدروس تجربة الثقافة المتقبّلة للنظرية، وبخاصة من ناحية ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو (Pierre Bourdieu) بـ«عمليات الانتقاء والتبئية» ونزع الطابع القومي عن النصوص». انظر: بن الوليد، يحيى، «الجنـدر في المقاربة النسوية العربية المعاصرة: نقاط انطلاق وخطوط تطوّر»، معهد العالم للدراسات، 19 أغسطس (آب) 2016، على الرابط التالي:

<http://alaalam.org/ar/society-and-culture-ar/item/369-587190816>

اعتمدنا في هذه الدراسة على مصطلح «الجنـدر» لأنه الأكثر تداولاً والأقرب إلى الفهم لدى المشتغلين في هذا الحقل. قد يلاحظ القارئ ورود مصطلح «الجنوسة» في مواقع عدة داخل النص، وقد أبقينا عليه كونه استند إلى اقتباسات من نصوص ومراجع، كما أن الكتاب الأساسي للأكاديمية ليلي أحمد المترجم إلى العربية اعتمد مصطلح «الجنوسة».

8— نقل إلى لغة الضاد تحت هذا العنوان: المرأة والجنوسة في الإسلام: الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة، ترجمة: منى إبراهيم، هالة كمال، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، (303 صفحات). سنعتمد في دراستنا على النص المترجم.

9— Ahmed, Leila, "Women and the Advent of Islam", The University of Chicago Press, Vol. 11, No. 4 (Summer, 1986), pp. 665-691.

نشير إلى دراسات أخرى لها في هذا المجال في حقبة الإسلام المبكر: «The Women of Islam». Transition 83 (2000) (78-97).

"Early Islam and the Position of Women: The Problem of Interpretation." In Women in Middle Eastern History: Shifting Boundaries in Sex and Gender, edited by KEDDIE NIKKI R. and Baron Beth, 58-73. Yale University Press, 1991.

10 - Ahmed, Leila, "Western Ethnocentrism and Perceptions of the Harlem." Feminist Studies 8.3 (Autumn, 1982): 521-534.

11 - Ahmed, Leila, A Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America. New Haven. Yale University Press (2011) (360 pages).

نشرت دراسة حول الحجاب عام 2005: "The Veil Debate Again: A View from America in the Early Twenty-first Century". On Shifting Ground: Muslim Women in the Global Era. Ed. Fereshteh Nouraie-Simone. New York: Feminist Press at the City University of New York, 2005.

12— ولدت ليلي أحمد عام 1940 في القاهرة، حيث كان والدها ينتمي إلى الطبقة المتوسطة في مصر، أما والدتها فكانت من الطبقة العليا التركية. تشكلت طفولتها ما بين القيم المصرية الإسلامية والاتجاهات الليبرالية الأرستقراطية التي وُجدت في الدولة المصرية آنذاك. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة كامبريدج في الستينيات، وانتقلت إلى الولايات المتحدة لتقوم بالتدريس والكتابة. وهناك تقلدت منصب أستاذة الدراسات النسائية والدراسات الشرقية المتقاربة في جامعة ماساتشوستس في أمهرست (University of Massachusetts Amherst) عام 1981. أصبحت أستاذة في الدراسات النسائية والعلوم الدينية كلية اللاهوت في جامعة هارفارد عام 1999 حيث تقوم بالتدريس فيها حتى اليوم. نشرت سيرتها الذاتية (A Border Passage: From Cairo to America) «ممر الحدود: من القاهرة إلى أميركا» عام 1999؛ مزجت فيها بين مسيرتها العائلية والأكاديمية في الوطن والغرب، وانطباعاتها الثقافية ومواقفها السياسية عن مصر، لا سيما إبان الفترة الناصرية. انظر: A Border Passage: From Cairo to America, Farrar, Straus and Giroux, 1999, (307 pages).



نحيل هنا على قراءة نقدية لمذكراتها:

Aouadi, Leila, "The Politics of Location and Sexuality in Leila Ahmed's and Nawal El Saadawi's Life Narratives", *International Studies Interdisciplinary Political and Cultural Journal*, Vol. 16, No. 1/2014.

نشرت أحمد إلى جانب كتبها الثلاثة الأساسية دراسات ومقالات نذكر منها:

*Feminism and Feminist Movements in the Middle East, a Preliminary Exploration: Turkey, Egypt, Algeria, People's Democratic Republic of Yemen* Women's Studies International Forum, Volume 5, Issue 2, 1982, Pages 153-168.

"Feminism and Cross-Cultural Inquiry: The terms of discourse in Islam" In *Coming to Terms: Feminism, Theory and Politics*. Ed. Elizabeth Weed. New York: Routledge, 1989, 143-151.

"The Discourse of the Veil" in: *Postcolonialisms An Anthology of Cultural Theory and Criticism* ed. Gaurav Desai and Supriya Nair. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2005, 315-338.

"Women in the rise of Islam." *The new Voices of Islam: Rethinking Politics and Modernity: A Reader*. Ed. Mehran Kamrava. Berkeley, CA: University of California Press, 2006. 177-200.

13- لن ندخل في الظروف والعوامل المؤدية إلى نشأة هذا المصطلح ومناهجه والمنشآت فيه من النسويات، لكننا نشير إلى أن الاعتراضات المرافقة لنشأته تمثلت في رفض النسويات العلمانيات للمزج بين الإسلام والنسوية لاختلاف السجلين، للمزيد نحيل على: قرامي، آمال، "النسوية الإسلامية: حركة نسوية جديدة أم استراتيجيا نسائية لنيل الحقوق"، في: *النسوية العربية: رؤية نقدية*، مجموعة باحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، تجمع الباحثات اللبنانيات، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص32 وما بعدها.

14- نعتمد على النص المترجم إلى العربية.

15- خلصت باحثات في الدراسات النسوية والاجتماعية إلى أن النظام الأبوي/ البطريركي تأسس مع نشوء المجتمعات الحضرية ونشأة نظام الدولة - المدينة، فالأدلة التاريخية الأثرية تشير إلى علو مكانة النساء في المراحل التاريخية السابقة، وتشير الاكتشافات الأثرية إلى قيام ثقافات الشرق الأوسط بتقديس الإلهة - الأم في العصر الحجري الحديث وحتى بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد في بعض المناطق. من أهم النظريات المطروحة ضمن هذا التفسير ما تقدمه المؤرخة النمساوية الأميركية جيردا ليرنر (Gerda Lerner) (1920-2013) صاحبة (*The Creation of Patriarchy*) حيث رأت أن أهمية زيادة السكان وتوفير القوى العاملة في المجتمعات الأولى، أدت إلى سرقة النساء اللاتي كانت جنسانيتهن وقدراتهن الإنجابية هي مصدر الملكية الأول الذي تنافست عليه القبائل، ومن هنا نشأت الثقافات المحاربة المساندة لقيم السيادة الذكورية. انظر: أحمد، ليلى، المرأة والجنوسة في الإسلام، مرجع سابق، ص16. انظر:

Lerner, Gerda, *The Creation of Patriarchy*, Oxford University Press, first published 1986, (318 pages).

- 16- أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة في الإسلام، مرجع سابق، ص67.
- 17- Oakley, Ann (1993) [1972]. Sex, gender and society. Alder shot: Arena, published in association with New Society.
- 18- نحيل على كتابها: نساء مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة: هالة كمال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008. نشرت توكر، أستاذة التاريخ في جامعة جورجيتاون كتاب (Women, Family, and Gender in Islamic Law) عام 2008.
- 19- مديرة مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورجيتاون.
- 20- العدوي، أحمد عبد المنعم، "تقاطعات النسوية والاستشراق، قراءة تاريخ المجتمعات الإسلامية قبل الحداثة من منظور جنوسي: إشكالات منهجية ورؤى نقدية"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد (26/3) العدد (103) ربيع 2018، ص298-299.
- 21- استخدمت ليلي أحمد كثيراً مصطلح الشرق الأوسط في كتابها، وهو مصطلح جديد ظهر في خمسينيات القرن التاسع عشر، كان من الأجدى منهجياً العودة إلى المصطلحات والتقسيمات الجغرافية السائدة والمتداولة في الحقب الزمنية التي غطتها الكاتبة.
- 22- أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة في الإسلام، مرجع سابق، ص23.
- 23- عبود، حسن، «الخطابات المتباينة للنسوية والإسلام والخوف من الازدواجية في المعايير»، في: النساء في الخطاب العربي المعاصر، مجموعة باحثين، تجمع باحثات لبنانيات، الكتاب التاسع: 2003-2004، ص368.
- 24- المرأة والجنوسة في الإسلام، مرجع سابق، ص43.
- 25- نفسه، ص46.
- 26- نفسه، ص46.
- 27- نفسه، ص47.
- 28- بن سلامة، رجاء، بنیان الفحولة: أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بتر للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2005، ص61-62. انظر نقلاً عن رجاء بن سلامة: منصور، فهمي، أحوال المرأة في الإسلام، منشورات الجمل، كولونيا، 1997. انظر أيضاً:
- Benslama, Fethi, « Le Voile de L'Islam », Intersignes, No 11- 12, printemps 1998, p 66.
- 29- في كتابها «المرأة والجنوسة في الإسلام» تسمى ليلي أحمد الباحثين، الأول: هو المستشرق الإسكتلندي وليم روبرتسون سميث (William Robertson Smith) صاحب النظرية الأولى، والثاني: المستشرق البريطاني مونتغمري وات (Montgomery Watt) صاحب النظرية الثانية، راجع الصفحة (47).
- 30- Ahmed, Leila, Women and the Advent of Islam, The University of Chicago Press, Signs, Vol. 11, No. 4 (Summer, 1986), p 667.
- 31 - Ibid, p 665.
- 32- انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، الجزء الأول، ص203.

- 33- العايب، سلوى بالحاج صالح: دثريني يا خديجة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 2011، ص73.
- 34- أي فرضية التأثير بالمسيحية وليس الحسم بنصرانية خديجة.
- 35 - جعيط، هشام، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، في السيرة النبوية (2)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص154.
- 36- المرجع السابق، ص154.
- 37- المرأة والجنوسة في الإسلام، مرجع سابق، ص60.
- 38- تشير أحمد في كتابها إلى مسألة لافتة في ما يتعلق بالعلاقة الصدامية بين محمد ونبوة النساء، التي تشي بالتوتر الأصيل بين الديانات الإبراهيمية ودور المرأة في إدارة المقدس وإنتاجه وتفسيره، فتلاحظ أن التمرد النسائي على محمد في سياقه النبوي (تنبئي) (Prophetic)؛ كما فعلت سلمى بنت مالك وسجاح بنت عوس في شبه الجزيرة العربية، وبعض النساء في حضرموت، أتى ضمن حركة تمرد وثورة على ما جاء به الإسلام من قيود على النساء، بحيث إن ست نساء من قبائل كندة وحضرموت احتفلن بوفاة محمد (صبغن شعرهن بالحناء ودقن على الدفوف)، وقد نظرت إليهن المصادر الإسلامية بوصفهن «عاهرات»، الحركة هذه دفعت أبا بكر لإرسال قائده المدعو المهاجر بصحبة الخيال والرجال لمواجهة هؤلاء النساء. وتتساءل أحمد: «ما الذي جعل من معارضة العاهرات مصدر تهديد للإسلام بالدرجة التي تدعو إلى إرسال قوات من الجيش لمواجهتهن؟ لقد كانت ثلاث من المذكورة أسماؤهن من طبقة النبلاء، بينما انتمت أربع من الأخريات إلى العشيرة الحاكمة من قبيلة كندة. وتشير مكانتهن وكذلك مساندة الرجال لهن إلى كونهن كاهنات لا عاهرات، أما الرقص والغناء فلم يكن مجرد تعبير عن فرحتهن الخاصة، وإنما أسلوباً تقليدياً يستهدف دعوة قبائلهن للتخلص من قيود الدين الجديد» المرجع نفسه، ص64-65.
- 39- المرجع السابق، ص65.
- 40- ترجع أحمد البدايات التاريخية لتأسيس معظم المؤسسات الإسلامية إلى فترة حكم الخليفة عمر بن الخطاب، حيث أصدر الكثير من المراسيم والقرارات الدينية والمدنية والجزائية، بما في ذلك الرجم كعقوبة للزنا. وقد كان عمر قاسياً تجاه النساء، وكان شديد العصبية ويقوم بالاعتداء الجسدي على زوجاته، وسعى إلى حبس النساء في بيوتهن ومنعهن من ممارسة الصلاة في المساجد، وحين فشل في تحقيق ذلك أسس فكرة الفصل بين الجنسين في الصلاة مع تخصيص إمام خاص لكل منهما، واختار إماماً من الرجال ليؤم النساء في خروج آخر عما كان مألوفاً. فمن المعروف أن محمداً قد عيّن أم ورقة لتؤم أهل بيته من الرجال والنساء، وإلى ذلك قامت عائشة وأم سلمة بدور إمامة النساء بعد وفاة الرسول. وبخلاف ما كان على عهد محمد منع عمر زوجات النبي من التوجه إلى الحج، لكن الخليفة الثالث عثمان سمح لزوجات محمد بالتوجه إلى الحج. المرجع نفسه، ص65-66.
- 41- نفسه، ص67.
- 42- نفسه، ص70-71.

- 43- لم يمنع الإسلام التقليدي أو الإسلام الرسمي المرأة من تولي الأدوار الدينية في الحديث والإفتاء والدعوة والفقه، باستثناء منعهم لها من إمامة الرجال، على خلاف ما ذهب إليه المتصوف الأكبري ابن عربي وأبو ثور والمزني.
- 44- أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة والإسلام، مرجع سابق، ص71.
- 45- انظر: موسوعة النساء والثقافات الإسلامية: المجلد الأول: المنهجيات والمنظومات والمصادر، مجموعة باحثين، تحرير: سعادة جوزيف، دار بريل بالتعاون مع مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، ص101. انظر أيضاً: أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة والإسلام، الفصل الخامس: تطور الخطابات المؤسّسة، والفصل السادس: إسلام العصور الوسطى، ص85 وما بعدها.
- 46- أفضى كتاب «الاستشراق» (1978) للمنظر الأدبي والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد (-1935 2003) إلى توليد الدراسات النسوية والنقاشات المتعلقة بها في دراسات الشرق الأوسط، وفي مناطق أخرى تذهب أبعد من وراء هذا الحقل.
- 47- دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسية، بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، ترجمة: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، تقديم: كرمي سامي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010، ص282-283.
- 48 - ثقافة الهند، المجلد (65)، العدد (1)، 2014، ص36.
- 49- راجع: جلولي، العيد، «الأبعاد المفاهيمية لنظرية ما بعد الكولونيالية»، شبكة رواد المعرفة، 17 آب (أغسطس) 2012، على الرابط التالي:  
<http://rooad.net/news-493.html>
- 50 - أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة والإسلام، مرجع سابق، ص140.
- 51- بولوك، كاثرين، نظرة الغرب إلى الحجاب: دراسة ميدانية موضوعية، ترجمة: شكري مجاهد، العبيكان، الرياض، كلمة، أبو ظبي، الطبعة الثانية، 2011، ص61. لا نخفي أننا كنا حذرين جداً في التعامل مع هذا المرجع بسبب نزعة الدفاعية التبشيرية، فالكاتبة كاثرين بولوك (Katherine Bullock) المحاضرة في قسم العلوم السياسية في جامعة تورنتو، والتي اعتنقت الإسلام عام 1994، تبتعد عن المنهج العلمي المحايد في دراسة الظاهرة، وتقع أحياناً كثيرة في «فخ الذاتية»، وعموماً يعمل المسلمون المعاصرون والفقه التقليدي على الإفادة من خطاب كهذا لتثبيت أفكارهم الأبوية/البطريكية، ولكن هذا لا ينفي توافر بعض الأفكار الجيدة في كتاب بولوك، وذكرها لعدد من المراجع يمكن للباحث/ة الإفادة منها.
- 52 - انظر: ييغونغلو، ميذا، استيهامات استعمارية: نحو قراءة نسوية للاستشراق، ترجمة: عدنان حسن، دار التنوير للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 2012، ص70.
- 53- أحمد، ليلي، المرأة والجنوسة والإسلام، مرجع سابق، ص160. من أجل فهم أعمق للدراسات حول الجنوسة والإمبريالية كما درستها الكاتبات والباحثات العربيات اللواتي كتبن في الإنجليزية، نحيل على: Nassauer, Luisa Kristina, Beyond Borders: Representations of Gender in Post-Colonial Arab Literature in English, Doctoral

- 54- يعتبر المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان «أن كل عين هي عين شريرة أكثر منها خيرة».
- 55- العدوي، أحمد عبدالمنعم، تقاطعات النسوية والاستشراق، مرجع سابق، ص303. انظر أيضاً للمزيد من التفاصيل: تحليل ليلى أحمد في الفصل الثامن من كتابها ص160 وما بعدها.
- 56- أحمد، ليلى، المرأة والجنوسة والإسلام، مرجع سابق، ص164.
- 57- نفسه، ص166.
- 58- بيغينوغلو، ميداء، استيهامات استعمارية: نحو قراءة نسوية للاستشراق، مرجع سابق، ص-105 106.
- 59- أحمد، ليلى، المرأة والجنوسة والإسلام، مرجع سابق، ص175-177.
- 60- نفسه، ص243.
- 61- نفسه، ص251.
- 62- يعيد الباحث المصري في شؤون الحركات الإسلامية حسام تمام (1972-2011) التاريخ الذي ظهر فيه الحجاب بصورته المتداولة بين الإسلاميين، إلى منتصف السبعينيات حيث بدأ بجامعة الإسكندرية التي كانت السلفية هي المهيمنة على الجماعة الإسلامية فيها. وربما كان هذا سبب شيوع صفة الحجاب «الإسكندراني» على هذا النوع من الحجاب الذي جرى تعميمه في ما بعد، عبر الجماعة الإسلامية، على بقية الجامعات المصرية، ومنها خرج إلى المجتمع المصري. انظر: تمام، حسام، «الإسلاميون ولباس المرأة: من الحشمة إلى الحجاب ثم النقاب»، جريدة الأخبار اللبنانية، 2 أكتوبر (تشرين الأول) 2009، على الرابط التالي:  
[https://al-akhbar.com/Archive\\_Articles/122638](https://al-akhbar.com/Archive_Articles/122638)  
63 Ahmed, Leila, A Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America, ibid, p 83-116-157.
- 64- أحمد، ليلى، «حقوق المرأة في الإسلام بعيون الغرب... إمبريالية مقنعة وصور نمطية»، ترجمة: عماد غانم، موقع قنطرة، 18 أغسطس (آب) 2011، على الرابط التالي:  
<https://ar.qantara.de/node/11910>

علاء اللامي

# نقد الجغرافيا التوراتية خارج فلسطين

ودراسات أخرى



الانتشار العربي



## مقولات في العنف

عفيف عثمان

أكاديمي وباحث

حين أراد المخرج الإيطالي الراحل بيار باولو بازوليني أن يكتب سيرة حياته، لخصها في عنوان بعبارتين "حياة عنيفة" 1، ويمكن لأي شخص أن يتماهى معه ويدعيه لنفسه، فهل تخلو حياة من عنف، متعدد الوجوه والمظاهر، يرافق مناحي العيش (حتى نهاية القرن العشرين المنصرم عانت البشرية من حروب تقليدية وحروب أهلية: 43 أهلية من أصل 103 حسب أطلس الحرب)، ونحن العرب متهمون بأن العنف عندنا «سيد الأحكام» 2. وقد كرس له الباحثون والمفكرون حيزاً من أعمالهم لإستكناهاه وسبر غوره العميق، والكل مجمع على غموضه وعلى تعدد بواعثه وحالات ظهوره. والحال، كيف البقاء في عالم مسكون بالعنف؟ حاولت الكلمة أن تهديء من روع الإنسان من خلال هتك ستر العنف. وأقرب المحاولات قاموس خاص يتابع جذوره التاريخية ومظاهره المعاصرة ودلالاته الكثيرة، يحاول أن يجيب بلسان عشرات المبدعين من كافة الاختصاصات عن جملة من الأسئلة التي يمكن ايجازها في : هل العنف خصوصية بشرية؟ وهل يقتضي الحديث عن العنف حصر الإنسان في طبيعة محددة؟ وهل يمكن استئصال العنف يوماً، كما أمل في ذلك فلاسفة الأنوار، أم يجب القبول بثنائية جوهرية عند الكائنات البشرية تجعلهم خاضعين لدوافع متناقضة، خيرة وشريرة في آن؟ والكلام عن العنف يعني أيضاً التساؤل حول الحدود القائمة بين الذات والآخرين وحول غموض مسألة الوجود، وحول ممارسات تمتد من التمييز العنصري الى التعذيب مروراً بالإغتصاب والإرهاب والحروب بأنواعها 3 .



والعنف ليس وقفاً على مجتمع دون آخر، وقد تناوله الفيلسوف السلوفيني سلافوي شيشك (تولد في مدينة ليوبليانا العام 1949) في المجتمعات الليبرالية، حيث هيمنة الرأسمالية وما بعد الحداثة، ويبدو أن أفضل الوسائل لكبحه تكمن في تأمله والتفكير في شأنه. وهو يتحدث عن العنف «النسقي» (systemique) المرتبط بدوران تروس الأنظمة السياسية الإقتصادية الغربية الحديثة ذات الآثار المدمرة، ويحلل مفارقات العقل الغربي المتسامح وعنفه اللغوي ازاء الآخر، ويبين حدوده التي يقف عندها 4 . والعنف ككل ظاهرة قابل للتحول، والتغيرات الحادثة في العالم المعاصر مذهلة، فهناك الوسائل التقنية الفائقة لممارسة العنف وللتصدي له أيضاً. وثمة البعد الإتصالي الذي ينشده العنف وعولمته الإعلامية المباشرة، وتُمثل حوادث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001 في هذا السياق عملاً إعلامياً إرهابياً، إذ استهدف برجين تجاريين يرمزان الى القوة الأميركية، وحظي التفجير بتغطية واسعة، كما يقول الفرنسي، إيف ميشو. ويستعين كاتب «العنف والسياسة» بالرؤية الإنسانية التي تعتبر إن الإنسان ليس حيواناً أليفاً. فقد عملت التنشئة الحضارية على التخفيف من عنفه (من خلال التهذيب أو استعمال المهدئات)، أو إعادة توجيهه ( بالرياضات المختلفة والألعاب)، أو قمعه (مثل وضع المجرمين في السجون)، أو استخدامه (في الحروب)، وكان على الضبط الإجتماعي أن يفرض نفسه على العنف. هذا، ولم تتغير حقيقة هذا الأخير فحسب، بل أيضاً طريقة إدراكه: فالنظرية السياسية التقليدية ركزت الى صورة الإنسان الطيب، العقلاني، ذو الإرادة الخيرة، وقام العقد الإجتماعي على استبعاد العنف المأخوذ على أنه شيء مُخرب ومُدمر ومُنحرف يجب مُعاملته بالقمع. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر جرت إعادة تقويم للعنف من خلال الظواهر الثورية، ومن ثم التشديد على «الحق في الثورة». واليوم يُدرك العنف بطريقة «نسقية»، كما يقول ميشو، أي نراه بوصفه جزءاً من النظام، من دواخله، لكن يجري التعامل معه كما التعامل مع الجانحي. فالعنف منتشر ومقبول، يُدرك على نحو إقتصادي، من خلال الحديث عن نسبية درجات خطورته. حيث يتم التسامح مع بعض المسائل ذات الكلفة الإجتماعية الخفيفة 5 .

وقد عرّف لالاند في قاموسه الشهير العنف على أنه الإستعمال غير المشروع أو على الأقل غير القانوني للقوة، وفي الكلام على الظواهر «ما يفرض نفسه على كائن خلافاً لطبيعته». ويعتبر إن الكلمة أخذت معنى أكثر تحديداً منذ فريدريك نيتشه وجورج سوريل والنقابية الثورية، الذين أدخلوا نظرات منهجية مضادة للإلتجاهات أو الكوابح العقلية. فسوريل في مؤلفه «تفكرات حول العنف» (1906 عام كتابته) 6 ، وضع القوة في مواجهة

العنف: فالقوة البورجوازية، تنزع الى السلطة، وتسعى الى فرض طاعة آلية، والعنف البروليتاري، يريد الغاء الدولة. ويشرح لالاند أن ما يكون عنيفاً بالمعنى الحديث ”إنما يحدث بقوة، يطيح بالعوائق، يحارب المقاومات أو يحطمها. ولكن، يمكن في بعض الأحوال أن تكون الإرادة أساسه، وأن تكون المقاومة في الغرائز“ 7.

#### 1- نظريات مُفسرة للعنف

والحال، كيف يمكن تفسير ظاهرة العنف البشري؟ ثمة نظريات كثيرة، وفي مقدمها: نظرية كونراد لورنز (1966) (LORENZ)، وهي نظرية تعتمد بصورة خاصة على سلوك الحيوان وسلوك الإنسان في آن واحد . فالإنسان رغم تطوره لا يزال مسيراً بغرائزه فالسلوك العدواني، كما يتجلى في الحرب والجريمة والمشاجرات الشخصية، وكل أنواع السلوك السادي والتدميري ناجم عن غريزة فطرية مبرمجة حسب تتابع النشوء وتسعى للإنطلاق وتنتظر الفرصة المناسبة لتعبر عن نفسها. فإذا سيطر عليها ، يبقى العنف محصوراً ، ولكن إذا ما حصل كبت لها تتحول وتتخذ شكلاً سماه NEO INSTINCT أي الغرائز الجديدة، وترجم فعلاً حسب برنامج يرتبط بتطور الجنس البشري . فمثلاً تؤدي كثافة السكان في أماكن عدة، إذا ما نفذت مواردها الحياتية إلى مشاكل و تكوين جيوش تجتاح بلدان أخرى آمنة ، كما حصل في إجتياحات التتر والمغول 8. ويعتقد لورنز إن الإنسان المتمدن الحالي يشكو من عدم التفريغ الكافي للدافع العدواني“فالعدوان والطاقة التدميرية ينتجها الإنسان باستمرار ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل التحكم فيها على المدى الطويل“ 9 .

النظرية السلوكية الجديدة، وأبرز ممثليها عالم النفس الأمريكي سكينر SKINER، تعتمد في تفسير العنف على الظواهر الاجتماعية وكيفية تعامل الإنسان معها . فإذا زادت الكثافة السكانية في المدن يؤدي ذلك إلى التوتر وإلى العنف ، لأن كل إنسان في حاجة إلى مساحة حيوية. فكلما ضاقت هذه المساحة ، كلما زاد الحصر عنده ، وأدى ذلك إلى العنف . لكن حب الله لا يوافق تماماً على هذه الفرضية، إذ رغم صحتها على صعيد الحيوان في المختبرات ، إلا أنها لا تقدم تبريراً منطقياً لسلوك الإنسان ، لان صغر هذه المساحة الحيوية ، لا يقود إلى العنف بالضرورة ، إذا ما تمكن الإنسان من ترميز وجوده فيها 10.

نظرية إريك فروم Erick Fromm المحلل النفسي الشهير، وكان قد نشر كتاباً بعنوان ”الولع في التدمير“ ( النزعة التدميرية، بحسب إحدى الترجمات العربية) وهي ميزة إنسانية نمت عبر التطور البيولوجي والتاريخي، تشير إلى ميل الإنسان لتدمير

ما بناه. وهي غريزة تتمثل في نزعة الموت التي تهدف إلى تفكيك كل ما هو مركب وإعادته إلى الأصل المبسط ، وهي مستوحاة من نظرية فرويد حول نزعة الموت، أي الميل إلى الفناء<sup>11</sup>. ويتحدث فروم عن نوعين من الدوافع: الدوافع العضوية، مثل الغذاء وحفظ الذات والخوف، وهذه خاصة بالجانب البيولوجي للإنسان، والدوافع اللاعضوية، مثل المحبة والسعي للحرية والنجسية والعدوان والسادية والمازوخية وحب السيطرة والبحث عن المكانة الاجتماعية والإيثار. وهذه لا تظهر عند كل الناس بل عند البعض وفقاً للظروف. وينسب فروم السلوك التدميري وأعمال العنف والحروب الى الدوافع اللاعضوية، الأمر الذي يفيد أن العنف والظاهرة التدميرية هي ظاهرة نفسية رغم دخول عوامل إجتماعية وتربوية. ويميز صاحب "فن الإصغاء" بين طبعين موجودين لدى البشر: الأول، الطبع النكروفيلي: وهو حب اللجوء الى العنف والقسوة بمعنى "الإنجذاب العاطفي الى كل ما هو ميت ومتفسخ ومتعفن وسقيّم، والشغف بتحويل ما هو حيّ الى شيء غير حيّ، وبالتدمير من أجل التدمير"<sup>12</sup>. الثاني، الطبع البيوفيلي، وهو الحب العاطفي للحياة وكل ما هو حيّ، اذ تعني البيوفيليا (Biophilia) الرغبة في النمو وحب البناء، والشخص البيوفيلي يميل الى التأثير في الآخرين من طريق الحب والعقل وليس من طريق القوة. والإنسان "موهوب بيولوجياً بالقدرة على البيوفيليا، ولكنه من الوجهة السيكلولوجية لديه الإستعداد للنكروفيليا بوصفها حلاً بديلاً"<sup>13</sup>.

نظرية سيغموند فرويد S. Freud. الذي اكتشف أنه إلى جانب دافع الحياة هناك دافع إلى الموت "نزعة الموت". وأن الصراع بين هاتين القوتين يستمر طيلة الحياة وينتهي بنصرة الموت. فهي نزعة تعمل في الخفاء، مدمرة ، هدفها العودة بالمركب إلى المبسط أي للحالة حيث كان السكون سائداً . ونزعة الموت تكمن وراء العنف الغير مبرر وتتحكم بالأفعال المدمرة. يعتبر فرويد انه " في كل متعضّ، الليبيدو هو في صراع مفتوح مع غريزة الموت (...) ويعود الى الليبيدو وجوب جعل غريزة التدمير غير هجومية. لقد نجح الليبيدو في توجيه هذه الغريزة، في قسمها الأكبر - ومنذ الطفولة - الى موضوعات العالم الخارجي. وهكذا ينشأ ما نسميه غريزة التدمير، والحاجة للسيطرة والجبروت. وقسط كبير من هذه الغريزة يوضع مباشرة في خدمة الوظيفة الجنسية، حيث لهذه الغريزة دور مهم تلعبه"<sup>14</sup>. والإنسان بنظر فرويد ليس إلا حيواناً يتحدر من سلالة أجداد ، دمويين وقتلة، حيث أن التاريخ يشهد على جرائمهم. هذه النظرية لقيت معارضة قوية من قبل بعض المحللين، واعتبروها نظرة تشاؤمية جزئية، لا تعبر عن الإنسان ككل. فالإنسان حسب ما يقول ايتيان باليبار: كناية عن مزيج من المثالية والقساوة

والبربرية والعنف 15. هذا، وتؤيد البحوث البيولوجية الحديثة القائلة بـ "التدمير في خدمة الحياة"، نظرية فرويد في "دافع الموت" (التاناتوس)، إذ تؤكد أن خلايانا تمتلك في كل لحظة إمكان مباشرة تدميرها الذاتي، أي موتها المبكر، قبل أن يأتي شيء من الخارج ويدمرها. فانطلاقاً من جيناتها تنتج الخلايا الجزيئات "المنفذة" القادرة على تسريع نهايتها، والجزيئات "الحامية" القادرة أن تعطل لوقت هؤلاء المُنفذين 16 .

نظرية ولهم رايش Wilhelm Reich، لقد ميّز هذا الأخير بين العدوانية الطبيعية - التلقائية التي تخدم الحياة والضرورية للحفاظ على الفرد والنوع والدفاع عن المجموعة وعن الأفراد، والضرورية أيضاً للحصول على القوت وللتزاوج، والعدوانية الناتجة عن الصد، ولا سيّما الصد الجنسي. وأنكر وجود غريزة هدامة أولية، ورد غريزة الموت "التاناتوس" Thanatos الى العدوانية الناجمة عن الصد، وهو ما يخضع له الطفل في المجتمعات المتحضرة باستمرار وانتظام منذ سنّي حياته الأولى 17 .

نظريات علماء الاجتماع وعلى رأسهم Bourguignon وهؤلاء يرفضون النظريات القائمة على الغريزة. إذ الإنسان في نظرهم اجتماعي ومسالم بالفطرة، وهو ان شذ عن هذه القاعدة ومال نحو العنف، فالخلل يكمن في التربية التي تلقاها والتي لم تعلمه حدوده واحترام الآخر 18.

2- **علاقة العنف مع السلطة:** التنازع على السلطة يؤدي إلى عنف أهلي، وهذا ما لا تفسره لا نظرية الغريزة ولا النظرية السلوكية أو التربية الحضارية، فمفهوم السلطة يعود إلى شرعية تتحدر من سلطة الأب البدائي واعتماد القضيب كمحور أساسي. فاللغة الألمانية تجمع في كلمة واحدة GEWALT العنف والسلطة، ولا يمكن تصور واحدة من دون الأخرى. ولكن السلطة لا يمكن أن تتأسس وتثبت شرعيتها إلا بوساطة القانون الذي، كما يقول سفلوسكي SAFLOSKEY، منظم ومنسق العنف الشرعي، أي "أن العنف يخلق الفوضى والنظام يخلق العنف"، والفرق بين الإثنين: أن العنف بإسم المتعة يؤدي إلى الفوضى، والعنف بإسم القانون يؤدي إلى تأسيس النظام، ولكن يبقى أن الصراع في الحروب الأهلية يرتبط بشرعية العنف 19.

و انتج الصراع على السلطة ما يُطلق عليه "العنف السياسي"، ويشير في أوسع معانيه، كما يقول الباحث المصري، حسنين توفيق ابراهيم، "الى مختلف السلوكيات التي تتضمن استخداماً فعلياً للقوة أو تهديداً باستخدامها من أجل تحقيق أهداف سياسية مباشرة أو أهداف إقتصادية أو إجتماعية أو ثقافية ذات دلالات وأبعاد سياسية". وبالتالي، فالعنف قد يكون ممارساً من النظام ويأخذ مسمى "عنف رسمي" ومن المعارضين عليه ويسمى

”عنف شعبي“، وأيضاً قد يقع بين بعض الفئات المتناحرة لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية أو طائفية<sup>20</sup>.

اعتبرت النظرية الماركسية إن ظاهرة العنف السياسي والإجتماعي متغيرة، في تطور مستمر مع تطور الحياة الإجتماعية نفسها، و ككل الحالات الإجتماعية هي ”إنعكاس شكل معين للعلاقات الإجتماعية، شكل إجتماعي من حركة المادة. وبنفس الوقت للعنف طابعه المتميز للتعبير عن هذه العلاقات والتأثير فيها، ودوره وهدفه الخاص في الممارسة التاريخية الإجتماعية للبشرية“<sup>21</sup>.

ومن المفكرين البارزين الذين تأملوا العنف، والتر بنيامين، ففي مقالة له أسماها ”نقد العنف“ (1921) قاربه من ضمن العلاقة التي ينسجها مع العمل السياسي، ومن الكلمات الأولى للنص نقع على ما يطرحه على نفسه ”يمكن تعريف مُهمة نقد العنف بالقول إنها توجب وصف علاقة العنف بالقانون (الحق) وبالعادلة“<sup>22</sup>. لكن يجب الأخذ في الحسبان السيّاق التاريخي والفلسفي الذي كتبت فيه المقالة، وهي تدين في مرجعيتها الى الأزمة البرلمانية العميقة التي هزت ألمانيا ما بين الحربين، والحملة الكبيرة التي وضعت القانون الوضعي والنظام القضائي موضع الشك. ويفترض قراءة جهود بنيامين الفكرية وكأنها ضامن أخلاقي ونظري موجه للمنظمات العمالية المنخرطة في العمل السياسي الثوري. والوسائل العنفيه التي استخدمتها الدولة الألمانية لقمع الإنتفاضة الثورة في العام 1920 ليست بعيدة من مشروع ”نقد العنف“. أما السيّاق الفلسفي فيأتي من ضمن الإطار الفكري الذي يعمل عليه بنيامين، وعلى هذا النحو، فإن استخدام لفظ ”نقد“ في عنوان المقالة لا يتضمن إدانة للعنف ولا رفضاً لمظاهره التاريخية، فهو يشير الى المنهج فحسب. وهكذا يُسجّل بنيامين إنتمائه الى التراث الكانطي، فعلى غرار الفيلسوف كانط في ”نقد العقل المحض“ رغب بنيامين في الفحص النقدي لأشكال العنف المختلفة، بحيث يمكن إستخلاص عنف ”محض“ (خالص)، ومشروعه مزدوج، أولاً، إخضاع الصلات التي يُقيمها القانون الوضعي مع عنف الدولة للفحص النقدي، في سبيل التوصل الى إمكان وجود عنف ”محض“، بمعنى عنف يُمكن أن يُمارس من خارج وبما هو أبعد من القانون الوضعي. ثانياً، تحديد دور هذا العنف ”المحض“: تدمير القانون الوضعي الذي يعوّق إقامة عدالة إجتماعية حقيقية. ويُبقي بنيامين السؤال مفتوحاً لمعرفة ”إذا ما كان العنف أخلاقياً، في شكل عام، بوصفه، مبدئاً، حتى ولو كان وسيلة لغايات محقة“<sup>23</sup>. يُحاول بنيامين أن يفهم الدوافع الكامنة خلف التمييز بين العنف الشرعي والعنف غير الشرعي التي يقدمها القانون الوضعي<sup>24</sup>، ومن المهم بالنسبة له،

تقدير العنف الفردي الذي يُهدد النظام الشرعي للدولة. ومن هذه الزاوية، يُمثل القانون الوضعي أداة تُحركها الدولة كي تحرم الأفراد والجماعات من "العنف الكامن" الذي يحملونه، والقانون، كما يقول بنيامين، لا دور له إلا حصر العنف في الدولة. يأخذ **عنف الدولة**، في نظره، شكلين مُتميّزين: الأول، يقوم على تأسيس الحقوق، أي العمل بحسب النظام القضائي للحصول على إقرار شرعي بإزاء إمكانية الفعل. ويحمل العنف الذي تستخدمه الدولة لتأسيس "الحق" إسم "العنف المؤسس للحق"<sup>25</sup>، والشكل الثاني من العنف يتعلق بحفظ الحق (القانون)، وهذا يُتيح للدولة قمع العنف الشعبي المضاد الذي يُهدد النظام القضائي القائم، ويُطلق عليه بنيامين "العنف الحافظ للحق"<sup>26</sup>. وهما يُتّمان بعضهما بعضاً، ولا يمكن ممارسة واحدهما من دون سند من الآخر، ويُلاحظ بنيامين وجود حركة دائرية بين القانون الوضعي وعنف الدولة. ولأن القانون الوضعي مُشبع بالعنف فإنه يضع الحاجة الى العدالة في مأزق، ويتساءل بنيامين عن إمكان وجود عدالة فعلية، ويشير الى أن بلوغها مرتبط باستخدام وسائل عمل "محضة" (خالصة) كي تحل النزاعات بين الأفراد، وهو يوجه نظره الى الصلات القائمة بين الأشخاص مثل التعاطف والمجاملة والحوار، والوسائل "المحض" هذه لا تصدر عن حلول مباشرة، ولكن من خلال وسيط، فهي إذاً "حلول وسيطة"<sup>27</sup>. ويعتبر بنيامين الإضراب العام الذي نادى به جورج سوريل في "تأملات حول العنف"، مثابة وسيلة عنف "محض"، لأنه لا يضع لنفسه هدف إصلاح الدولة، ولكن كف عنف الدولة، فوقف العمل يُعادل وسيلة فعل سياسية خالصة وغير عنيفة. إنه إجراء ضد العنف فاعل وقابل لإنهاء عنف الدولة المحتضن من القانون الوضعي. وفي مواجهة هذا الأخير، يُطلق بنيامين تعبير "العنف الإلهي" على القوة غير العنيفة التي تتجلى في الوسائل الخالصة مثل الإضراب العام، وهو يتكلم بلهجة حاسمة: "إذا كان عنف الدولة مؤسساً للقانون (الحق) فإن العنف الإلهي مُدمر له، وإذا ما وضع الأول الحدود، فإن الآخر يُدمرها من دون حدود"<sup>28</sup>. ويرى البعض إن العنف الإلهي الذي يتوخاه بنيامين يتقاطع مع العنف ذو الطبيعة الثورية، وهو بالتالي الشكل الوحيد المتوخى ممارسته من العنف. واستعاد طروحات بنيامين عدد من المفكرين والفلاسفة، أبرزهم جاك دريدا في محاضرة حملت عنوان "قوة القانون: الأساس الأسطوري للسلطة"<sup>29</sup>، وجيورجيو أغامبن G.Agamben من ضمن ثلاثيته (Homo Sacer (2003).

على خلاف بنيامين المتحمس للعمل الثوري، وقفت حنة أرندت (1907 – 1975) موقفاً متحفظاً، وقد كتبت مؤلفها "في العنف" (1970) 30 في سياق مختلف هو حركات

الطلاب وتمردهم في أوروبا ( 1968 ) وأميركا ولجوء السلطات الجامعية الى العنف. وعلى هذا النحو، تتوجب قراءة نصها كرد فعل على هذا الوضع، ومثابة رد مفهومي موجه الى منظريّ العنف : جان بول سارتر وفرانز فانون وجورج سوريل و الفريد باريتو. والنقد الأوليّ الموجه باتجاه الإستخدام المعمم لوسائل العنف في إطار العمل السياسي الثوري، اعيد توجيهه نحو العلم السياسي وعجزه عن التمييز في المقولات التي تتيح لنا التفكير في الموضوع السياسي. وفي شكل محدد تقوم أرندت بفحص التراكب بين مفاهيم السلطة والعنف، رغبة في إزالة اللبس الخاص بإدراك العنف كمشروع مُعمم خاص بالسلطة<sup>31</sup>. تفحص أرندت مقولة السلطة وتعريفها العام بعبارات الهيمنة واستتباع إرادة لإرادة أخرى، وبالتالي عملية فهمها إنطلاقاً من أعمال الأمر والطاعة فحسب، اذ يقول برتران دو جوفينيل في كتابه ” عن السلطة“ إن الأمر والطاعة يمثلان ” الشرط الأساسي لوجود السلطة، الشرط الكافي الذي من دونه لا تقوم للسلطة قائمة: هذا الجوهر إنما هو القيادة“<sup>32</sup>. أما بالنسبة لأرندت، فلا تنحصر السلطة في الصلة بين الحاكم والمحكوم: تبرز السلطة بين البشر حين يعملون معاً<sup>33</sup>، وتنحل حين يتفرقون، ولا تماهي، بالتالي، بين السلطة وسيادة القانون والأمر. ولا تقوم السلطة، من زاوية الفكر الإغريقي القديم ، على الجزاء ولا على القمع، ولكن على التعاضد بين البشر حين يعملون ويتكلمون معاً. ولا تكافئ السلطة قوة نخضع لها، لكن قوة تُمارس جمعياً، ولا يمكن تصور أي عمل سياسي من دون سلطة.

والحال، لقد ماهى معظم المفكرين والقادة السياسيين بين السلطة والعنف، من ماكس فيبر الى ليون تروتسكي مروراً بماوتسي تونغ. ومن وجهة نظر الفلسفة السياسية الحديثة إندرج العنف في سياق السلطة، وعد إحدى وسائلها. في حين تضع أرندت واستناداً الى المفاهيم اليونانية - الرومانية للسلطة السياسية، هذه الأخيرة في مواجهة العنف، فالك في مقابل الواحد يُعادل الشكل المتطرف من السلطة، في حين أن الواحد ضد الكل يُمثل العنف<sup>34</sup>. وفي رأيها، لا يدخل العنف الى المشهد إلا في اللحظة التي تجد السلطة فيها نفسها مُهددة، وهذا لا يكون تعبيراً جلياً عن السلطة، بل يعلن إخفاقها وينبئ باختفائها. لم تُعرف صاحبة ”شرط الإنسان الحديث“ العنف، ولكنها ميزت فيه سمته الأداتية<sup>35</sup> وحاجته الملحة الى تبرير نفسه بالغايات التي يدعي إنجازها، تقول أرندت: ”أن السلطة تكمن حقاً، في جوهر كل حكومة، لكن العنف لا يكمن في هذا الجوهر. العنف بطبيعته، أدواتي، وهو ككل وسيلة، يظل على الدوام بحاجة الى توجيه وتبرير في طريقه الى الهدف الذي يتبعه“<sup>36</sup> ، وهو يمتلك جانباً لا يمكن توقعه، اذ يتخطى التوقعات العقلانية،



الى كونه مدمراً في الأساس، ولا يمكنه بأي حال توليد السلطة، كما "أن العنف لا يمكنه أن يتحدر عن نقيضه، الذي هو السلطة" 37. وأحياناً يكون الوسيلة الوحيدة لتعديل كفة ميزان العدالة 38، وعندها يمكن العنف مثل أي فعل "تغيير العالم"، لكن ثمة احتمال كبير أن يقودنا هذا التغيير "نحو عالم أكثر عنفاً" 39 .

### العنف الأهلي

والحال، سنتوقف عند مسألة العنف الأهلي، وتفسيره من منظور المحلل النفسي الراحل الدكتور عدنان حب الله (1937 – 2009) 40.

يُقدر البروفسور عدنان حب الله أن الكل في الحرب خاسرون، وهي تترك بصماتها المنظورة في الدمار والخراب وغير المنظورة، في الأعراض النفسية التي هي كناية عن شعور بالألم والمرارة والإحباط الشديد 41. وفي جردة لبصمات الحرب على المجتمع، يقول «إن المجتمع اللبناني برمته قد أصيب بعصاب الصدمة... والعداء المستشري الذي كان يغذي الأحقاد ونوازع العنف تحول إلى توتر نفسي وحذر من الآخر، إن لم يكن ريبة وسوء نية» 42.

خلق عُصاب الحرب «صدمة نفسية، جعلت كل مواطن يرى في الآخر عدواً محتملاً، ونصبت جداراً نفسياً بين الناس قائماً على الذكريات التي خلفتها هذه الحرب، وفي هذا السياق، بدت الساحة الاجتماعية والعلائقية، المكان الذي تترجم فيه الآثار النفسية نفسها وأبرزها انعدام الثقة بين الأفراد، و«مجتمع من دون ثقة ومن دون حالة حقوقية، يُصبح بطبيعة الحال مجتمعاً مريضاً، عرضة لشتى أنواع الاحتمالات والمخاوف الوهمية» وفي مقدمها خرق القانون والتصرف كما فوضى الحرب الأهلية من دون وازع بعد «مقتل الأب الرمزي» والتكرار للقانون «الممثل الشرعي لهذا الأب» 43 .

لذا، يرى حب الله ضرورة سلطة الأب وتالياً سلطة القانون. وهو يأخذ على اللبنانيين تساهلهم في قضية «الخصاء اللغوي» حيث يستخدم الأطفال الكلمات البذيئة بتشجيع من الأهل. ويعتبر إن عملية التعامل مع القانون تبدأ من الخضاء اللغوي إذ «الزمن لغوي قبل أن يصبح فعلياً، والتحاييل على القانون أشبه على الصعيد النفسي، بالإحتيال والمكر بالأب، والاستمتاع المأثم بالأم. لأن الوطن، في نهاية الحلقة الرمزية، أشبه ما يكون بالأم» 44. وعنده أن الشرخ الكبير الذي تركته الحرب في البنية الاجتماعية هو «استباحة القانون وشرعنة القتل».

وقد ناب «الأنا الأعلى» كسلطة نفسية من دون علم صاحبه، عن القانون في المحاسبة،

وتبدت آثار ذلك في كثرة الأمراض مثل السرطان وأمراض الضغط والقلب والسكري وغيرها. ويبدو أن نوازع العنف المضبوطة في زمن ما بعد الحرب أخذت أشكالاً أخرى في البيئة الاجتماعية تمثلت في القتل والفساد. وبعبارة حب الله «هناك عنف الحرب المباشر، وهناك عنف السلم الذي يتوسل الذكاء نفسه، لكي يبرر أهدافه ويتجنب رقابة السلطة والقانون»<sup>45</sup>.

وأهم ضحايا النزاع الأهلي هي صورة «الأب» عند جيل الحرب، حيث ظهر على أنه «قاتل، متوحش، مخرب، عدو للحضارة والإنسانية»، ما يسبب صدمات نفسية كثيرة تنعكس في سلوك الأبناء العنيف وفي البحث عن بديل للأب قد يجده في «قدوة معينة أو رحمة الـهية»<sup>46</sup>. ويفسر حب الله حوادث السير المميتة في كونها «امتداداً لعنف الحرب، بدأها الآباء وترجمها الأبناء في نفوسهم، وهي أشبه بحالات انتحار لا شعورية». لقد صنعت الحرب في نظر حب الله صدعاً أو كسراً في سياق التاريخ انعكس في مجمل الحياة الاجتماعية<sup>47</sup>.

وما يحير حب الله، أن هذا اللبناني، وريث حضارات عدة ومنها الحضارة الفينيقية التي لم تبني يوماً امبراطورية عسكرية، مشهور عنه وداعته ومسالمة وحبه للتجارة، فكيف تأتي له أن يُخرج هذا القدر الهائل من العنف المدمر وعلى مدى سنوات. والجواب هو «بذور العنف» أو «جرثومة العنف، تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل دون أن تعرف سبباً لها، أو إنها كامنة في نفس كل منا، لأن تربت ها ومرتعها نفسيات بشرية تتناهبها وتتجاذبها المصالح الآنية والذاتية، كونها تؤثر المال على العلم، والعبودية المختارة على الحرية، والإرتهان على الديموقراطية»<sup>48</sup>.

يأخذ حب الله على المجتمع العربي قلة اهتمامه بالمسائل والشؤون النفسية، وهذه إلى الصراعات الاجتماعية، إذا لم تعالج ويُفصح عنها بالتعبير اللغوية، لا بد من أن تترجم بأعمال عنف تظهر عند الأطفال وعند الشباب المراهقين في شكل يفاجئ الراشدين<sup>49</sup>. ويلاحظ إن انكسار «الأنا الأعلى» ولد تقارباً بين الهوية والتماهي، وهذه لم تحصل فجأة بل من خلال دورة عنف طويلة يقسمها إلى مراحل أربع: الأولى، الانقسام حول الهوية والانتماء واضفاء الطابع الأيديولوجي عليهما<sup>50</sup>. وانعكس خلاف النخب هذا عنفاً عند الجماهير، التي وفي غياب القيادة الحكيمة تتجر إلى العنف والشعارات الطنانية المتطرفة كما يقول غوستاف لوبون في كتابه «سيكولوجية الجماهير». وهكذا، دخل «العنف من باب الشعارات المتطرفة»<sup>51</sup>. الثانية، مرحلة الإقتال الطائفي وتوقع

المناطق حول ذاتها، ما أدى إلى «تباين وانفصال، بل صراع في بعض الأحيان بين الهوية الطائفية والهوية الوطنية»<sup>52</sup>. وبالتالي، سيطرة الشك والريبة في التعامل مع «الأخر» المقصي من الوجود.

المرحلة الثالثة، هي انتقال العنف إلى كل المناطق على شكل «صراع مذهبي» وقتل لبعض الزعماء الذين جرى التماهي معهم واستمروا حاضرين في النفوس نتيجة «الشعور بالذنب»<sup>53</sup>.

أما الرابعة، فهي «المرحلة العائلية»، حيث طاول العنف صرح العائلة، فامتثل الأبناء وأبناء العم والخوالة. وفي ظل المتقاتلين أن الحرب وصلت إلى نهايتها لأنها حققت إغتيال الأب الرمزي، وهذا حد لا يوجد بعده إلا «العدم أو الذهان»<sup>54</sup>.

يرى حب الله إن الأبناء يعانون رضات نفسية بسبب الآباء، صانعو الحرب. وحيث يظهر التباين بين هوية الفرد المتشكلة منذ الصغر وتماهي الذات اللاحق مع الأب، إذ يقتبس منه بعض الصفات ويدمجها في نفسه. وهو ينصح و يدعو إلى «احياء الأب الرؤف العطوف في مفهوم وطني بعدما شوهدت صورته الحرب الأهلية»<sup>55</sup>. ولذلك يتوق الناس دوماً إلى «منقذ» يصفون عليه صفات كثيرة تجعل منه رجلاً مثالياً<sup>56</sup>، وحالة الشعب اللبناني الذي يغالي في ما يطلبه من الرئيس «المخلص» «تتم عن عجز واستقالة من المسؤولية الوطنية في أن واحد. هي نسيج خيالي واعد أكثر مما هو صادق، ناجم عن مأساة هذا الشعب وآلامه التي عرفها خلال الحرب ولا يزال»<sup>57</sup>. ويصف المحلل النفسي اللبناني «الجدار الطائفي» القائم بين أبناء بلده بأنه جدار خوف «إرتسم بعد الحرب في مخيلة اللاوعي الجماعي، وأصبح يتحكم بتصرفات الناس يصنفهم طوائف ومذاهب»<sup>58</sup>. وهو يحاول تفسير الحال الطائفية بالعودة إلى التاريخ وعلاقة الجماعات اللبنانية بالسلطة التي كرسّت ولأء محصوراً بـ «الإنتماء الطائفي»، الأمر الذي غيَّب «فكرة الوطن الواحد»<sup>59</sup>، وهذا يشبه «المكبوت» الذي يعود في غفلة من الوعي. ويقول حب الله من تجربة التحليل النفسي «إن ما يكون سبباً في عذاب المريض وآلامه النفسية، هو حقيقة مكبوتة داخل نفسه، أي إنه يحمل معرفة يجهلها، يحاول ردعها وقمعها كلما اقتربت من وعيه، لأنها إذا أصبحت بحكم الوعي، قد تغير نظرتة إلى نفسه وتبدد المكاسب الجانبية والنرجسية الناجمة عن كبته»<sup>60</sup>.

ويعتبر حب الله حالات العنف الكثيرة التي استشرت بعد انتهاء الحرب نتيجة «مأزق فكري» سببه الإحباط والشعور بالذنب الذي يؤدي إلى ارتكاب مزيد من الجرائم، ويؤكد الحاجة إلى القانون، مثابة «طرف ثالث» بين القاتل والضحية، وحده يؤمن العودة إلى الحقل الإنساني<sup>61</sup>.

## دولة القانون والمحرم النفسي

يُراهن حب الله على القانون لانه «كناية عن عقد رمزي، يرتبط عبره الفرد بالجماعة، والجماعة بالفرد، لاحترام الآخر والتساوي معه في الحقوق والواجبات»<sup>62</sup>. وتكوين الذات نفسه يبدأ من لحظة بناء المحرم أو قانون التحريم الذاتي «الذي يقبع في النفوس في صورة الأنا الأعلى، أو الضمير الحي»<sup>63</sup>، وبالتالي، ثمة إرتباط بين القانون ومثال الأنا أو المثل العليا الخاصة بكل مجتمع. ويرى علاقة اللبنانيين بالقانون علاقة مرضية: «علاقة إنحرافية، ملتوية، متخفية، مناورة، همها الوحيد طريقة الإفلات من القانون وموجباته»<sup>64</sup>. فهو تهديد عند البعض «يطاول البنية النفسية، ويُصبح أشبه بالتهديد بالخصاء»، يمس كل ما هو موضوع للرغبة. ويقف القانون كحد فاصل في موضوع الرغبة «كونه يفصل هذا الموضوع على قياس وجود الشخص. فالعيش من دون قانون يولد قلقاً لا يُحتمل، لأنه يُلغي تحديد الوجود». ويحتاج إليه حتى من يريد أن يتحرر منه «كي يبني رغبته على أساس نفيه»<sup>65</sup>.

يقول فرويد بأن القانون عملية نفسية بدائية أساسية في تكوين المجتمع. القانون الأولي يعود إلى العشيرة البدائية ويستخلص مكتشف قارة اللاوعي أن القانون كناية عن الأب المثالي، أي الأب الميت الطوالم<sup>66</sup>. ولا يسلم أحد من هذه العملية النفسية. وثمة عامل مشترك يوحد اللبنانيين وهو الإحباط، الذي يحول بينهم والاستمتاع بالحياة، وينسب حب الله ذلك الى «صدمة ما بعد الحرب التي تركت آثاراً اجتماعية ونفسية»، وجذر ذلك في وعي الناس انهم شاركوا بطريقة أو بأخرى في الحرب «إن لم يكن بالفعل، فبالهوام والخيال»، ومنهم من يحمل «عقدة الناجين من الموت»<sup>67</sup>. وهو يراهن على الثقافة أي على «الترميز»، عبر الكتابة والإبداع القادرين على إخراج مكنونات النفس المكلومة، وعنده إن الشعب اللبناني «شعب في حال حداد، ينشد في درجة أولى العزاء، قبل اشباع ملذاته»<sup>68</sup>.

وسؤال حب الله الرئيس: هل يخضع العنف لمنطق خاص؟ وجوابه: إن كل ما هو عنف يخرج عن حدود المنطق ولا يخضع لتبرير. إذ يخضع لنزوات غريزية حيوانية لا هدف لها سوى التدمير، وتجربة الحرب الأهلية اللبنانية تبين عبثته<sup>69</sup>. والحال، كيف يمكن تفسير ظاهرة العنف البشري؟

بعد أن يستعرض حب الله بعض النظريات المُفسرة للعنف والتي عرضنا آنفاً لقسم منها، والتي تجهد في تأويل النزعة التدميرية لدى الكائن البشري، يطرح من تجربة الحرب اللبنانية سؤالاً محايثاً وهو: لماذا تستمر الحرب بعد أن تستنفذ كل مسبباتها؟ ويجب بأن

الخصوم «يدخلون في علاقة مرآتية، حيث النقوص التصوري، يعكس لكل واحد صورته المُفككة، ونظراً لغياب الآخر، الطرف الثالث، يدخلون في صراع مميت لا نهاية له»<sup>70</sup>. ولأن الطرف الثالث، بحسب المحلل النفسي، هو الحقل الرمزي الذي يسمح بالإعتراف بكل طرف من دون الحاجة الى إبادته: «وفي كل مرة يغيب الرمزي، سواء بالكبت أم الإنكار ( للقانون ) أو بالإنعدام (لا وجود له في حقل الكلام)، يصبح العنف حراً طليقاً من دون قيود»<sup>71</sup>. والعنف، استناداً الى قراءة حب الله لفرويد، يهدف في النهاية الى «تخطي حدود الإخصاء الرمزي (أي الحد الفاصل للإستمتاع)، فيخلق اضطرابات على مستوى شبكاته اللغوية. فيعجز عندئذ الكلام عن التعبير أو عن احتواء فعل العنف، فتتكسر السلسلة الدلالية التي كانت الى الآن تضمن قوانين العلاقات الإجتماعية، وتحول دون بلوغ الإنسان أهدافه بالطرق السلمية»<sup>72</sup>. ويستطرد البروفسور إنه في غياب العملية الرمزية، يصبح العنف الوسيلة الوحيدة للفرد لتحقيق أهدافه: «وقد يأخذ العنف شكلاً ميدانياً كما شاهدنا في الحرب، وشكلاً إنحرافياً، بمعنى الشذوذ، سواء الجنسي أو طريقته في التحايل على القانون والإفلات من سلطته»<sup>73</sup>.

والحال، في المقام الأخير، يوجه الفيلسوف والتر بنيامين أنظارنا في مقالته «نقد العنف» لمهمة التصدي لمقولة «العنف» حتى ولو كان لغايات عادلة، أو مهما كانت الأسس التي ينهض عليها ويدّعي تحقيقها، أو كانت المسوغات التي تبحث له عن شرعية ما. فالفلسفة بعامة تقف ضد العنف المؤدي الى الفوضى والخراب. وكل محاولات فهمه وتتبع أصول نشوئه وارتقائه لا تقع في باب تبريره أو إيجاد أسباب مُخففة لمرتكبيه.

## (Endnotes)

1- Pasolini (1922- 1975), une vie violente, (Paris, Buchet et chastel, 1961), 10/18, n 1522.

2- أنظر، فؤاد اسحق الخوري، الذهنية العربية، العنف سيّد الأحكام، (بيروت، دار الساقى، 1993)، ص. 150. وأنظر أيضاً حول العنف اللبناني كتاب وضاح شرارة، أيام القتل العادي، من اغتيال رياض الصلح الى اغتيال رفيق الحريري، (بيروت، دار النهار للنشر، 2007)، ص. 252.

3- Dictionnaire de la violence, ( Paris, Ed. PUF, 2011), 1568 p. Dirigé par Michela Marzano.

4- Slavoy Zizek, Violence, ( Paris, Ed. Au Diable Vauvert, 2012), 320 P.

5- Yves Michaud, "l'être humain n'est pas un animal tendre", in Sciences Humaines, hors série, n 47, décembre 200.

6- Georges Sorel (1847-1922), Réflexions sur la violence, la 1 édition 1908.

وقد توالى طبعات الكتاب منذ ذلك الحين مع اضافات وتنقيحات.

7- موسوعة لالاند الفلسفية، (بيروت - باريس ، منشورات عويدات، ط 2، 2001)، ترجمة الدكتور خليل أحمد خليل، ص 1554 و 1555.

8- بروفيسور عدنان حب الله، العنف الأهلي: دراسة نفسية تحليلية، (بيروت، دار العلم، والمركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، 2003)، 155 صفحة. ص 137.

9- نقلاً عن، رشيد الحاج صالح، الإنسان في عصر ما بعد الحداثة، (الشارقة، كتاب الرافد، 2013)، 641 ص. صفحة 24.

10- العنف الأهلي، مصدر مذكور. ص 138.

11- م.ن. ص 138.

12- إريك فروم، تشریح التدمير البشرية، (دمشق، وزارة الثقافة السورية، 2006)، في جزئين، ترجمة محمود منقذ الهاشمي. ج 2، ص 96. نقلاً عن ، رشيد الحاج صالح، الإنسان في عصر ما بعد الحداثة، مرجع مذكور، ص 38.

13- فروم، تشریح ، ص 145، نقلاً عن صالح، مصدر سابق، ص 39.

14- نقلاً عن، فاوستو أنطونيني، عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية، (بيروت، معهد الإنماء العربي، 1989)، 182 ص. ترجمة نخلة فريفر. ص 76.

15- حب الله، العنف الأهلي. ص 139.

16-Denys Ribas, "pulsion de mort et destructivité", Revue Française de psychanalyse, 2009/4 vol 73. P. 987-1004. P. 9.

17- نقلاً عن، فاوستو أنطونيني، عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية، (بيروت، معهد الإنماء العربي، 1989)، 182 ص. ترجمة نخلة فريفر. ص 42 و 43.

18- حب الله، العنف الأهلي، مصدر مذكور. ص 138.

19- حب الله، العنف الأهلي، ص 140 و 141.

20- حسنين توفيق ابراهيم، العنف السياسي في الوطن العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، 32 ص. سلسلة أوراق عربية، الرقم 17. ص 8 و 9.

21- ف . دينيسوف، نظريات العنف في الصراع الأيديولوجي، (دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر، 1982)، 318 ص. ترجمة د. سحر سعيد. ص 10.

22- Walter Benyamin, "critique de la violence", in oeuvres complètes, 3 V. (Paris, Ed. Gallimard, "folio essais", 2000), R. Rochlitz (dir), 1 volume, p. 210.

وقد نشر النص مستقلاً في كتاب صغير الحجم في العام 2012 وصدر عن دار النشر Payot الفرنسية. وثمة ترجمة عربية للنص نشرت في مجلة "الأزمة الحديثة" (المغربية)، العدد 2، اذار/ مارس، 2010. أنجزها عبدالله البلغيتي العلوي، (من ص 7 الى ص 20). صدر العدد الأول من المجلة في العام 2008.

23- Ibid. p. 211.

24- Ibid , p. 213.

25- Ibid, p. 219.

26- Ibid, p. 220..

27- Ibid, P. 227.

28- Ibid, P. 238.

29- Jacques Derrida, Force de loi: Le fondement mythique de l'autorité,

30- Hannah Arendt, Du mensonge à la violence, essais de politique contemporaine, (Paris, Ed. Calmann – levi, 1972)

31- حنة أرندت، في العنف، (بيروت، دار الساقي، 1992)، 112 ص. ترجمة ابراهيم العريس نقلاً عن الطبعة الإنجليزية الصادرة عام 1970. ص 31.

32- المصدر نفسه، ص 32.

33- المصدر نفسه، ص 74.

34- المصدر نفسه، ص 37.

35- المصدر نفسه، ص 40.

36- المصدر نفسه، ص 45.

37- المصدر نفسه، ص 51.

38- المصدر نفسه، ص 57.

39- المصدر نفسه، ص 73.

40- عدنان حب الله: طبيب ومحلل نفسي لبناني، يعد من أبرز من يمثل تيار المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان في لبنان، وهو في الوقت نفسه تلميذ كل من لاكان و مصطفى صفوان. توفي في حادث رياضي وهو في أوج عطائه العلمي عن عمر ناهز الـ 74 عاماً. ويعتبر البروفسور حب الله من أكبر علماء النفس في العالم العربي، ويرجع إليه الفضل في تأسيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية. مارس المهنة في فرنسا ولبنان، وله كثير من المؤلفات أبرزها: جرثومة العنف ( 1998 ) الذي تمت ترجمته للفرنسية، و الطب النفسي عند العرب (2000)،



- والحدث السياسي، قراءة نفسية تحليلية (2003) والتحليل النفسي للرجولة والأنوثة: من فرويد إلى لاكان (2004) ، والصدمة النفسية: أشكالها العيادية وأبعادها الوجودية (2006) ، وبالإشتراك مع صفوان نشر : اشكاليات المجتمع العربي في ضوء التحليل النفسي (2008) ، إلى عدد كبير من المقالات والدراسات.
- 41- بروفيسور عدنان حب الله، العنف الأهلي: دراسة نفسية تحليلية، (بيروت، دار العلم، والمركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، (2003)، 155 صفحة. ص 16.
- 42- المصدر نفسه، ص 19.
- 43- المصدر نفسه، ص 20.
- 44- المصدر نفسه، ص 22.
- 45- المصدر نفسه، ص 24.
- 46- م.ن. ص 24.
- 47- م.ن. ص 26.
- 48- م.ن. ص 29.
- 49- م.ن. ص 32.
- 50- م.ن. ص 36.
- 51- م.ن. ص 38.
- 52- م.ن. ص 39.
- 53- م.ن. ص 40.
- 54- م.ن. ص 42.
- 55- م.ن. ص 54.
- 56- م.ن. ص 55.
- 57- م.ن. ص 59.
- 58- م.ن. ص 66.
- 59- م.ن. ص 70.
- 60- م.ن. ص 77.
- 61- م.ن. ص 87.
- 62- م.ن. ص 90.
- 63- م.ن. ص 92.
- 64- م.ن. ص 93.
- 65- م.ن. ص 95.
- 66- م.ن. ص 96.
- 67- م.ن. ص 109.
- 68- م.ن. ص 110.
- 69- م.ن. ص 135.
- 70- م.ن. ص 141.
- 71- م.ن. ص 142.
- 72- م.ن. ص 145.
- 73- م.ن. ص 146.

# الواقع والحدث والأنا

## دراسة في إمكان الحضور

### المعرفي للذات

خالد كموني

باحث في  
فلسفة اللغة

إن انبعاث الرؤية لا يكون إلا بعيان «موضع الرؤية»؛ أي إمكان بثّ المفهوم القابل للعيش بحسب معطيات الحضور الفاعل في الكون، فالحلم لا يكفي لإنجاز الحقيقة. وإمكان الحضور له عناصر وجود تكمن في الحركة الدائمة (الواقع) بالحركة الطارئة (الحدث) عليها بفعل فاعل (الأنا)، وتفاعل هذه العناصر بقصدٍ شيميّ، يحصر مجال العقل في اتجاهٍ للتفكير المباشر، يمكن من انفتاح الرؤية على ما ينقصها للحضور.

الذات لا تكون بذاتها من دون الموقف الهجسيّ الدائم بهذه المواضع الوجودية؛ فالحدث والواقع والأنا، ليست أنطولوجيا غائبة، على مستوى الكينونة الإعرابية للكائن العربي؛ أي حيثيّة التمكين في التكوين<sup>1</sup>، إلا بقدر ما يتنازل الوعي عن الكور فيحصل الحور<sup>2</sup>. أي إن التنازل عن الجمع والزيادة يُحدث الحور وهو النقص والنقض. غير أن انفعال العقل بحال الحور، يؤدي إلى المُحاورَة؛ النطق بالجواب والردّ بالجواب، كل ذلك في سبيل تكوير المعنى الكليّ من الوجود المعرفي في هذا الكون. فلا مندوحة للعالم من لفّ الإجابات النّوّاسية الحائرة إلى محور يضبط الدوران من شدّة الرّجع والرّد إلى المكان، فيغشّى الزمانُ تعاقبَ المظاهر، بحيث تدخلُ حالٌ في حال، وهكذا، إلى أن تُصقل الرؤية فتتكور الآراء في عمامة النّظم، أي تتكوّن، فيصير للاجتماع مظهر؛ أي نكون على هيئة ما؛ وسيتضح ذلك تباعاً.

إذاً، هي مشهيدةٌ وعيٍ بقرارِ الانوجدان بانفعالٍ وثَّابٍ إلى فعلٍ وهَّاجٍ، جدليةُ الحوار والمحاورة والأخذ والرد بفعل العقل الأحرَّ سعيًا إلى التكوُّر من جديد؛ هذه هي الذاتُ الظاهرة بعدَ تبدُّلٍ إراديٍّ مصنوعٍ بجدارةٍ، في سبيلِ حيازةِ الكون معرفةً وعلمًا وبيانًا، وليس حيازةً تأريخيةً قاتلة. والفرق بين الحيازتين، هو أن الأولى يكون فيها الإنسانُ صديقَ الطبيعة والمجتمع، يحاكي الأشياءَ بلغةٍ تشبُّهٍ وجودها في ذاتها وفي ذاتِهِ أيضًا، فيحصلُ شريعةً وجودها ليؤسِّسَ أخلاقيةَ العيش فيها وبها؛ أما الحيازة الثانية، فهي التي يعاندُ الإنسانُ فيها الطبيعةَ، فيجبرُها على مغادرةِ مفهومِها عنده قسرًا، أي لم تعد الطبيعة مشهدةً جميلًا بذاته، بل هي مشهدةٌ مصطنعةٌ، نحن من يحدِّدُ هيئته، وتغدو الأشياءُ قابلةً للتصنيع فحسب، وكلُّ ما يمنع ذلك أو من يمنع ذلك يكون عدوًّا اجتماعيًا يجب إزالته؛ وما أخطر أفرادَ الفردِ عن الجماعة، إنه ابتكارُ العداوة رغمَ السلام المبتوث بهناءً!

واللغة هنا، أي في مضمار معاندة الإنسان للطبيعة، هي تأرُّ وانتقام، لا تكلفُ العقلَ سوى الاعتراف بالدمار مظهرًا مألوفًا، حتى الموت يصير في أثناء الحياة قسرًا، ولا يحدث عند انتهائها الطبيعي، بل يغدو لحظةً عادية؛ مثلًا، نمزج أنواعًا من السوائل الكيميائية والملونات مع الطعام ونأكل، فتسبَّب لنا سرطانًا خبيثًا يقضي علينا، نموت، ونأكلُ مرةً أخرى من الشيء نفسه، ولا نتوقف! المطاعم تباع أكلًا اصطناعيًا، والآلات التي صنعها واخترعها علماء، كما نعرف، أصبحت تفتك بالكون الضخم. ربما، لم يعد ضخماً هذا الكون! كثيرةٌ هي الأنهار الزائلة، والجبال المنفوشة، والمدن المردومة بأهلها حتى. الحروب إجراءات قانونية، موقوتةٌ بحسب النظام العالمي! كل ذلك وأكثر، نعم، في أحسن الأحوال يجري استيعاب ما يحدث بصمت، فلا يكون الإنسان شيئًا، لا يكون شيئًا! نعم، فهو لا علاقة له كما يريد بالأشياء التي تحيط به، ولا علاقة له بذاته التي انسلخت عنه لِضَرَاوَةِ الحدثِ الخارقِ الواقعِ الذي ليس له، ولكنه فيه.

ماذا يعني أن تقف ضد العولمة، ألكي تأتيك صواريخ الكروز إلى بيتك؟! وماذا يعني أن تربى أولادك بأخلاقٍ حميدة، فيفرضُ عليك نظامُ الكون السياسي - التجاري مخلوقاتٍ تعيش عبثًا يُمتَّعُها، بحسب أداء فريضة الرغبة واللذة بلا حسابٍ لموجبات الإرادة التي توجبُ عقلَ نوعٍ عيشٍ الآخر في هذا الكون، بحجَّةِ الحرية المطلقة؟ ماذا تعني الدولة إذا كانت كلُّ المُغريات المباحة هي خارج قوانينها؟!... إلخ.

تُرى، ما الأخلاقُ، ما العلمُ، ما الكونُ الواحدُ، ومن أنا بين هذه المواجهات الحتمية؟ نعم، هي مواجهات، مفاعيل، لا يمكن إلا أن تكون موجودة مؤثرةً شموليًا، تربط النفس بالوجود

على هيئتها في الإحضار والتمثيل والحلول لهذا الإنسان في العالم، لذا إن تغييرها أو تعديلها يكون مريراً وهي تجري، فهو ليس من خارجها تأملاً، بل من داخلها تجريباً، فالأنا هي هذه المفاعيل بالذات.

لهذه الأسئلة تسويغٌ مفهوميٌّ ضروريٌّ لتحصيل الربط بين الذهن والوجود، فلا يمكن أن تكون الأخلاق، مثلاً، نقاهةً فكريةً، نستمتع بها في المجالس، بينما صورتها الواقعة هي الكذب!، لذا، سنناقش ما سميناه عناصرَ الحضور المعرفي للذات، وسنبداً بشرح مكونات الواقع ثم مكونات الحدث، مستثنين إلى قراءات فكرية مواكبةً وأخرى شارحةٍ لمضمون التصور، إذ إن الاستفادة من الرؤى السَّبرية الدقيقة التي أبدعها فلاسفةٌ ومفكرون كلٌّ في موضعه الباعث على التفكير في سبيل الوجود، تفيدُ بناءً أمرٍ يحسبه الباحثون فيه، في كل حين، موجوداً قبل أن يبدأوا بالتفكير فيه. وما أعنيه هو ذهنيَّة سائدة في الواقع بأن الأشياء جاهزة مدبرة، والأفكار قيلت؛ الهويَّة مثلاً أمرٌ أنهاه النظام العالمي بتصوُّرٍ يبدأ من شاشة الصرَّاف الآلي، فمفهوم الوجود هو الدولار الأميركي، ولغة هذا المفهوم هي الإنكليزية، وأداته الإنسان بما هو زبون. تخيل، الإنسان هو الدولار في واقعنا!.

هذا عقلُ الكون اليوم، على الرغم من أن إشكالَ الوجود هو إشكال الهويَّة. عندنا نحن العرب مثلاً، لا تزال الآلة تُبهرُ مستخدميها، بحيث ينتمي الفردُ إلى الآلة ولغتها، فينوجدُ حيث ينبهرُ ويندهش، وفي هذه الحيثية يبني ماهيَّته الهجينة مأخوذاً من سكناه الرغيد في العلاقة بين روحه وجسده؛ نجد العربي يديم تلك اللعنة للذات بسبب تأخرها عن الآلة، ويعزِّز الروحَ المحاكيةَ للآخر لأنه يصنع الآلة، ويعجزُ عن تمكين الحضور الفاعل الصانع بسبب التعقيد في معالجة الحدث، فكثيرة هي حواجز الخوف والامتناع عن مراس الإرادة في قدرة فاعلة ظاهرة، وهذا ما يؤدي إلى الحَوْر الإجماعي عن تكوير الذات القصدي في معرفة حاجات الأنا الطَّموح في الواقع الكثيف.

في عقل الكون اليوم يطغى التعميم في اعتبار مفهومَي الصديق والعدو، وإطالة أمد العداوة والصداقة على أساس العقْد التاريخية المستوحاة من المصالح الآنية. وكذلك اعتبار الآخر مصدر إلهامٍ علميٍّ دائم، وتكريس مفهوم الاستهلاك دَواماً في الأنا ومنها في النحن، والتنازل عن مسببات الكيان في العيان وإحداث الإبداع بالبيان. اليوم توجد فوضى حضور بحجة العولمة، إذ أصبح الجميع في خدمةٍ أنا واحدة منحت نفسها سلطة توجيه الكون! وكل الهم فاعلون بحسب هذه الأنا، سواءً في الخير أم في الشر. لذا، الهم ليس لهم ال أنا، إلا بقدر ما يحددون أناهم بحسب الأنا المتسلطة؛ وهنا احتجبت

الذات عن الحضور، خفراً وخوفاً، أي نقصاً في الإرادة، إرادة الجرأة في فهم الأسباب الناقلة من الضعف إلى القوة.

\*\*\*

إن هدف الدراسة هو إظهار إمكان الحضور المعرفي للكيان، وبعث الوعي في ما لم يَدَسِّق خارج إناء الذات من قوَّتها، كي يرسخ بإرادةٍ فينتشر؛ أي الانتباه إلى إمكان إبداع الكون بلغتنا، وتقدير لغة الأنا الخاصة الضرورية ليكون كلُّ إنسان إنساناً، أي ذاتاً كَوَّارةً، معتبرين أن هناك ضرورةً أخلاقيةً، أي ضميريةً علمية في أن، تقتضي روحية الكلام بلغة الذات، بالعربية مثلاً، كوننا عرباً، علماً ومعرفة. وكلُّ لغةٍ مهمةٌ بالقدر نفسه لحاملها، وما عليه سوى إظهار روحها في جسد الكون تقديرًا شَيمًا لمواضع الزمان في أماكنه الحيَّة، هذي الأماكن هي مطارح الذات. كي لا يكون سكان الكرة الأرضية في حورٍ بعد كورٍ، بل يتكوَّرون وفق نظامٍ في الالتفاف الجماعي، ليكون هناك نطقٌ حول محوَر، ليكون عقلٌ لحركة الرُّجْع والرد في المكان والزمان القائمين، هنا - الآن.

نريدُ فلسفةً للإنسان، تقتضي من كل إنسان أن يكون ما يجب أن يكون في مكانه وزمانه ومجتمعه، بل ما يحبُّ أن يكون، كي يحقق أنجع قيم التلاقي والتفاعل مع الآخر، أي الصِّدْق؛ الصدق يريك الآخر ولا يلغيه في سبيلك. العقل إنسانيٌّ بالمفهوم، ولكن له هويَّةٌ في الماصدق الخصوصي الفردي، فلمَ الاكتفاء بوجهٍ واحدٍ للعقل؟ العقلُ أحورٌ، يتَّجه في كل اتجاه ويعود إلى الرِّبْط حول محوَر، كي يعقلَ ما تكوَّر، فتكون الذات الكَوَّارة عندئذٍ. إن طموحات جهةٍ من البشر في جهةٍ أخرى من البشر، لا يمكن أن تكون واقعةً بالقوة الجبرية، وإلا فالذئاب ستسرح في شوارع المدن بدل أن تهيم في الغابات؛ الغاباتُ أماكن ما قبل البشر، غادرها الإنسان عندما عقل ونطق ولسن، فأحدث بحضوره البيان، فكان ما كان.

الواقعيَّة هي أن تطمح في التواصل مع الآخر، لأنه آخر وليس لأنه أنت، الواقعيَّة هي أنت، ظهور الأنا هو الصدق، أي هو الوجود. الأخلاق هي إقرار حال الاتفاق في قرارة الاختلاف، لأن الاختلاف يُبدي وجه الشبه، فلو كان الـهُوَ هُوَ قائماً في العلاقة بين الشيء والشيء، لما كان الأول يشبه الثاني ولا العكس. أما فرضُ قيم الاختلاف، ثم الانقضاء عليها بثأرية التماهي، كلِّما اقتضت خزانة الدول الكبرى أن تزيد من ثروتها، فهذا كفرٌ بإيمان، أي سنَّز لأقدس قيمة، وهي الإنسان، بعقلٍ يُسْفِر فحش الظهور؛ فالخطورة أن السَّتر يتمُّ عند هَوْلٍ باشتداد الظهور وفداحة حوادث الحوَر التي تُغشي ظهور الأنا

### الواقعية الحديثة الفاعلة، هذي الأنا الكوّارة.

ونحن إذ نبدأ من اللغة نعلم أن المهتمين بفعل اللغة الجديدة للعلم ليسوا جمهوراً واحداً له الهمُّ نفسه، فاللامبالون بالتغيّر القيمي كثيرٌ، وهم مرتاحون للموجود ويعتبرونه جيداً وملائماً، ولا يحتاجون إلى اللغة والبيان والذات في شيء، وهم يتعلّمون أنواع علومٍ يدرسونها في المدارس والجامعات تؤهلهم لاكتساب أموالٍ وفيرة، من دون التفكير بالـ «أين» والـ «لماذا» والـ «كيف». هؤلاء، لن نحكم عليهم بمقياس الحرية، بل بمقياس الفاعلية، وسنرى الحاجة إلى الثانية في حماية الأولى، بشرط أن لا نخطّط من فوق هؤلاء، بل فيهم وبهم، فهم ضحيّة مناهج التعليم والتربية واستخفاف الأنا بلُغتها، وبأمكنيتها وأزميتها، فهم مَسخو الظهور بوجود الآلة فيهم، فاحتجوا وراء شاشة الحاسوب، بدل أن يمتدوا بها إلى أمدائها التي تتفسّح كي تخدم الذات وليس كي تخدمها الذات.

إن إمكان الأخلاق الجديدة حاجة لا بد منها كي نستمرّ على قيد الحياة، فالأخلاق ليست سابقة الحدث، ولا تأتي بعده، بل هي فيه، وسنشرح ذلك. والعلم يجب أن لا يكون إجراءً كيميائياً بيولوجياً فيزيائياً يغيّر نوع الطعام واللباس والآلات والأمكنة والأزمنة من دون اكتراثٍ لقابلية الإنسان الموجود أصلاً في أمكنةٍ وأزمنةٍ هي ليست عسكريةً وتجاريةً مطلقاً، بل هي مطارح لمحاكاة الطبيعة بلُغة الفهم في سبيل البقاء، أي في سبيل العلم؛ ونحن «الموجودين العالمين»، بحسب فهمنا العربي للكون.

\*\*\*

بعد هذا التقديم، سنشرح أولاً، مفهوم الواقع بما هو «كينونة ما هو كائن»، باعتباره مظهر الوعي المفعول ما قبل الوعي الفاعل، فنقف على مظاهر الركود ومظاهر الحراك الصاعد، ونجادل في العقائد والأيديولوجيات والمناهج والنظم الجامدة أو الهابطة، باعتبارها مشهد «المياه الأسنة»، بدل أن يكون الواقع نهرًا يجري وفق شريعة الحياة، فيكون مشهد «المياه الجارية»، أي حالة المجتمع الراقي المتعلّم، والنهر قانون الحقل، والوعي قانون الحضور. ثانيًا، مفهوم الحدث بما هو «كينونة ما لم يكن»، واضعين التبرير لاستخدامه ضمن السياق الاجتماعي العربي المعيش، فالثورات العربية وما رافقها وسبقها من حروب هي فضاء البحث، ليس من ناحية التوثيق التاريخي، بل من ناحية التنظير للتأسيس العلمي لوجود الذات الفاعلة المتمكّنة من حضورها. ثالثاً، نشرح مفهوم الأنا بما هي «الكينونة الكوّارة»، باعتبار أن الفاعل في كل ما يجري هو الذات، فأَي ذاتٍ ثلاث

إمكان الحدث في واقع كهذا؟ ولماذا الحاجة إلى الذات الخاصة؛ ذات عربية مثلاً، ما الداعي للتمييز في عصرٍ بلغت فيه العولمة أشدها؟ ألا يكفي التطور العلمي الحاصل لتحقيق الرفاه؟ ما الداعي لعقلٍ عربي، أليس الموجود عقلاً بحجم الإنسان؟! وسنخلص إلى تصورٍ لبعث الفلسفة في اللغة، كي تنبعث اللغة في الفلسفة، أي كي تمتد اللغة إلى جوانب الحياة كافة، فتصبح الأشياء من حولنا موجودات علمية، ونكون نحن هناك فيها، وهي خاضعة لمختبراتنا وأبحاثنا، ونكون نحن ذواتاً مؤثرة فاعلة، نغادر حالة المفعول به في الوقت اللازم لنكون حالة «الفاعل النبیه» أي «الذات الحوارة» بعد ذهن هذا الواقع والتفكير فيه وصولاً إلى «الذات الكوارة»، وفي التكوير تكوينٌ كما تبيّن في معاني هذا الفعل. بهذا نؤسس أخلاقاً جديدة، أي ملائمة لعلم جديد، يكون فيه إنسان القرن الواحد والعشرين غير مضطّر إلى الهجرة والجوع والدمع في عين طفل؛ فالعين للنظر، والنظر للفكر، والفكر كي نكون لا كي نموت.

أولاً: الواقع «كينونة ما هو كائن»

إن الوجه الآخر لمفهوم الواقع هو اللاواقع، والوجه الآخر هو اعتبار الضمير إزاء الموجود خارجة، لأن الضمير دائم الحدس بالتغيير؛ أي إن ما هو قائم لا يكفي لما يجب أن يكون قائماً. هذه الحال ليست تحدث في ذهن واحدٍ دون آخر من الناس، بل هي حال كل من ينظر إلى الواقع، بما هو حقيقة واقعة. لذا إن السؤال، بما هو حركة تعرّف دائم، هو نفسه المكان الأنطولوجي الأول لـ «الجواب الحي». «الجواب الحي»، هو ما نريد أن نصفه بالكور المنظوم بعد الحور المعقول، أي هو الردّ المعيش لحظة السؤال وليس الردّ الجاهز تاريخياً. لكن قبل تحقيق هذا التبيين الوجودي المشروع في الذهن، يجدر بنا الوقوف على الموجود، وفهم حجم علاقته بما نريد أن يكون موجوداً.

واقع الحال ليس مجالاً لعيش مواليد الحوادث الراهنة، ذلك أن الأساس في البقاء هو النفاذ من خصاصة الواقع إلى حقيقة الواقع، أي فتق مشيمة الواقع كي يوجد الحدث. والفرق واكد بين واقع الحقيقة وحقيقة الواقع، فواقع الحقيقة وهو ما ندرسه في هذا المبحث، باعتباره الحال النُصبة، الدالة بذاتها، القابلة لأن تصبح الحال البيان، الدالة بغيرها، أي حقيقة الواقع (الحدث).

يقول هاربرت ماركوز: «ميزة البدعة غير المألوفة اليوم هي تسطیح التضاد بين الثقافة والواقع الاجتماعي، من خلال القضاء على العناصر المعارضة والمغتربة (alien) والمتعالية (transandantel) في الثقافة الرفيعة، والتي تشكّل بموجبها بعداً آخر



للوّاقع. هذه التصفية للثقافة الثنائية البعد لا تتم بنفي «القيم الثقافية» ورفضها، بل تتم بدمجها في النظام القائم، من خلال إعادة إنتاجها وبسطها على نطاق واسع<sup>3</sup>. وماركوز من منظري مدرسة فرانكفورت، هرب من النظام النازي إلى أميركا، وعمل في الاستخبارات الأميركية، ثم اهتمّ بنقد النظم الاشتراكية والرأسمالية معاً، واهتمّ بالطلاب وحركتهم الثورية ضد الأنظمة القائمة. ما يهمننا في العودة إليه هو وعيّه، ومسيرة وعيه مكاناً وزماناً، لأثر الهيمنة الأحادية على الإنسان. الإنسان الخاضع لمنظومة قيمٍ اخترقت مخياله الجامح، وقوّضت لغته وأساليبه، وبالنتيجة قمعته.

نذكرُ هنا ما قاله كلٌّ من نيكولا بيروجيني ونيف غوردون<sup>4</sup> في كتابهما عن «حق الإنسان» في الهيمنة (The Human right To Dominate)، ففي مقدمتهما للطبعة العربية من هذا الكتاب الذي يعالج قضايا القتل الأخلاقي وحق الاستعمار، وتبرير العنف، وخطاب حقوق الإنسان وانتهاكاته في سياق الهيمنة الإمبريالية والنيوكونيالية في السياسة الدولية الحالية، يوضحان الجو العام الذي دعاهما إلى وضع هذا المؤلف؛ وهو «أن التشكلات الليبرالية والاستعمارية تواصل تلاحمها في حاضرنّا «بعد الاستعماري»، من أجل أن يدعم كل منهما الآخر، ويفرز بنى سياسية قوامها الهيمنة مثل تلك الديمقراطية الاستعمارية الوحيدة في الشرق الأوسط [إسرائيل]»<sup>5</sup>.

اللافت للنظر في هذا الرأي هو الوصف الدقيق لواقع الحال؛ نعم، هناك تلاحمٌ بين الليبرالية والاستعمار، وكلا التوجهين يدعم أحدهما الآخر، وكلاهما يسوّغُ لمعطى عام شمولي لا يمكن تجاوزه بأي قيمٍ تلغيه كالمعطى الديمقراطي مثلاً. لا إنسانٌ ضد الديمقراطية! لكن ببساطة إن الوضعَ المحايث الذي يشغله هذا المفهوم في وعينا وفي الواقع هو وضعٌ مُريب، يتناقضُ مع مفهومِ المفهوم عندنا. أي إن الديمقراطية بما هي مفهوم، أساسُها الأنطولوجي المعرفي في ذهننا هو فكرة الحرية، وهذه الحرية مفهوماً الألف في الوجدان هو الياسمين المحيط بكيان الإنسان العاشق، لأن تحقيقها رفاه ونعيم وحقُّ الإنسان في أنه إنسان.

لذا، إنَّ الواقع المعيش المُبين للمفهوم المُتدَهّن للديمقراطية، أي الجامع بقوة الفهم للديمقراطية، يجعل المفهوم بذاته حوّارٌ حول ماهيته. فالسُّكنى الكاذبة للمفهوم في الواقع تؤدي إلى هُجران الوعي للمرئي واندفاع هذا الوعي إلى واقعٍ لا مرئي لكنّه موجود، ووجوده حقيقي بحكم أنّه منبعثٌ في الفكر من كونه كائناً قبلاً في الواقع. فهو مختبرٌ

مَجْرَبٌ، لذا عودته إلى عالم النظر والذهن والفكر هي عودةٌ لبعثه بشكل آخر؛ أي إن العائد بالمفهوم من مجال التجريب إلى مجال الوعي، فهو إنما يقصد أن وجوده الحاضر لا يكفي ليُطابق ما في الوعي من تصورٍ لهذا المفهوم، فيشيمُ مستقبلَ وعيه متوجّهاً بالآن إلى أمدائه، يثوّرُ الزمانَ في المكان بمفهوم ليس موجوداً بعدُ في الواقع، بل إن الواقع يناقض هذا المفهوم، وإلا ما كان ليكون فيبدعه الكائن الشائم له. والديمقراطية موجودة في بلدان العالم المتقدم، هذه الدول الغربية في أوروبا وأميركا، ولكن هذه الدول الديمقراطية هي نفسها دولٌ مستعمرة لنا وتحتلنا وتشن علينا حرباً مدمرة، وهي متطورة علمياً وتنتج تكنولوجيا عالية، وتستخدم العلم في الصناعة والبناء وفي الوقت نفسه في التهديم لمكان الآخر وزمانه، إنها ثقافة لا تتكوّر حولها الإنسانية، ففيها جانبٌ متوحّش. وبالنتيجة نصل إلى كوجيتو قاتل، قوامه فرضية مرعبة، هي: «أنا أميركا ديمقراطية، إذاً أنا العالم ديمقراطي». ذلك أن «الأنا أفكر» الأميركي، هو «الأنا موجود» العالمي؛ لكن، أين مسافات الزمان والمكان المعبّنة بوجود الآخر؟ تُرى، أليس للعالم أنا أفكر؟ ألا يمكن لغير النموذج الديمقراطي الغربي الأميركي أن يكون؟

وسنوضح بمثلٍ من واقعنا، أختصره بعبارات فالقةٍ لمعانيها زماناً ومكاناً؛ فلسطين، احتلها البريطانيون في ثلاثينيات القرن العشرين المنصرم، أدخلوا اليهود إليها ضمن مشروع استعماري، سيطر اليهود على مقوماتها واحتلوها منذ 1948، طردوا الناس من بيوتهم، هُجّر الفلسطينيون في أنحاء العالم، نشأت مقاومة للاحتلال، اعتُقل وعذّب من يقاوم ويدافع عن فلسطين؛ أصبحت فلسطين لحظةً وعي عربي، نشأت فكرة الوحدة العربية والنهوض العربي والمشروع العربي الموحد لاسترجاع فلسطين بالبعث والناصرية، والشعار ديمقراطي بامتياز «وحدة حرية اشتراكية»؛ الأنظمة العربية عسكرية تحاكي النظام الستاليني، بنت مشروعاتها بالقوة وقمع كل من يقف في وجهها من شعبها، وجدت معارضة للأنظمة، خسر العرب معاركهم مع إسرائيل؛ جرى صلح كامب دايفد 1978، اختلفت الأنظمة مع بعضها، حاول كل قطر عربي أن ينهض بنفسه، فكان هناك ما يعيق ذلك؛ نهض العراق، أُدخل في حرب مع إيران مع مجيء خميني 1979، دخل العراق إلى الكويت 1990، ضُرب العراق دولياً بقيادة أميركا، جرى حصار العراق ثلاثة عشر عاماً، واستعملت أنواع الأسلحة الفتاكة كافة لتدمير بغداد بما فيها ومن فيها؛ السلام بعد مؤتمر مدريد 1991 وما تلاه، ضُرب العراق مرة أخرى في 1998؛ احتلت القوات الأميركية

بغداد في 2003 لتحقيق الديمقراطية، ثم أدارت إيران سلطة الاحتلال، جرت محاكمة الرئيس صدام حسين والقيادة العراقية وإعدامهم بقرار أميركي منذ 2006 إلى الآن؛ الربيع العربي 2011، «الشعب يريد إسقاط النظام» في سبيل الديمقراطية، تنظيم داعش، التمدد الإيراني، الثورة السورية لتحقيق الديمقراطية، النظام وروسيا، تدمير سورية، ومؤخرًا تدمير مرفأ بيروت؛ مؤتمرات مستمرة وحروب ودمار وحكومات منهارة، فلا اقتصاد ولا بيئة ولا شيء...

هذا الجريد الذي عرضناه ليس حوادث تاريخية عابرة، بل هو مقام ظاهرة سافرة تجرّدت من كل ما يخبئها في كُنهٍ قصديٍّ، فصارت هي القصد. المقاصد مُعلنة، لذا أبطل مفعول القيم المواجهة لما يجري. ففي عام 2020، مقام الحق هو مقام البعد، ومقام الحدث الجاري هو المقام الموضع الذي صار مقام التقويم والتحكيم: توجد دولة إسرائيل، ومشكلة فلسطينيين معادين لهذه الدولة. يوجد نظام عالمي ديمقراطي، مقابل الإسلام والعروبة والوطنية والهوية الخاصة. الإسلام = الإرهاب، وقد تُجملُ الصورة حيث يحصل النظام العالمي جبايات وضرائب، يفرضها على الدول التي يسيطر عليها بحجة حمايتها بما يشبه الجزية، منفعةً وربحاً فحسب، وفي المقابل يُسبُّ نظام «أهل الذمة» التاريخي كلما اقتضت الحاجة في تثوير فئة على فئة داخل الدول المحمية هذه «أهل الذمة المعاصرين»، فيتم الفصل غير المحدّد بين الإسلام والتطرف الإسلامي، كي تظل يد «الحماية» ممدودة. ومنطق أميركا هو، «من ليس معنا فهو ضدنا»، كلمة جورج بوش الشهيرة، ومظهرها الترامبي المعاصر خير شاهد. والهمبرغر والكي إف سي والماكدونالدز...، و«المثلية» (التي كانت شذوذاً يوماً ما)، والإعلانات المُهيّجة للفرائز، والأجساد العارية، والدين والعلم والتكنولوجيا والرفاه... واللغة الإنكليزية العالمية، كلها معاً!.

ولو سألنا عن إمكان عيش كل ذلك مجتمعاً، وأردنا معرفة مفهوم الدين اليوم، مثلاً، سيجيبنا قادة النظام العالمي نفسه، برجال دينه ومفكره وعلمائه وعسكره: المحبة والسلام! عجباً!. هنا تحضّرنا، على سبيل المثال، وثيقة ترامب التي تعهد فيها بنقل سفارة بلاده إلى القدس، واعتبارها عاصمة «إسرائيل» في عام 2018. يقول ترامب:

«قراري اليوم يمثل بدايةً لنهج جديد تجاه الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين... اليوم أنا أفي بتعهدي، أنا رأيت أن اتخاذ هذا القرار يصب في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، وفي مصلحة السعي إلى تحقيق السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وهذه خطوة طال انتظارها للمضي قدماً في عملية السلام، والعمل على التوصل إلى اتفاق

دائم... قبل 70 عاماً، اعترفت الولايات المتحدة، تحت قيادة الرئيس (هاري) ترومان، بدولة إسرائيل. ومنذ ذلك الحين، جعلت إسرائيل عاصمتها في مدينة القدس، عاصمة الشعب اليهودي، التي أنشأت في العصور القديمة... القدس ليست قلب الأديان الثلاثة العظيمة (المسيحية واليهودية والإسلام) فحسب، لكنها الآن أيضاً هي قلب أحد أنجح الديمقراطيات في العالم. القدس يجب أن تبقى مكاناً يصلي فيه اليهود على حائط المبكى (البراق) ويتعبد فيه المسلمون في المسجد الأقصى، ويقيم فيه المسيحيون درب الصليب... نحن نريد اتفاقاً مناسباً للإسرائيليين والفلسطينيين... في الوقت نفسه، أدعو جميع الأطراف إلى الإبقاء على الوضع الراهن في المواقع المقدسة في القدس، بما في ذلك جبل الهيكل، والمعروف أيضاً باسم الحرم الشريف... ينبغي على المدينة المقدسة أن تأتي بأفضل ما في البشرية، وأن توجه أنظارنا نحو كل ما هو ممكن، لا أن تسحبنا مرة أخرى إلى المعارك القديمة، التي بات من الممكن التنبؤ بها... السلام لا يمكن أن يكون بعيداً عن متناول من هم على استعداد للوصول إليه، لذا ندعو اليوم إلى الهدوء والاعتدال وإعلاء أصوات التسامح على أصوات الكراهية. ينبغي أن يرث أطفالنا الحب، لا النزاعات... الشرق الأوسط منطقة غنية بالثقافة والروح والتاريخ. شعبه رائع، وفخور، ومتنوع، ومفعم بالحياة وقوي، لكن المستقبل الباهر الذي ينتظر هذه المنطقة يتم صده بسفك الدماء، والجهل، والإرهاب... لقد حان الوقت لأولئك الذين يرغبون في السلام أن يطردوا المتطرفين من وسطهم. لقد آن الأوان لكي تستجيب جميع الأمم المتحضرة والشعوب للآراء المغايرة بالنقاشات المنطقية، وليس بالعنف... وأخيراً، أطلب من قادة المنطقة، سياسيين ورجال دين، إسرائيليين وفلسطينيين، مسيحيين ويهود ومسلمين، أن ينضموا إلينا في السعي النبيل من أجل تحقيق السلام الدائم... شكراً لكم، بارك الله فيكم، بارك الله بإسرائيل، وبارك الله بالفلسطينيين، وبارك الله بالولايات المتحدة»<sup>6</sup>.

ننظر في هذه الوثيقة لنناقش اجتماع الخير بالشر على لسان واحد، إذ تُدمج القيم في بوتقة لا يمكن الفكك منها منطقياً من داخل معاشيتها أولاً ثم نقضها لمصلحة رؤية أفضل، بل كل ما يمكن القيام به إما التصدي التفيكي التهديمي لهذا الخطاب بخطاب آخر يلغيه، هذا إذا توفرت عناصر قوة وإرادة وتخطيط ناجعة للمواجهة، وإما التحليل لعناصر الخطاب نفسه، وهو الخطوة البائسة السلبية تجاه أي انبعاث تجاوزي لما هو كائن نحو ما يجب أن يكون؛ فهنا كأنما نمارس التحليلات اللغوية الوضعية وألعاب فتجنشتاين اللغوية، وإقرار الحقائق اللغوية على ما هي عليه لأنها واقعية، وهذا ما تصدى

له ماركوز في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد<sup>7</sup>. راقب مع الرئيس ترامب عبارات «إسرائيل والفلسطينيين»؛ فإسرائيل دولة أما الطرف الآخر فهم مجموعة أشخاص «الفلسطينيون»، أي إن مفهوم الوطن هو إسرائيل وليس فلسطين، أو ليس فلسطين وإسرائيل كلاهما في الأقل وطنًا، كون السيد ترامب مع حلّ الدولتين!. يتحدث ترامب عن «مصلحة الولايات المتحدة»؛ وهذا مُبرَّر في منطق السيادة على العالم من موقع الاقتدار، كما هو حال الولايات المتحدة القادرة الفاعلة. ثم يذكر أن «القدس عاصمة الشعب اليهودي التي أنشئت في العصور القديمة»؛ وهنا يُدخل ترامب مفهومًا خطيرًا لكلمة «الشعب»، فهو يربطه بالدين، وكذلك بمفهوم للدولة، إذ تكلم على «عاصمة»، فهو هنا يخترع قومية تاريخية استنادًا إلى فهم حاصرٍ معاصر لشكل الدولة الأمة سياسيًا. يقول بروس روتليدج في سياق الكلام على القوميات الاستعادية: «من أجل أن تكون هذه الدراسات هادفة، يجب أن تواجه حقب الماضي ما قبل الحديث بوصفها أكثر من مجرد مرآة للحاضر»؛ لأننا عند تفصيل الماضي ليناسب قياس إطار الحاضر نخاطر بالاكْتفاء بكشف الحاضر بحالته المعروفة أصلًا<sup>8</sup>. لكن، منطق العالم الحاضر لا يخاطر بتطبيق الرؤى القومية الحاضرة على الاجتماعات الحضارية التاريخية فحسب، بل هو يمعن في تفكيك الاجتماع الحضاري بما هو اجتماع ثقافي متنوّع المصادر المُشكّلة وغنيّ بالتجارب الطبيعية والاجتماعية لمصلحة تجارية ربحية، فتنبت مفاهيم وتصورات قاتلة، أقلّها اجتماع البشر العصبوي على أساس الدين؛ فـ «إسرائيل» قومية دينية وهي «اليهود»، ودولة ديمقراطية لـ «اليهود». ولا مبرّر لقيام مثل هذه الدولة الرّاعية بشريًا إلا إيجاد محيط مشابه لها، كي يكون هناك محاكاة لنموذجها، فتستمر؛ يمهّد الفكر السياسي الواقعي — العالمي لأفكار التنوع والإثنيات المتصارعة والأنثروبولوجيات المتعددة في المجتمع الواحد، فيصبح أي بلد عربي، مشروع دول دينية أو إثنية؛ ويتم تفكيك البناء الحضاري النوعي إلى عناصره المكوّنة. وهنا لا يمكن للعنصر الذي هو من حيث الرتبة قبل المجموع الذي احتواه تاريخيًا أن يعترف بانحلاله في كلّ أكبر منه، ذلك أن الكلّ الآن مهزومٌ بعد معارك طويلة عسكرية وتحديثية ونهضوية فاشلة، فلا شيء يغري بالاجتماع معه وفيه!، وخاصةً إذا ما تعزّز عند العنصر ظهوره الفردي، فسينسى المقام الحضاري وينتمي إلى اختلاجات المراحل الأولى للتكوّن، أي مراحل ما قبل الحاضر الآن. وعندئذٍ يصبح الـ «نحن» الحاضر اعتداءً على الـ «أنا» الغابر. وتنجلي صورة الأنا الغابر بجدارية تعيد «الحور» بعد

«الكُور». يستبدل مفهوم الأمة بمفهوم الجماعة، وتتخلّق مشاعرُ المظلوميّات التاريخية، ويأتي إلى الحكم تأريُّون ينتمون من الموجود بما لم يكن موجوداً ظاهراً إلا أنه خبيءٌ. وتصبح النظرة إلى المجتمع الواحد على أنه فسيّساء، فهو عربياً: مجتمع سني شيعي، ومسيحي بأنواعه، ويوجد فيه كلدان وأشوريين وسريان وأكراد وشراكسة وأمازيغ...، وهناك لغات عديدة يتكلم بها أبناء المنطقة... وهكذا. وهذا ليس من باب التحلّي بالتنوع، بل من باب إقرار حيّزة كل نوع لوجوده على حدة دون الأنواع الأخرى.

وتكون كينونة هذه المواجيد هي حضور «الكينونة الخبيئة» بمظهر «الكينونة الفاحشة». والكينونة الفاحشة<sup>9</sup> هي حال الانوجد الشنيع المجاوز لما هو قائم بسيرورة إكراهية؛ وإكراهية «الانوجد الفاحش» تمثّلها سمة البُخل في العلاقة مع الآخر الشريك في الوجود. هذا «الانوجد البخل» هو عكس «الانوجد الكريم»<sup>10</sup>، فالأول ينكمش على ما عنده أما الثاني فيجود بما عنده كي يحقّق الشرف الذاتي الماهوي في طبعه. و«الكينونة الكرمّة» هي مظهر «الانوجد الكريم»، وهي تحقيق «الكُور» بعد «الحُور» لما في الكرم من اجتماع وانتظام، فتصبح «الكينونة الكوارة» بعد «الذات الحوارة».

يستكمل السيد ترامب كلامه على «المعارك القديمة»؛ هنا نقف أمام هذا المفهوم كي ندرك أن ما يقصده الرئيس الأميركي هو «الأفكار القديمة»، فالفكرة القديمة هي أن القدس عاصمة فلسطين وهي أرض عربية، تشبه محيطها الحضاري والثقافي والاجتماعي الشامل، أما المفهوم الجديد لهذه البدهية الأولى فهو «المعارك القديمة»؛ هنا تنزلق المسلمة من مقام البدهة إلى مستنقع الشك. ويغدو الكلام في تاريخ المفهوم وأصالته وأوليّته في الموضوع الذي هو فيه كلاماً مفارقاً للواقع. وينسحب الكلام على الهويّة وحقوق الأقليات؛ ما أخطر هذا المفهوم!، يصبح الناس درجات في الوجود الفاعل، بدل أن يكونوا مندفعين بلا هوادة بـ «إرادة القوة» بحسب تعبير نيتشه. تخيل أن تسمع شاعراً اليوم يصف القدس أو بغداد أو دمشق وصنعاء، أي بلاده، فتقول هل هو سني أم شيعي؟!.

يستكمل ترامب خطابَه بالحديث عن اجتماع الهدوء بالاعتدال ونبذ الكراهية كي يرث أطفالنا الحب، في الشرق الأوسط المتنوع، بالنقاشات المنطقية وليس بالعنف، ويحمّل مسؤولية تنفيذ هذه الرؤية التاريخية لإحلال السلم، بحسب رأيه، إلى «قادة المنطقة سياسيين ورجال دين». تُرى، لماذا يثق ترامب بهؤلاء، ولا يثق بالأساتذة والمعلمين والكتّاب والمفكرين؟ يبدو أنه ضَمِنَ السياسة والدين في منطقتنا، مع أنه يعادي الأنظمة

القومية وغير الديمقراطية، ويعادي الإسلام المتطرف، لكن في الواقع إنه يعادي فلسفة السياسة والدين، أما المتدينين والسياسيين فهم ليسوا أعداء خطاب ترامب. أما ملاحظتنا الأخيرة فهي التي تبدو لنا فيها فكرة ماركوز عن دمج القيم الثقافية بهذا الواقع ذو البعد الواحد، أو السياسة الواحدة هنا، إذ يتكلم ترامب في الآن نفسه على العدالة وورثة أطفالنا للحب وهو في مقام الموافقة على استبدال سكان مدينة القدس بسكان غيرهم واستبدال طريقة عيشهم بطريقة أخرى ومنع لغتهم وحضورهم وتجارتهم وثقافتهم، هو يلغي وجوداً في سبيل وجود آخر، هكذا ببساطة!. وهذا يعني إلغاء مفهوم قائم في سبيل الترويج الناجز لفكرة موضوعة قيد التنفيذ، فخلاصة خطاب ترامب حاسمة: القدس عاصمة إسرائيل. هنا يحصل خبؤ المفهوم الأصيل، لأن قدرة الحضور للمخاطب، بما هو رئيس النظام العالمي، أحرزت فحش الظهور للمفهوم الجديد. إن ما ذكرناه إلى الآن في المجال السياسي ليس سوى تبدل وثيق لباقي مجالات العيش اليومي في الواقع المعاصر، ذلك أن الواقع التكنولوجي العلمي المقرون بالأخلاق الاقتصادية الربحية فحسب وليس بمفهوم الأخلاق التقليدي، القائم على الحق والخير والجمال هو الذي أخل بخصوصية القيم عند الناس. بل ربما وصل إلى عدم ضرورة وجود قيم أخلاقية عليا من الأساس، فهل الأخلاق ضرورية؟ ربما لا!

نلمح هنا إلى مفهوم التشيؤ (reification) بتعريف للوسيان غولدمان يعود إلى ستينيات القرن الماضي، يقول: «إن التشيؤ يقطع وحدة الذات والموضوع، وحدة المنتج والمنتج، الفكر والمادة، والمفكر لا يقوم بعد ذلك سوى بملاحظة هذه القطيعة، بالنظر إليها على أنها ظاهرة أساسية وطبيعية في الحياة البشرية»<sup>11</sup>. إن هذا المفهوم الماركسي الذي اشتد حضوره مع لوكاتش ومجمل مفكري مدرسة فرانكفورت، يمكننا من خلاله أن نعي الإشكالية الوجودية للإنسان في هذا الكون. إذ ما الهدف من وجوده، وما هو شكل وجوده، وأين يكون هذا الوجود في هذا العالم؟ فالتقدم الصناعي والعقل الأداتي المستحكم والتطور التكنولوجي الشامل كل ذلك فرض طريقة في الحضور لهذا الكائن البشري. وغولدمان وجد أن ليس بإمكان الإنسان سوى مراقبة هذه القطيعة، إذا ما رضي على نفسه البقاء ضحية التشيؤ، وكان رأيته أقرب إلى طرح بياجيه في طرح مفهوم البنائية في فهم العلاقة بين الشيء والموضوع والوعي الرابط بينهما. وقد قام بإجراء مقارنة بين هايدغر ولوكاتش يحاول أن يقارب بين رأييهما، في ما يتعلق بفرض ما هو قائم على أساس التفكير باستعادة الوعي للعلاقة بين الذات والموضوع، فيقول: «هناك تقارب شديد بين هايدغر



ولوكاتش في تحليل ما سماه هايدغر 'الأنطولوجيا القديمة' وأطلق عليه لوكاتش الفلسفة القديمة أو التفكير الوضعي، والمعرفة التي تشكلت في الواقع حول التمييز بين أحكام الواقعة وأحكام القيمة، في التأكيد أن معرفة الشيء (object) بإمكانها أن تأتي مستقلة عن معرفة الموضوع (subject). إن هايدغر ولوكاتش يتفقان بشدة في هذه النقطة: فالعالم ليس هناك، مقابل الوعي العارف (المُدرك) (knowing consciousness) الذي يعرفه، بما هو عليه وبمن سيحكم عليه في نهاية المطاف. باستخدامنا لغة بياجيه، الكائن في ذاته، المُنجز الأساس في الوضعية (positivism) - وجود ولاعة سجاثر هنا -، ليس واقعة حقيقية، لكنه بالأحرى بناء (construction): كل تفكير يعني بناء الموضوع. لا يوجد عالمٌ معطى، الشيء مبنئٌ، وهو ملازم لموضوعه إلى حد يتصل بماهية كل منهما - اتصال جزئي بحسب رأيي، وكلّي بحسب رأي لوكاتش - ... لا يوجد موضوعية (objectivity). هناك فقط عملية هيكلية (structuration) للشيء بالموضوع<sup>12</sup>. يفسح غولدمان المجال أمام الكينونة الواعية غير المشيئة الهايدغرية أن تتكامل مع رفض الوضعية عند لوكاتش، كي يفسح في المجال أما البنائية الدائمة في الاستمرار بتعريف العلاقة بين الذات والموضوع والشيء، فإبقاء الأشياء موضوعاً للوعي هو الكينونة المقاومة للشيء.

ونلفت في هذا السياق إلى زيجمونت باومن الذي تحدث في «الحدثة السائلة» المائعة في مواجهة «الحدثة الصلبة» التي انصهرت وسالت ولم يبقَ منها صلباً إلا السيولة ذاتها كما قال باومن. ويصف هذه الإذابة والتميع للكتلة المحدثّة الصلبة، فيقول: «جاءت الحدثة السائلة لتضع في قالب مادي (تَشْيِي) التصور الحداثي الصلب لنظام يستبعد البدائل كافة، بل ويلغيها، مجرداً إياها من واقعيتها (أي من القوى التي تجعلها ممكنة ومعقولة)، ومحرمّاً الرغبة فيها (من جانب القوى التي تتمنى أن تجعلها حقيقة واقعة وتستطيع ذلك)»<sup>13</sup>. إذا، لا بديل، هذا هو الموجود بما هو موجود، أنطولوجيا الواقع المعاصر قوائمها سلعة مادية فرضت مفهومها على المفهوم ذاته، بل أصبح قوةً فيزيائيةً طاغية، كأن الخروج منها هروباً من الواقع، وليس انفكاكاً مما هو حركة غير واقعية في الواقع! فهل الواقعي مثلاً هو أن أرتهنَ لقطعة دجاج مقررمة في الماكدونالدز أو لسيارة حديثة «فيها كل الخيارات (full option)»، يا لهذا التصور اللانهائي في شيء يحوي كل الخيارات! لو كان الكون كاملاً لما كانت الكينونة متجددة، ولو كان الواقع صورةً كليةً لما حازَ أي حدثٍ مجاًلاً يتخيّر فيه حيث يجب أن يكون في الزمان والمكان التاريخيين؛ لذا سنجد على رأس كل سنة هذا الـ full option يجاوز نفسه. أما دولوز فيصف هذا الواقع قياساً إلى ما يجب أن تكون عليه الفلسفة، وبالنتيجة فإن

هذا الواقع أذابها أو غيَّبها، وما عليها سوى استعادة ذاتها، أي إبداع المفهوم؛ «وقد بلغ العار مداه أخيراً حينما استحوذت المعلوماتية والتسويق التجاري وفن التصميم والدعاية، وكل المعارف الخاصة بالتواصل، على لفظة المفهوم ذاتها وقالت: هذه من مهمتنا، نحن الخلاّقين، إنما نحن منتجو المفاهيم!... ألم يحتفظ التسويق بفكرة نوع من العلاقة بين المفهوم والحدث... فالأحداث وحدها أمست هي المعارض، كما أمست المفاهيم وحدها هي المنتوجات التي يمكن بيعها»<sup>14</sup>.

ما وصلنا إليه في تصويرنا الواقع هو ليس واقعاً يقع في جنب واقعنا العربي، بل هو نحن بكل تفاصيل هذا المعيش الإجمالي، هو واقع الكذب الممزوج بالأخلاق العليا، والحرب المدمرة من أجل السلام الدائم، هو ثوراتنا التي سميناهم باسميناً فجاءت السُّقيا دماءً في بلاد الياسمين، وهو الحبُّ الذي كان يغري بقُبلة يُبدعها الحلم ويظهرها الفكر ويشيئها القلبُ عشقاً، كي يبقى الحوار بين الذات والآخر دَوّامة جدل نحو التكوُّر السليم. فجاء مفهوم «البقاء ضد الطبيعة» ليصبح هو الواقع، جاءت جائحة «كورونا» لترسخَ عداوة سيّد السياسة للطبيعة، بل لسيّد الطبيعة، أي الإنسان الفاعل ذو الكينونة الكرمة الكوّارة؛ فمُتْنَا تبعاً بالكورونا والسياسات الحربية المدمرة بدل أن ينتظم الواقع بنظام الطبيعة ويولج الحدث بالوجود والوجود بالحدث، كي تكونَ لنا هُويّة جديدة تكون بها، حيث لا يمكن أن لا نكون. حتى نظام الأكل تحوّر، فبدل أن نشرب عصائر الفواكه رضىنا بأن نشرب خلطات الملونات المصنّعة، وفي نظام الاجتماع الأسري بدأنا نرضى بعلاقة «المُتليّة» المصطنعة، وفي نظام الدين نحلل ونحرم بحسب مقتضيات السياسة، وفي نظام الأوطان نحيز الجغرافيا على أساس المنفعة، وفي نظام الهُويّة نتقرّم إلى حد الفرد بذاته لامتّمياً؛ والعنوان الهائم فوق كل شيء: «الحرية»!

ثانياً: الحدث «كينونة ما لم يكن»

«ما لم يكن» إلى الآن، كان الآن إلى «ما لم يكن»؛ لسنا ندور حول المحور حركةً عبثية، بل إن إمكان الانفتاح على الحدث هو المتحقق لحظة الفعل الآن. لقد حارت الأفكار وغارت بعد اشتداد الدمار، انفكَّ كلُّ شيء عن كينونة الحدث، بدأ الحوَر. هنا، في هذه الأرض الممتدة عرباً، سقطت المفاهيم وبدأت المفاهيم، كان ما لم يكن. لقد سقطت الثورة وبدأت الثورة، سقط البعث وبدأ البعث، سقطت الهُويّة وبدأت الهُويّة، سقط الحكم وبدأ الحكم، سقط الإنسان وبدأ الإنسان، سقطت الكرامة وبدأت الكرامة... إلخ.

ليس تعداد مفاهيم ما نقول، بل استعراض قرنٍ من النهوض لم يحقق النهوض، لأن

المفهوم ناقض صانعه. لقد حلم العربيُّ بوحدة العرب وحرّيتهم وبحكم العدالة بينهم فحصل الظلم والهلاك، ولم ينهض سوى قفزة تشبه أكل قطعة حلوى فوق القمامة، فلا الطعم حلوى ولا القمامة حالٌ قرار. وحال العرب ليست مختلفة عن حال الإنسانية، ولكن ما يعيننا هو الوضع هنا، لأن الفلسفة إن لم تتحيّز في حدث يصنعها فلن تبرعَ ببيانها. إن «الكينونة الكوارة» التي نبتغيها لن تكون إلا بعد إجراء الحور والضياغ. لسنا في صدد شرح مصادر السلاح الذي فتك بالمشهد، بل ما يعيننا هو المشهد. هل القتل عادة؟ هذا السؤال ساذجٌ لدرجة أني سأجيب بنعم. نعم، القتل عادة كل إنسان يغادر حال البيان إلى حال قبلها. يظن بعض الناس أن هجران اللغة الخاصة إلى لغة الآخر تطوّر واندماج، ويظن بعضهم الآخر أنه إن هجر لغة هؤلاء إلى لغة أصله سيحقق الصفاء، ويستعيد الحدث الذي عاشه من تكلم تلك اللغة. إن لغة تسير في الزمان مصاقيبةً حوادثه مساوقةً انفعال المكان بالحوادث لا يمكنها البتة اكتمالاً في تحقيقها، لا يمكنها أن تعيد الزمان، ولا أن توقف الزمان، ولا أن تملك الزمان، لا يمكنها أن تنتهي؛ أي إن اللغة هي الحدث، فلا وقع للغة في أذن سامع إلا إذا كان السامع ثائراً يهب الكون صورة ذاته. فاللغة هنا هي فعل اللغة، أي إبداعها كي لا يتغيّر شكل قائلها إلا بحسب كينونة التكوّر في المكان الآن، بحيث يتمكن حوار الإنسان مع المكان من جمع الزمان إلى محور الآن، فيصدق ظهور الذات بما هي عليه، فيكون بحدوثها انفلاق كينونة صادقة قادرة على الدوام بعد الضياغ؛ ألا ترون أن من يتكلم كثيراً على السلف يشبههم، ومن يتكلم كثيراً على الغربيين ومعيشتهم المختلف، مثلاً، يشبههم؟ إن المحاكاة اتباع لما هو خارج الذات، هي فعل تنازلي عن أتمن ما في الزمان، وهو لحظة الحضور.

الحضور ناصع البيان، لذا تتلاشى في زخمه مظاهر الضعف، فقوام الحضور هجرًا لا اتباع إلى فجأة البدعة، إذ تندفع المغامرة لتغمر الحواس، فيكون الحدس سيّد الموقف، ويحلّ الشئم لبوادر المستقبل لينبعث الآن، فتصير الرؤية سافرة لمجالها، بدل أن تحاكي أمداء الوجود البعيد فحسب، ماضيًا ومستقبلاً. المحاكاة بداوة والإبداع حضارة. والحدث وعي الوحي<sup>15</sup>، كي ينتقل الفكر إلى البيان، فكبتُ الفكرة إذواءً لحضور الإنسان وتنازل عن حال الربيع إلى حال اليباس والفناء، عن الثورة إلى العدم.

الحنين يجب أن تتركسه القبلّة الغناء بالمشاعر وليس الندم القابض عليها وعلى الأيام التي مضت ولم تشاهد فيها حبيبك أيها الإنسان. إن الحنين يدرك الآن، بما هو لهب ما لم يكن من أجل أن يكون. وبالنتيجة يكون ما هو كائن مرحلة عابرة باتجاه ما سيكون. أما

انسجام الكائن مع الواقع، وتدعيم الرؤية القرارية بتصوين القيم الخالدة فهو الهزيمة. لذا، إن الكائن الشّيّام هو المنبعث في الزمن القادم، أي هو المقدر لإمكان الكَوْر الدائم، والمتحكّم الماكن في لحظات الحَوْر.

الحَدَثُ هو ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل هو التكوير والتجميع واللفّ إلى حدّ العماء الأوسط، أي شدّة دوران المحور حول نفسه حتى يدوم أوار الحدث، فوهج الفعل هو الذي يديم قوام المحور بالدوران الدائم حوله جمعاً ووهجاً. إن انتظام المحور، هو انتظام الحوار، أي تمرّكز «الأحور» في الوسط، والأحور هو العقل. فإذا أخلّ المحور موضعه فسُدّ، أي ضاع جدل المحاورة والحوار، وانتفت الوسطية الحوارة نتيجة الكور الناظم. إن هذه الحركة تشبه شكل العين، كأن الرؤية تكون هكذا، فالمشاهد تقع في الوسط والكل يحور ويدور كي يحصّل المشهد، أي كي تتمثّل الرؤية في الذهن.

إن الذهن بحدّ ذاته جمعُ الفهم، والفهم جمع القراءة، والقراءة جمع العلم، والعلم جمع الناس في الكون، فهُم «العالمين»<sup>16</sup>، أي الذين صلتهم بالكون صلة علم. فالعالم هو اجتماع المتميزين، لأن لكل واحد فيه أثر يميزه من الآخر. إذًا، العلم هو الميزة التي تحدد قيمة الإنسان في الوجود في عالم. والإنسان في هذه الحال يكون عالمًا متعلّمًا مَعْلَمًا ومُعَلِّمًا في آن. من هنا نفهم أن العلم والتعلم هو الوجود الضرورة، فالظهور التمكنّي في الكون هو الإقرار بالإنسان معلّمًا متعلّمًا.

لذا إن الفعل الثوري اليوم هو «الربيع العربي»، هذا الربيع الذي يعاند الشتاء كي تولّد زهرة. إنه شتاء المفاهيم الغابرة، لأنها لم تعد عفوية، هذا الربيع لم يأت كما يريد الكل، نعم ومن قال إن الناس كلها تشارك في صناعة الحدث؟! الحدث هو إبداع العيش وهذا مكنة الفضلاء في وعي ذواتهم ووعي انفتاح هذه الذوات على الواقع كي لا يكون إلا كما يريدون. وهنا نتوقف مع شرح ألان باديو لمفهوم الحدث، إذ يقول: «إن الحدث، فعليًا، ليس مجموع العملية التحليلية للمتعدد (multiple). حتى لو كان بإمكان هذا المتعدد أن يكون دائمًا متموضعًا (localized) خلال عملية حضور (تمثّل) – (presenta – tion) فهو، من حيث هو كذلك، غير حاضر، ولا يمكن أن يكون قابلاً للحضور (التمثّل) (presentable). إنه – وهي ليست كينونة – حَشَوَزائد (supernumerary)»<sup>17</sup>. نعم إن باديو، يعتبر أن هناك «الحيوان الإنسان» وهناك «إنسان الحدث» وهو «مفكّر الفكرة» المشغول بالفكرة، كما يشرح فايان تاربي فلسفة باديو في تقديم كتابه في مدح الحب: «وليس من الطبيعي بالنسبة للكائن البشري أن يرتبط بفكرة، يعتمد كل شيء في المقام

الأول على المقصود بـ «كائن بشري»، يمكن اختصار الكائن البشري إلى حيوان إنسان<sup>18</sup>. ربما أراد باديو إظهار هذه الفردة للحدث وللکائن الحدثي بأنه المفكر الواعي لذاته في الواقع، وبالنتيجة فإنه لا يمكن أن يكون ذلك الكائن الراضي بالموجود. من هنا، وجدنا أن الإنسان العربي لم يعد هو الكائن الراضي بالموجود، فنقض المفهوم بالمفهوم، فهو في وجه ما يسمى ثورة قائمة، نهض بثورة حقيقية، فالصدق ليس ما هو قائم، بل ما يجب أن يقوم، ما يجب أن يتموضع.

لذلك، إن العناصر المتعددة الموجودة ليست هي الحدث، بل هي في الواقع ما يعيق قيام الحدث، إلى أن يفرَّ الكائن المفكر بفكرة من فوق السائد، فالكرامة والحرية وإسقاط النظام، وليس الخبز وزيادة الرواتب وتحسين الطرقات، هذه لا تكفي، إنها تحريك عناصر، بينما ما جرى هو حراك؛ أي رؤية واحدة إلى هدفٍ شامئ، والشيمُ ترقبٌ وتقدير، الثائرُ العربيُّ في الحدث غير الموجود يومًا في حياته. ومن المهم في هذا المجال أن نعرف الموضوع الذي ينطلق منه باديو لإقامة وحضور الحدث وإظهاره: «في العادة، يكون البناء المفهومي للهياكل، في حين يُقذف بالحوادث إلى التجربة المحض لما يجري (what happens). المنهج عندي معكوس. أن أعدّه واحدًا (count-as-one) عندي هو الحجة على الحضور. هذا الذي يخص البناء المفهومي هو الحدث، بإدراك مزدوج في أنه لا يمكن التفكير فيه إلا بتوقع (anticipating) شكله المجرد (abstract form)، ولا يمكن بيانه إلا بالأثر الرجعي لممارسة تدخلية (interventional) هي نفسها التفكير فيه برمته... سنطرح مرة واحدة وإلى الأبد أن ليس هناك حوادث طبيعة ولا محايدة، في المقامات الطبيعية والمحايدة يوجد وقائع (facts) فحسب»<sup>19</sup>.

إذا، الحدث يبدأ في التجربة المحض الجارية، أي لا فعل يشبهه، وإلا ما كان حدثًا. والمهم في الحدث أن ندرك أن ماهيته ليست تقليدًا ولا محاكاة، كما ذكرنا، فهو ليس محايدًا، بل هو «الشعب يريد إسقاط النظام»، وهو ليس طبيعيًا؛ فالأفكار ليست طبيعية ملكًا لجميع الناس، بل هي مرحلة يستأهلها صانعها، أي من يفكر في الموجود لأجل ما ليس موجودًا إلى الآن، ما يلزم أن يكون عليه كل مغامر. يقول باديو: «الحيز (site) هو دائمًا شرط كينونة الحدث فحسب... لكن وجود المتعدد على حافة الهجر (on the edge of the void) يتيح ببساطة إمكان الحدث... لا يوجد حدث يستمر استنادًا إلى مقام تاريخي، حتى لو لم يكن هذا المقام، بالضرورة، يولد الحوادث»<sup>20</sup>.

وكم يبدو هذا المقام التاريخي جائئًا عند منعطفٍ لا يني عن الانحراف، فعندما تكون كل

الظروف طارئة، فهذا يدل على انعدام القدرة على استرجاع العلاقة مع الكون، ونقصد بها العلاقة العلمية الفاعلة التي تحدّد هُويّة انتمائنا، بل انتسابنا الإبداعي لهذا الكون. يذكر مارك أوجيه عبارةً لبير نورا من كتابه *مطارح الذاكرة* «في مشهد هذا الاختلاف يوجد التشظي الفجائي لهوية مفقودة. ولسنا نبحث عن تكوين، وإنما عن إبانة من نحن في ضوء ما لم يعد وضعنا»<sup>21</sup>. وهو وإن كان يصف مشهديّة التشظي، فإن هذا الانفجار يبدو إبداعياً، بل ضرورياً كما يتم الانتقال السليم إلى حيث الهُويّة؛ فالهُويّة لا تسبق الحدث ولا تأتي بعده، بل هي فيه. صحيح أن الهُويّة انبعائيّة في جزء منها، لكنها لا تكون كما هي قبل أن تكون وأنت تتماهى بها. إن الـ هو، ضمير الغائب كلما حضر المقصود به، ولا يستعاد من غيابة إلا كلما حضر مشهد تقول فيه هو ذا. وعندما تقول هو ذا تكون ذاتك تشيم حال رَغَدٍ في عيش الـ أنا هو ذا، هذه الكينونة الكوّارة، لأنها كرمّة ليست بخيلة، بل حضرت كلها في الشيء، لأن الشيء استحقّ حضورها، هذا الاستحقاق حدث في الواقع. يقول مارك أوجيه: «لقد شكل الحدث دوماً معضلة للمؤرخين الذين أرادوا طمسه في حركة التاريخ الكبرى، والذين تصوّروه حشواً صرفاً بين «قبل» و«بعد» يُعتبر بحد ذاته توسّعاً لهذا الـ «قبل»<sup>22</sup>. نعم، وهؤلاء المؤرخون كثيرون الالتصاق بالصور الجاهزة، فهي مادة علمهم التوثيقي، أما الفلسفة فهي ليست توثيق الواقع، بل هي تغيير معالم الصورة نفسها كي تلائم الوضع الانوجادي الجديد؛ «الانوجاد الكريم» الذي يلغي «الانوجاد البخيل»، هذا الذي سيحقق «الكينونة الكرمّة» أي الذات الكوّارة، بحسب ما أفصحته لنا سيرورة الكور الحديثة التي تقاوم الحور الأخذ بالتنامي كلما نقصت ذهنية التجميع والالتفاف حول المفهوم المرتقب، أو المشيم، بحسب التقدير الشيمي للحظة الآن، كي نكون شيئاً فاعلاً. لذا، إن شرط التغيير هو فهم الواقع على أنه مكان غير لائق بالذات، فالذات يجب أن لا ترضى بما هو قائم كي تبقى ذاتاً توافقة للكينونة في العالمين. وهنا نستذكر باومن، في قوله: «لم يعد هناك شيء لنعارضه. لقد أصبح العالم والعيش في هذا العالم كلاهما وسواس نقدي ذاتي لا يمكن وقفه، أو هكذا يبدو... ما أسخف أن نحاول تغيير وجه التاريخ عندما لا توجد قوى تبدي أي إشارة إلى رغبتها في أن ترسم للتاريخ اتجاهاً. كم يبدو عقيماً هذا الجهد المبذول لإظهار أن ما يجري على أنه حقيقة هو زيفٌ، في وقت لا شيء لديه الجرأة أو القدرة في تقديم ذاته أنه حقيقة أمام الجميع وإلى الأبد. كم هو خادعٌ (quixotic) فضح زيف الاعوجاج في تمثيل الواقع في حين لا تدعي أي واقعة أنها ستكون أكثر واقعية من تمثيلها. كم يبدو ضائعاً حتّ الناس على قصد ذاك المكان دون غيره من

الأمكنة في عالم كل شيء فيه يتغير»<sup>23</sup>. هنا باومن يظهر حال الانهزام، حال الراضين بالوقائع، أي الذين تحايثت عندهم تصورات الحق مع تصورات الواقع، وهذا أصعبُ مقام يمكن الفكاك منه للانوجاد الفاعل مجدداً.

لذا، إننا سنحدد كينونة الذات الفاعلة انسجماً مع فاعلية التكوير في التحوير؛ هذه الفاعلية الراغبة بالحدث، وليس المشاهدة لما يجري من دون شعورٍ بنقصٍ في المشهد!.

ثالثاً: الأنا بما هي «الكينونة الكوارة»

إن الفهم العربي لكلمة أنا<sup>24</sup> يفتح علينا إمكانات الوجود عريباً مع الآخر في هذا الكون. إن كينونة العربي الوجودية هي «الكينونة الكرامة»؛ كينونة «الذات الكوارة» وفق انفتاح «الذات الحوارة» كما ذكرنا، وهذا ليس بغريبٍ على من لديه هذا التصوُّر الاعتباريُّ لمفهوم الأنا في الآخر وفي ذاتها. ونلج مجال الوعي الجمعي للأنا من حيث أصالة لفظها وعيشها وفهمها المتذهن؛ فهو اسم غير متمكن [يعني غير مُعَرَّبٍ فهو مبنئ]، لا تثنية له، اسمٌ مكْنِيٌّ للمتكلم وحده، مبنئٌ على الفتح، فالـ «أنا» يوصل بها تاء الخطاب فيصيران كالشيء الواحد من غير أن تكون مضافةً إليه، ضميرٌ منفصلٌ مظهرٌ، لذا تتصل به أداة التشبيه، وأنت للمخاطب وأنتما اسم مصوغٌ يدل على التثنية وليس على تثنية أنت.

نراقب مفهوم «الضمير» هنا، كي نفهم مفهوم «المَكْنِيَّ»، فـ «أنا» هي ضمير المتكلم، أي هي المتكلمُ مُضمَراً؛ «بفتح الميم الثانية 'المضمَرُ': اسم مفعول من أضمَرته، إذا أخفيته وسترته، وإطلاقه على البارز توسع. 'والضمير' بمعنى المضمَر على حد قولهم: عقدت العسل فهو عقيد، أي: معقود، وهو اصطلاح بَصْرِي، والكوفية يسمونه كناية ومكْنِيّاً؛ لأنه ليس باسم صريح، والكناية تقابل الصريح، فالضمير والكناية بالاصطلاحين «اسماً لما وضع» لتعيين مسماه، وهو إما «لمتكلم، ك: أنا»، بزيادة الألف عند البصريين، وبأصالتها عند الكوفيين...»<sup>25</sup>. ويقول المخزومي: «في أن تسمية الضمير بالمكْنِي صحيحة مقبولة؛ لأن الضمير كناية عن الاسم الظاهر»<sup>26</sup>. فلئن كان هناك ضمور واستتار وإخفاء يمارسه الضمير، فإن ما يعينني من تعريفات الكوفيين والبصريين هو المكْنِي أو الضمير بما هو اسم وضع لتعيين مسماه. فيكنو هذا الاسم ما يتوارى عن الظهور ليظهر هو دلالةً عليه، فيكون كُنُواً عنه ضَمَراً له وإخفاءً، لذا هو كنايةٌ عما لم يصرَّح عنه ليبرز بكيفية تسفرُ وجهَ حضور جديد، أي تكشف وتجلي هذا المُقام الحضور. ورد في المقاييس: «(كَنُوا) الْكَافُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ يَدُلُّ عَلَى تَوْرِيَةِ عَنِ اسْمٍ بغيره. يُقَالُ: كَنَيْتُ عَنْ كَذَا. إِذَا تَكَلَّمْتُ بِغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ. وَكُنُوتٌ أَيْضاً... أَلَا تَرَاهُ جَعَلَ الْكِنَايَةَ مُقَابِلَةً لِلْمُصَارَحَةِ.



وَلِذَلِكَ تُسَمَّى الْكُنْيَةُ كُنْيَةً، كَأَنَّهَا تَوْرِيَّةٌ عَنْ اسْمِهِ... وَكُنَى الرَّؤْيَا هِيَ الْأَمْثَالُ الَّتِي يَضْرِبُهَا مَلَكُ الرَّؤْيَا، يَكْنِي بِهَا عَنْ أَعْيَانِ الْأُمُورِ<sup>27</sup>. إذا ما يكون في وضع الكناية هو الحقيقة في حال السفور في كينونتها الجديدة بقدر ما لها من ضمورٍ يستتر في حالها الأولى، أو ما تضمه من معنى كليٍّ استدعى شكل إحصاره الجديد. وهنا نستنتج الوضعَ الحواريّ الدائم للكينونة؛ فهناك دورانٌ دائمٌ حول المعنى الثابت، الحقيقة، إذ لا يمكن أن يحوي شيءٌ هذه الحقيقة كليًّا، فالأنا ضميرٌ لكينونةٍ صاحبها في الواقع، فهي هو من جهة حضورها، ضامرةٌ معناه في لحظة انوجادٍ تحتاج إلى هذا الوضع المكني. إذ إن الأوضاع الأخرى التي لا نذكر فيها الأنا، تصريحًا، تكون فيها الذات في وضعٍ آخر ظاهر في كينونةٍ أخرى للكائن نفسه في علاقته مع الآخر. فالأنا ضميرٌ، وهي حالة انوجادٍ ليست بدلًا من صاحبها، بل هي سفورُ الذات بهذا الحيز التعبيري عند حضورها بـ أنا المتكلم الآن، فهي انكشافُ الأنا الآن. وقد عرّف الجرجاني الكناية أيضًا، فقال: «أن يُريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلًا عليه»<sup>28</sup>.

في هذا السياق، نريد أن نتخيّر في دائرة التعريف بالـ أنا، كي لا نحور دون تكوير أدائها حين تُقال. الأنا، ضميرُ المتكلم؛ وهنا روعةُ المُقام الكينوني لهذا الشعور، إذ ليس ضمير المتكلم سوى إظهار المتكلم، فتجتمع في هيئة الظهور كينونة الإخفاء بكينونة التجلي، فيتأكد وجود المتكلم بشمل الحالين مرةً واحدة. فالأنا هو كناية عن تأكيد وجود الموجود حضورًا وسفورًا، أي كينونة السفور، ونقول السفور لما في ذلك من دلالة على الانكشاف والجلاء من مكانٍ إلى مكان؛ فأنت عندما تقول أنا تؤكد كينونة حضور سافرة تؤدي بها حاجةً مضمرة<sup>29</sup>. والكينونة هي التكوين في التمكين من حيث مفهوم المكان عربيًا، في حالةٍ تستدعي إثبات معنى من المعاني، لا يوضّحه اللفظ الموضوع له في اللغة أصلاً؛ أي إن ماهية اللفظة لا تفي بالمعنى المكني فيها إلا في أنييتها، لذا احتيج إلى الوضع المكني لإثبات ما يردف هذا الوجود القائم في الحضور، فيكون الوجود الجديد هو الحضور الذي يومئ إلى هذا الشيء، أي هو الدليل على الوضع الجديد للشيء، وهو الدلالة الحقيقية له الآن. فالأنا ضميرٌ يكتنئ به عن وضع الكائن في الكون كلما احتاج الأمر إلى دلالة على الكينونة السافرة، فهو تواطؤ الذات مع ما حلَّ في ضميرها كي تنتج حال الـ أنا، هذه الحال هي كينونة الآن وإحضر الماهية إلى مستوى الإنية.

نعين في هذا المجال العلاقة بين الإنية أو الأنية أو الأنية والأنا؛ وقد عالج أنطوان

سيف مصطلح «الأنية» مسهباً في النبش عن أفنان المعنى بحسب الاستخدام الفلسفي العربي لهذا المعطى عند الكندي وغيره. ونحصر الرأي في اعتبار أميلي ماري غواشون في استخدام ابن سينا لفظة «أن» للكلام على واجب الوجود، على سبيل التمثيل، ولسنا معنيين في هذا السياق بالاعتبار الذي يقول إن «أن» ممكن أن يكون أصلها يوناني أو سرياني أو مصري فرعوني أو غير ذلك من ثقافات ولغات الحقبة القديمة لإنسان هذا الكون الفاعل في فكر هذا الكون. ذلك أن إنسان اليونان ومصر والعراق والشام والجزيرة العربية وصحراء أفريقيا وكل هذه المنطقة لا بد أنه كان متفاعلاً تجارياً واجتماعياً وسياسياً، وبالنتيجة فاللغة مشتركة في كثير من مفاهيمها، فلا داعي لإغمد سيف التفكير القومي الحديث لمفهوم نشأة الدولة في فهم معطى الاجتماع الإنساني القديم. إن العلاقة بين الشام واليونان أو بين الإسكندرية وأثينا أو بين بلاد ما بين النهرين وكل هؤلاء أو علاقات بلاد فارس لا يمكن حصرها في رؤية قومية ضيقة، بل يجب فهم المعطى اللغوي في تلك الفترة بحسب غزارة الوجود ومتانته في المكان والزمان، حيث نشأت حضارات نهريّة ومدن وحواضر جماعية التكوين، لذا فلغتها ستكون جماعية المعنى من كل صوب. ومن يراقب نموّ العربيّة من لهجاتها وبداياتها التمكنية في هذي البلاد يدرك إنسانيّة الموقف الحضاري وشموليته، ويدرك ما يسوّغ لوجود أي لفظة في مكانها في اللغة، إذ لا تحوي لغة العرب ولا أي لغة في العالم إلا ما يحتاجه ناطقوها من ألفاظ، أي ما يحوز مظاهر العيش؛ فاللفظة توثق العيشة، وغنى اللغة بالجذور يوسّع إمكان الاشتقاق، أي إمكان الانبثاق والزيادة كي يتمكّن الإنسان الناطق بها من التواصل بها مع أخيه الإنسان، إذ لا حضور في الكون إلا بالآفاظ بحجم الكون. وما الثورة الرقمية التي نحن في غمارها سوى قول الإنسان الكون بلغة تقي بإثبات حجم حضوره فيه. لذا إن تجلّي الكينونة البشرية في شاشة الحاسوب على صفحة للتواصل الاجتماعي، وإن كانت مجالاً افتراضياً للعيش فهو واقع (virtual reality)، ذلك أن محاكاة الحاسوب ليس وهمية لمادة هذا الكون ولا لإنسانه، بل هي تمثيل حقيقيّ لنوع من الانوجاد القصدي البشري الفعلي الحقيقي. نحن نتفاعل بلغة وفرت وصل الإنسان بأخيه الإنسان، لذا تجدّرت حقيقة لغة التواصل؛ وكم أكّد لنا زمان الـ «كورونا» فاعلية هذا الانوجاد! وبما أن العيش ليس تصوّراً من دون مادة، فإننا لا يمكن أن نفارق واقعية حضورنا المادي بأن نرفض التواصل بشكله القائم، بل كل ما يجب أن نكونه هو إظهار ضمير المتكلّم في الاجتماع الجديد كي لا يكذب المشهد ضمير المشهد، أي كي تبقى كينونة السفور البشري الآن حالة كناية عن ضمير،

فلا نتخلّى عن صدق التكوّن حول محور الانوجداد في منظومة قوائمها مُقام الأنا هو ذا. في هذا السياق تجري اليوم نقاشات فلسفية كبرى، نذكر على سبيل المثال بحث ستيفان فيال نوعية الإدراك البشري كيف أصبحت متعلّقة بشاشة الحاسوب، وقد عرض في الفصل الخامس من كتابه الكينونة والشاشة أحد عشر خاصية للأنطوفانيا الرقمية تناقش «الكائن الرقمي» من حالة الشيء في ذاته إلى المثالية فالتفاعلية فالافتراضية فالتقلب فالغيرية، ثم قابلية النسخ والإلغاء والتدمير، ثم الإعجازية ثم اللعب<sup>30</sup>. والأنطوفانيا هي علم تجلي الكينونة (ontophany)، هذا التجلي الحقيقي الواقعي الذي ناقشه فيال معتبراً أن التجلي الحقيقي للكينونة الآن هو التجلي الرقمي الافتراضي أي «الأنطوفانيا الرقمية»؛ ابتداءً من حال الشيء في ذاته (النومين)، إذ إن «الشبكات تصنع الواقع أو تصنع العالم. هذه هي عملية الانسكاب الظاهراتي التقني الذي نحيا فيه. المادة المحسوبة [matière calculée] هي أساسه. إنها تنتقل على كل مستويات الحياة وتحمل معها إضافةً إلى الاستخدامات العديدة ظاهراتية جديدة للعالم. وحدها المادة الجديدة يمكنها أن تُتجب طرفاً إدراكية جديدة. ولكن لأنها من جوهر رياضي، أي لا يمكن إدراكها، فالمادة المحسوبة هي أولاً نوميانية»<sup>31</sup>.

إذاً، لقد وضع فيال تجلي كينونة الإنسان المعاصر ليس في كهف الكليات ولا في الذات أولاً ولا في الطبيعة أولاً، بل في هذا المنجز الرقمي الموجود واقعاً ضمن ما يسميه وسيطاً خوارزمياً قادراً على نقل هذه المادة المحسوبة من النومين إلى الفينومين أو من الشيء في ذاته إلى الشيء الظاهر، وهنا ننظر في فينومينولوجيا هوسرل حيث تبدي الوعي ومن ثم كينونة هايدغر وانفتاحها ومن ثم التجليات الفينومينولوجية الداسة للعلاقة بين الإنسان والآلة والتطور التقني، وما نجم عن ذلك من ارتباك علاقة الإنسان بالكون، إذ نرى مع فيال تبسيطاً في قبول الظاهرة كما هي، واعتبار الافتراضي واقعي بامتياز، وبذلك يكون قد نقل تجلي الكينونة إلى عملية التواصل نفسها بين الحاضرين أمام الشاشات، مع العلم أنه يقرُّ بالهالة الظاهراتية الدنيا للأنطوفانيا الرقمية أمام الأنطوفانيا الأصلية أي أنطوفانيا المواجهة وجهاً لوجه «تلك التي تملك أعلى درجة من الهالة الظاهراتية. هناك أشكال تجارب وجودية لا تنفصل عنها، لهذا السبب ذاته لا يمكن مقارنتها بالأنطوفانيا الرقمية، مثل تجربة الحنان الأمومي، والعلاقة الحميمية العاطفية...»<sup>32</sup>.

نتوقف مع فيال هنا عند لحظة الأخلاق، أي ذلك الوعي لإدراكنا في تجواله في هذا الكون الفسيح، إذ نرى أن الآلة قد تحقّق كينونة الإنسان المعاصر في هالةٍ ظاهراتية لا

بدَّ منها، لكنها لن تتجاوز المعطى الحضوري الجسدي الروحي والذي يسميه «الحضور الأصيل»، لذا نرى أن إدراك الذات الإنسانية لنفسها أو وعي الأنا بإنيتها هو الفعل الكشفي الإجلالي الأمثل للكينونة لكي تتمكن من تكوين الكون في كيانها، ذلك أن التنازل عن أمان الكيان الإنساني بما هو لحمٌ ودمٌ يتحرك ويحس ويشعر في سبيل ما هو دون الإنسان، يعدُّ تنازلاً عن الإنسان نفسه، أي عن البقاء. والبقاء يكون باتصال الإنسان بأخيه الإنسان على أساس المحبة.

إذاً، وكما نفهم بواحد الاندماج في تجربة معرفة الكون لا بد من فهم الأنا. ونعود هنا إلى هذه اللفظة بموقعها في اللسان العربي المبين لها، إذ إن لفظة «أنا» أو «إن» أو... وما تلهم من معنى أخلاقي في الوجود سندرسها ليس من باب الاقتراض اللغوي، بل ببراءة النظرة إلى تفاعل الأذهان في فهم الأعيان نتيجة اشتراك التجربة الإنسانية في العيش المعرفي. فـ «إن» بحسب استنتاج غواشون من قراءة ابن سينا «تعني تأكيد الوجود؟ وأن أصلها هو من لفظ «إن» العربية التي تعني التوكيد! يقول ابن سينا: تكون الصفة الأولى لواجب الوجود إنه أن [إن] وموجود. وترجم غواشون «أن» إلى الفرنسية بـ «Je»، أي أنا المتكلم، أو أنا الفاعل! ولكنها تعترف، مع ذلك بأن تأويل هذه الجملة على هذا النحو، أو تأويلها للفظ «أن» يجعل معناها وكأنه يضاعف معنى «موجود». وهكذا لا يعود ممكناً تفسير «أن» انطلاقاً من مجرد فعل الوجود (والأصح: فعل الكون)، لأن دورها يكمن في تقوية الوجود وتأكيده»<sup>33</sup>. إذاً، تقوية وتأکید ومضاعفة؛ وهنا محورُ فاعليَّة الأنا. إن جمع أبعاد الوجود في أن هو لحظة الكينونة الشَّيْئِيَّة للذات، وهو في المعجم: «أَنَّ الشَّيْءُ أَيْناً: حان... وبنيت الآن لتضمَّنْها معنى الحرف... الجوهرى: الآن اسمٌ للوقت الذي أنت فيه، وهو ظَرْفٌ غير مُتَمَكِّن... وقال الخليل: الآن مبنيٌّ على الفتح، تقول نحنُ من الآن نصيرُ إليك، فتفتح الآن لأنَّ الألف واللام إنما يدخلان لعهدٍ، والآن لم تعهده قبل هذا الوقت، فدخلت الألف واللام للإشارة إلى الوقت، والمعنى نحنُ من هذا الوقت نفعُل؛ فلما تضمَّنت معنى هذا وجب أن تكون موقوفة، ففتحت لالتقاء الساكنين وهما الألف والنون»<sup>34</sup>، أي هو إدراك موضع الذات على محور الزمان والمكان في لحظة حوَّارة حاضرة هي الآن. فالآن هو الزمن الأحور، هو تحيُّن العقل حضوراً في المكان، أي لحظٌ وعي زمان المكان، إذ تلتقي أبعاد الزمان المتحدِّد إما ماضياً وإما مستقبلاً، وتبدأ لحظة وعي جديدة لا مندوحة من حواريتها، هي الأنا؛ وهي الـ إن بتأكيد الـ أن في أُنْية.

وكما نفهم وقت الانوجاد للـ أنا، يجب أن نستكمل معناها الزمكاني الذاتي في لغة العرب.

هنا نضيف معنى «أني»<sup>35</sup> ومعنى «أون»<sup>36</sup> كي نستكمل هذا المظهر الانتسابي للكون كاملاً، فندرك إمكان التكوُّر والجمع المنظَّم حول محورية العقل الدوَّار في هذا الكون الفسيح. فمن الآن ندرك التحيُّن والزمان الآن غير المعهود قبل حدوثه، فهو متأينُّ الآن، أي هذا مكانُ زمانه حيث تكون أناه؛ ومعنى الآن: «الآنُ وقتٌ مِنَ الأمَكينة»<sup>37</sup>. وهنا كينونة الكائن الحاضر في مكانٍ الآن؛ فهو إنَّ «ه» الآن، وأنيَّته الحاضره هي هذه الأنا التي بلغت منتهى إدراكها في الحين الحاضر. فكينونتها هي أنا في وقت مكان الآن، أي في الآن؛ إنها أنا الآن المتأينة، أي الكينونة التي بلغت منتهى تحيُّنها، لذا جمعت ذاتها بزمانٍ ومكانٍ آنيين، فهي إنَّ وحركة عيشها؛ فهي الإنيَّة أو الأنيَّة أو الآنية بحسب كينونة التكوُّر الآن.

وتشرح غواشون لفظة «يهوه»؛ «الذي هو» (Celui qui est) (الله: Yahv' يهوه)، توضح بأفضل ما يكون معنى لفظة «أُنْ»، ويعبَّر عنها خصوصاً بمعنى «أنا» الذي يؤكد الشخصية بقوة. وانطلاقاً من هذا التأويل، تقول غواشون إن لويس ماسينيون يعتقد أن لفظتي «أني» و«أنية» (بالهمزة المفتوحة. وهكذا تقرأها دائماً) تبدوان مشتقتين من «أُنْ» بمعنى «أنا»<sup>38</sup>. لذا، فإن استنتاج الأنية من الأنا صحيح، إذ إن هذه الأنا العربية هي ذات «كينونة حوَّارة» زمنيَّتها متمكَّنة الحضور الآن، فهي الأينُ المكنيُّ الذي أضمرَ وجودَ الذاتِ ما قبل انكشافها، ليظهر هذا الضميرُ المتكلِّمُ الحاضرُ مُدرِّكاً غايته في الحين، أي محقّقاً أنيَّة الحضور، لحظَ الكينونة الحية المتكوَّرة حول الكون معرفةً ووعياً وإدراكاً، فتجمعُ من الزمان ما لم تعهده من قبل.

\*\*\*

هذه الحاجةُ إلى الضمير أنا في العربية، فلئن كان الواقعُ هو كينونة ما هو كائنٌ أي الحركة الدائمة التي تعرَّضت إلى كينونة ما لم يكن، أي الحدث، فإن الحال التي تحقَّقها الذات الكوَّارة، كما قلنا، هي الأنا هو ذا. هذه الذات هي استحقاق وعي الأنا بزمانا في مكانها، كما في الوقت نفسه وعي المكان بالزمان، فالحوُّرُ هنا هو الحراك الثوريُّ الذي يقتضيه محور الحركة، أي الذات. إن الذات هنا هي محور الحدث، حولها يدور فعل الإدراك، أي وعي الأنا بأنَّيتها. هذا الوعي يبدو وعيَ العالمين بعالمهم، وليس يأتي من تدميرهم لعالمهم، لذا إن فعل إدراك الأنا لماهيَّتها بأنَّيتها هو فعلٌ أخلاقي. والأخلاقية هنا ليست استحضر تراثٍ من القيم، بل هو صنعُ القيم أوتاً؛ أي هو الدَّعة والسكينة والرفق في وعي أوان الفعل، لذا إن الفعلَ الثوري سيعود بهذه الحنكة في التفاعل مع الواقع، فيظهر مراراً ويخبو مراراً كي يتمكن في النهاية من البروز والحضور الدائمين لهيئته الكرَّمة.

## المراجع

1- إعراب المكان من أجل ربه هو فعل العربي في الكون، أي هو كينونة العربي الوجودية، انطلاقاً من فهمنا لمفهوم المكان في لغة العرب، إذ هو «تمكين وتكوين»، فالكينونة تمكين في التكوين. انظر: خالد كموني، فلسفة الصرف العربي دراسة في المظهر الشبمي للكينونة، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2017، مبحث «العقل المكاني»، ص 122 - 145.

2- ومن معاني كَوَّرَ: «وتَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ: كَوَّرُهَا. وَكَارَ الْعِمَامَةَ عَلَى الرَّأْسِ يَكْوِرُهَا كَوَّراً؛ لَأَنَّهَا عَلَيْهِ وَأَدَارُهَا... وَالْمَكْوَرُ وَالْمَكْوَرَةُ وَالْكَوَارَةُ: الْعِمَامَةُ. وَقَوْلُهُمْ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، قِيلَ: الْحَوْرُ النُّقْصَانُ وَالرُّجُوعُ، وَالْكَوْرُ: الزِّيَادَةُ، أَخَذَ مِنْ كَوْرِ الْعِمَامَةِ؛ يَقُولُ: قَدْ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ وَانْتَقَضَتْ كَمَا يَنْتَقِضُ كَوْرُ الْعِمَامَةِ بَعْدَ الشَّدِّ، وَكُلُّ هَذَا قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَقِيلَ: الْكَوْرُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ وَالْحَوْرُ نَقْضُهَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الرُّجُوعِ بَعْدَ الْإِسْتِقَامَةِ وَالنُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ. وَرُويَ عَنِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ أَيْ مِنَ النُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، وَهُوَ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ، وَهُوَ لَفْهًا وَجَمْعُهَا... مِلَاثُ الْكَوْرِ. قَالَ ابْنُ سَيْدَةَ: يَجُوزُ أَنْ يَعْنِيَ مَوْضِعَ كَوْرِ الْعِمَامَةِ: وَالْكَوَارُ وَالْكَوَارَةُ: شَيْءٌ يَتَّخِذُ لِلنَّحْلِ مِنَ الْقُضْبَانِ، وَهُوَ ضَيْقُ الرَّأْسِ. وَتَكْوِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أَنْ يُلْحَقَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَقِيلَ: تَكْوِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَغْشِيَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَقِيلَ: إِدْخَالُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ، وَالْمَعَانِي مُتَقَارِبَةٌ؛ وَفِي الصَّحَاحِ: وَتَكْوِيرُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ تَغْشِيَتُهُ إِيَّاهُ، وَيُقَالُ زِيَادَتُهُ فِي هَذَا مِنْ ذَلِكَ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: (يَكْوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ)؛ أَيْ يُدْخِلُ هَذَا عَلَى هَذَا، وَأَصْلُهُ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ، وَهُوَ لَفْهًا وَجَمْعُهَا. وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ: جُمِعَ ضَوْعُهَا وَلَفَّ كَمَا تَلَفَّ الْعِمَامَةُ، وَقِيلَ: مَعْنَى كُوِّرَتْ غُوِّرَتْ... وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُوِّرَتْ اضْمَحَلَّتْ وَذَهَبَتْ... وَقَالَ الْأَخْفَشُ: تَلَفَّ فْتَمَحَى؛ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كُوِّرَتْ مِثْلَ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ تَلَفَّ فْتَمَحَى، وَقَالَ قَتَادَةُ: كُوِّرَتْ ذَهَبَ ضَوْعُهَا، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَزَعَ ضَوْعُهَا... الْكُورَةُ الْمَدِينَةُ وَالصُّفْعُ، وَالْجَمْعُ كُورٌ... وَالْكَارَةُ: عِكْمُ الثِّيَابِ، وَهُوَ مِنْهُ، وَكَارَةُ الْقَصَارِ مِنْ ذَلِكَ، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهُ يُكْوَرُ ثِيَابُهُ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَيَحْمِلُهَا فَيَكُونُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، الجزء 5، مادة (كَوَّرَ)، ص 155 - 157).

أما حَوَّرَ: «الْحَوْرُ: الرُّجُوعُ عَنِ الشَّيْءِ وَإِلَى الشَّيْءِ، حَارَ إِلَى الشَّيْءِ وَعَنْهُ حَوَّراً وَمَحَاراً وَمَحَارَةً وَحَوَّراً؛ رَجَعَ عَنْهُ وَإِلَيْهِ... كُلُّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَقَدْ حَارَ يَحُورُ حَوَّراً... الْحَوْرُ النَّحِيرُ، وَالْحَوْرُ: الرُّجُوعُ. يُقَالُ: حَارَ بَعْدَ مَا كَارَ. وَالْحَوْرُ: النُّقْصَانُ بَعْدَ الزِّيَادَةِ لِأَنَّهُ رُجُوعٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَفِي الْحَدِيثِ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ؛ مَعْنَاهُ مِنَ النُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ فَسَادِ أُمُورِنَا بَعْدَ صَلَاحِهَا، وَأَصْلُهُ مِنْ نَقْضِ الْعِمَامَةِ بَعْدَ لَفْهًا، مَأْخُوذٌ مِنْ كَوْرِ الْعِمَامَةِ إِذَا انْتَقَضَ لَيْسَ وَبَعْضُهُ يَمْرُبُ مِنْ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ الْحَوْرُ، بِالضَّمِّ. وَفِي رِوَايَةٍ: بَعْدَ الْكُونِ؛ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: سُبُلَ عَاصِمٍ

عَنْ هَذَا فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِمْ: حَارَ بَعْدَ مَا كَانَ؟ يَقُولُ إِنَّهُ كَانَ عَلَى حَالَةٍ جَمِيلَةٍ فَحَارَ عَنْ ذَلِكَ أَيَّ رَجَعٍ... والمحارة: الْمَكَانُ الَّذِي يَحُورُ أَوْ يُحَارُّ فِيهِ. وَالْبَاطِلُ فِي حُورٍ أَيْ فِي نَقْصٍ وَرُجُوعٍ. وَإِنَّكَ لَنَبِيٍّ حُورٍ وَبُورٍ... أَيَّ فِي النُّقْصَانِ وَالْفُسَادِ... والحور: مَا تَحْتَ الْكَوْثَرِ مِنَ الْعِمَامَةِ لِأَنَّهُ رُجُوعٌ عَنْ تَكْوِيرِهَا؛ وَكَلِمَتُهُ فَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوَارًا وَحَوَارًا وَمُحَاوَرَةً وَحَوِيرًا وَمُحَوَّرَةً، بِضَمِّ الْحَاءِ، بِوَزْنِ مَشُورَةٍ أَيْ جَوَابًا. وَأَحَارَ عَلَيْهِ جَوَابُهُ: رَدَّهُ. وَأَحَرْتُ لَهُ جَوَابًا وَمَا أَحَارَ بِكَلِمَةٍ، وَالْإِسْمُ مِنَ الْمُحَاوَرَةِ الْحَوِيرُ، تَقُولُ: سَمِعْتُ حَوِيرَهُمَا وَحَوَارَهُمَا. وَالْمُحَاوَرَةُ: الْمُجَاوَبَةُ. وَالتَّحَاوُرُ: التَّجَاوُبُ؛ وَتَقُولُ: كَلِمَتُهُ فَمَا أَحَارَ إِلَيَّ جَوَابًا وَمَا رَجَعَ إِلَيَّ حَوِيرًا وَلَا حَوِيرَةً وَلَا حَوَارَةً وَلَا حَوَارًا [حَوَارًا] أَيْ مَا رَدَّ جَوَابًا. وَاسْتَحَارَهُ أَيَّ اسْتَنْطَقَهُ... وَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ أَيَّ يَتَرَاوَعُونَ الْكَلَامَ. وَالْمُحَاوَرَةُ: مُرَاجَعَةُ الْمُنْطِقِ وَالْكَلَامِ فِي الْمُخَاطَبَةِ، وَقَدْ حَاوَرَهُ... اسْتَحَارَ الدَّارَ: اسْتَنْطَقَهَا، مِنَ الْحَوَارِ [الْحَوَارِ] الَّذِي هُوَ الرَّجُوعُ؛ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ. أَبُو عَمْرٍو: الْأَحْوَرُ الْعَقْلُ، وَمَا يَبْعِشُ فَلَانٌ بِأَحْوَرَ أَيْ مَا يَبْعِشُ بِعَقْلٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ... وَتَأْوِيلُ الْحَوَارِيِّينَ فِي اللُّغَةِ الَّذِينَ أُخْلِصُوا وَنُقُوا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ... وَتَأْوِيلُهُ فِي النَّاسِ الَّذِي قَدْ رُوجِعَ فِي اخْتِيَارِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَوُجِدَ نَقِيًّا مِنَ الْعُيُوبِ... وَالْمَحَوَّرُ: الْحَدِيدَةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْخُطَافِ وَالْبَكَرَةِ، وَهِيَ أَيْضًا الْخَشْبَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْمَحَالَةَ. قَالَ الرَّجَّاجُ: قَالَ بَعْضُهُمْ قَبْلَ لَهُ مَحَوَّرٌ لِلدَّوْرَانِ لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي زَالَ عَنْهُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قِيلَ لَهُ مَحَوَّرٌ لِأَنَّهُ بِدَوْرَانِهِ يَنْصَقِلُ حَتَّى يَبْيَضَ. وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا اضْطَرَبَّ أَمْرُهُ: قَدْ قَلَبْتُ مَحَاوَرَهُ... (لسان العرب، الجزء 4، مادة حَوَّرَ، ص 217 - 221).

3- Marcuse, Herbert, One Dimensional Man Studies in The Ideology Of Advanced Industrial Society, (London; New York: Routledge, 2nd Edition, 2002), P. 60.

4- نيكولا بيروجيني، أستاذ العلوم الاجتماعية والسياسية في جامعة أدنبرة، وباحث في الدراسات الإيطالية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة براون الأميركية، وعضو في معهد الدراسات المتقدمة في جامعة برنستون.

— نيف غوردون، أستاذ السياسة والحوكمة في جامعة بن غوريون في النقب، يكتب في النزاع العربي الإسرائيلي، يُؤمن بالسلام، وبحل الدولتين.

5- نيكولا بيروجيني ونيف غوردون، عن «حق الإنسان» في الهيمنة، ترجمة محمود محمد الحارثاني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2018، ص 14.

6- انظر الوثيقة كاملة على الرابط التالي: <https://www.whitehouse.gov/briefings-statements/statements-by-president-trump-jerusalem> (تمت زيارة الموقع في 19-11-2018، الساعة 3:18 فجراً).

7- Marcuse, ibid, pp. 127 - 206

راجع القسم الثاني المعنون (التفكير الأحادي البعد (One-Dimensional Thought))، وعلى وجه الخصوص المبحث رقم 7 (انتصار التفكير الوضعي: الفلسفة الأحادية البعد (Triumph Of Positive Thinking: One-Dimensional Philosophy))، ص 174 - 206.



8- أوموت أوزكيرملي، نظريات القومية مقدمات نقدية، ترجمة معين الإمام، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص 134.

9- انظر معنى كلمة فحش: « الْفَاءُ وَالْحَاءُ وَالشَّيْنُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ فِي شَيْءٍ وَشَنَاعَةٍ. مِنْ ذَلِكَ الْفَحْشُ وَالْفَحْشَاءُ وَالْفَاحِشَةُ. يَقُولُونَ: كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ فَهُوَ فَاحِشٌ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي مَا يُتَكَرَّرُ. وَأَفْحَشَ الرَّجُلُ: قَالَ الْفَحْشَ: وَفَحَشَ، وَهُوَ فَحَّاشٌ. وَيَقُولُونَ: الْفَاحِشُ: الْبَخِيلُ، وَهَذَا عَلَى الْإِتْسَاعِ، وَالْبُخْلُ أَقْبَحُ خِصَالِ الْمَرْءِ » (ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، 1979، الجزء 4، مادة فحش، ص 478).

10- انظر معنى كرم: « الْكَافُ وَالرَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ لَهُ بَابَانِ: أَحَدُهُمَا شَرَفٌ فِي الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ شَرَفٌ فِي خُلُقٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ. يُقَالُ رَجُلٌ كَرِيمٌ، وَفَرَسٌ كَرِيمٌ، وَنَبَاتٌ كَرِيمٌ. وَأَكْرَمَ الرَّجُلُ، إِذَا أَتَى بِأَوْلَادٍ كِرَامٍ. وَاسْتَكْرَمَ: اتَّخَذَ عِلْقًا كَرِيمًا. وَكُرِّمَ السَّحَابُ: أَتَى بِالْعَيْثِ. وَأَرْضٌ مَكْرُمَةٌ لِلنَّبَاتِ، إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةَ النَّبَاتِ. وَالْكُرْمُ فِي الْخُلُقِ يُقَالُ هُوَ الصَّفْحُ عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنِبِ... وَالْأَصْلُ الْآخَرُ الْكُرْمُ، وَهِيَ الْفِلَادَةُ... وَأَمَّا الْكُرْمُ فَالْعِنَبُ أَيْضًا لِأَنَّهُ مُجْتَمِعُ الشَّعْبِ مَنُظُومُ الْحَبِّ » (مقاييس اللغة، الجزء 5، مادة كرم، ص 171).

11- محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، الحداثة الفلسفية نصوص مختارة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2009، ص 134. (نص مترجم للوسيان غولدمان من كتابه:

Lucien Goldmann, recherches dialectiques, bibliothèque des idées (Paris: Gallimard, 1959), pp. 81 - 102).

12- Lucien Goldmann, Lukacs and Heidegger Towards a new philosophy, (London: Routledge & Kegan Paul, 1977), p.30.

وانظر أيضًا رأي هايدغر في تشييء الوعي، وكيفية الخلاص منه، هذا النص: «... إن الأنطولوجيا القديمة قد اشتغلت بالاعتماد على 'تصورات متعلقة بالأشياء' وإن الخطر محقق بأن يتم 'تشييء الوعي'، ... ولكن ماذا يعني التشييء؟ من أين ينبع؟ لِمَ يقع، بالتحديد، 'تصور' الكينونة 'بادئ ذي بدء' انطلاقًا مما هو قائم أماننا وليس مما هو تحت اليد، الذي هو مع ذلك أقرب إلينا؟... كيف تكون كينونة 'الوعي' مهيكلة بشكل موجب، بحيث يظل التشييء أمرًا غير ملائم لها؟... » (مارتن هايدغر، الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2012، ص 739).

13- زيجمونت باومن، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ط 2، 2017، ص 23.

14- جيل دولوز وفيليكس غتاري، ما هي الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي والمركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 35.

15- هذه الفكرة شرحتها بالكامل في دراستي «إنجاز المعنى سياسة الدلالة من الأول إلى الفسر» [قيد النشر في أعمال المؤتمر الفلسفي التاسع الذي أقامه الاتحاد الفلسفي العربي في عام 2019، في طرابلس، لبنان. بعنوان: «منازل المعنى في الفهم العربي: المعنى بين الفهم وإعادة الإنتاج»]، تحت عنوان «لحظة وعي الوحي المعرفية»، فقلت: «العربي يعي الوحي استحضاراً وتمثلاً في سبيل البيان، إذ إن كينونة المعرفة هي إيعاء الإيعاء بحسب ما يبدو لنا؛ أي إمكان ضمّ محتوى الإشارة السريعة لحظة لقائنا إعلاماً وإخباراً بجمع مكوّناتها صوتاً وهيئة سيلاناً في بؤرة الفهم السريع المبين المعرف».

16- «(عَلِمَ) الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يُدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيْءِ يَمَيِّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ ذَلِكَ الْعَلَامَةِ... وَمِنَ الْبَابِ الْعَالَمُونَ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ مِنَ الْخَلْقِ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَعْلَمٌ وَعَلَمٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْعَالَمُ سُمِّيَ لِجَمَاعِهِ» (معجم مقاييس اللغة، مادة علم، الجزء 4، ص 109 - 110).  
17- Alain Badiou, Being and Event, translated by: Oliver Feltham, (London; New York: Continuum, 2005), p. 178.

18- آلان باديو، في مدح الحب، ترجمة غادة الحلواني، دار التنوير، بيروت، 2014، ص 26.  
19- Ibid., p. 178.  
20- Ibid., p. 179.

21- مارك أوجيه، اللامكنة مدخل إلى انثروبولوجيا الحداثة المفترطة، ترجمة ميساء السيوفي، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، 2018، ص 31.

22- المصدر نفسه، ص 33.

23- Zygmunt Bauman, Intimations of Postmodernity (London; New York: Routledge, 1992), p. viii.

24- ومن خصائص الـ «أنا»: «لِلْعَرَبِ فِي أَنَا لُغَاتٌ، وَأَجُودَهَا أَنَّكَ إِذَا وَقَفْتَ عَلَيْهَا قُلْتَ أَنَا بَوَزَنَ عَنَّا، وَإِذَا مَضَيْتَ عَلَيْهَا قُلْتَ أَنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ، بَوَزَنَ عَنْ فَعَلْتُ، تُحَرِّكُ النُّونَ فِي الْوَصْلِ، وَهِيَ سَاكِئَةٌ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْأَسْمَاءِ غَيْرِ الْمُتَمَكِّنَةِ مِثْلَ مَنْ وَكَمْ إِذَا تَحَرَّكَ مَا قَبْلَهَا، وَمِنْ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ أَنَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَيُثَبِّتُ الْأَلْفَ فِي الْوَصْلِ وَلَا يُنَوِّنُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَكِّنُ النُّونَ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ، فَيَقُولُ: أَنْ قُلْتُ ذَلِكَ، وَقَضَاعَةٌ تُمَدُّ الْأَلْفَ الْأُولَى أَنْ قُلْتُهُ... وَأَنَا لَا تَشْنِيَةٌ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ إِلَّا بِنَحْنٍ، وَيَصْلُحُ نَحْنٌ فِي التَّشْنِيَةِ وَالْجَمْعِ، فَإِنْ قِيلَ: لِمَ ثَنَوْنَا أَنْتَ فَقَالُوا أَنْتُمْ وَلَمْ يُثَنَّا أَنَا؟ فَقِيلَ: لِمَا لَمْ تُجَزْ أَنَا وَأَنَا لِرَجُلٍ آخَرَ لَمْ يُثَنَّا، وَأَمَّا أَنْتَ فَتَثْنُوهُ بَأَنْتُمْ لِأَنَّكَ تُحِيرُ أَنْ تَقُولَ لِرَجُلٍ أَنْتَ وَأَنْتَ لِأَخَرٍ مَعَهُ، فَلِذَلِكَ ثَنَيْتُ، وَأَمَّا إِنِّي فَتَشْنِيْتُهُ إِنَّا، وَكَانَ فِي الْأَصْلِ إِنَّا فَكَثُرَتِ النُّونَاتُ فَحُرِفَتْ إِحْدَاهَا، وَقِيلَ إِنَّا، وَقَوْلُهُ عَرَّ وَجَلَّ: «إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ»، الْمَعْنَى إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ، فَعُطِفَ إِيَّاكُمْ عَلَى الْإِسْمِ فِي قَوْلِهِ إِنَّا عَلَى النُّونِ وَالْأَلْفِ كَمَا تَقُولُ إِنِّي وَإِيَّاكَ، مَعْنَاهُ إِنِّي وَإِيَّاكَ، فَافْهَمَهُ: ... قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَأَمَّا قَوْلُهُمْ أَنَا فَهُوَ اسْمٌ مَكْنِيٌّ، وَهُوَ لِلْمَتَكَلِّمِ وَخَدَهُ، وَإِنَّمَا يُبْنَى عَلَى الْفَتْحِ فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ اللَّيِّ هِيَ حَرْفٌ نَاصِبٌ لِلْفِعْلِ، وَالْأَلْفُ الْآخِرَةُ إِنَّمَا

هِيَ لِيَبَيِّنَ الْحَرَكَةَ فِي الْوَقْفِ، فَإِنْ وُسِّطَتْ سَقَطَتْ إِلَّا فِي لُغَةٍ رَدِيئَةٍ... وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُوصَلُ بِهَا تَاءُ الْخَطَابِ فَيَصِيرَانِ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُضَافَةً إِلَيْهِ، تَقُولُ: أَنْتَ، وَتَكْسِرُ لِلْمَوْثِ، وَأَنْتُمْ وَأَنْتُنَّ، وَقَدْ تَدْخُلُ عَلَيْهِ كَافُ التَّشْبِيهِ فَتَقُولُ: أَنْتَ كَأَنَا وَأَنَا كَأَنْتَ؛ حِكْيَ ذَلِكَ عَنِ الْعَرَبِ، وَكَافُ التَّشْبِيهِ لَا تَتَّصِلُ بِالْمُضَمَّرِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِالْمُظْهَرِ، تَقُولُ: أَنْتَ كَزَيْدٍ، وَلَا تَقُولُ: أَنْتَ كِي، إِلَّا أَنْ الضَّمِيرَ الْمُتَفَصَّلَ عِنْدَهُمْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُظْهَرِ، فَلِذَلِكَ حَسَنَ وَفَارِقَ الْمُتَّصِلِ. قَالَ ابْنُ سِيدَه: وَأَنَّ اسْمَ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا وَقَفْتَ أَلْحَقْتَ أَلْفًا لِلشُّكُوتِ، مَرْوِي عَنْ قُطْرُبٍ أَنَّهُ قَالَ: فِي أَنْ خَمْسَ لُغَاتٍ: أَنْ فَعَلْتُ، وَأَنَا فَعَلْتُ، وَأَنْ فَعَلْتُ، وَأَنْ فَعَلْتُ، وَأَنَّهُ فَعَلْتُ؛ حِكْيَ ذَلِكَ عَنْهُ ابْنُ جَنِّي، قَالَ: وَفِيهِ ضَعْفٌ كَمَا تَرَى، قَالَ ابْنُ جَنِّي: يَجُوزُ الْهَاءُ فِي أَنَّهُ بَدَلًا مِنَ الْأَلْفِ فِي أَنَا لَأَنَّ أَكْثَرَ الْإِسْتِعْمَالِ إِنَّمَا هُوَ أَنَا بِالْأَلْفِ وَالْهَاءِ قَبْلَهُ، فَهِيَ بَدَلٌ مِنَ الْأَلْفِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ أَلْحَقَتْ لِيَبَيِّنَ الْحَرَكَةَ كَمَا أَلْحَقْتَ الْأَلْفَ، وَلَا تَكُونَ بَدَلًا مِنْهَا بَلْ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا كَالَّتِي فِي كِتَابِيَّةٍ وَحَسَابِيَّةٍ، وَرَأَيْتُ فِي نُسَخَةٍ مِنَ الْمُحْكَمِ عَنِ الْأَلْفِ الَّتِي تَلْحَقُ فِي أَنَا لِلشُّكُوتِ: وَقَدْ تَحَذَفُ وَإِثْبَاتُهَا أَحْسَنُ. وَأَنْتَ: ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِ، الْاسْمُ أَنْ وَالتَّاءُ عَلَامَةُ الْمُخَاطَبِ، وَالْأَنْتَى أَنْتِ، وَتَقُولُ فِي التَّثْنِيَةِ أَنْتُمَا، قَالَ ابْنُ سِيدَه: وَلَيْسَ بِتَثْنِيَةٍ أَنْتَ إِذْ لَوْ كَانَ تَثْنِيَةً لَوَجَبَ أَنْ تَقُولَ فِي أَنْتَ أَنْتَانِ، إِنَّمَا هُوَ اسْمٌ مَصْغُوعٌ يَدُلُّ عَلَى التَّثْنِيَةِ كَمَا صَيَغَ هَذَانِ وَهَاتَانِ وَكُما مِنْ ضَرْبَتِكُما وَهُمَا، يَدُلُّ عَلَى التَّثْنِيَةِ وَهُوَ غَيْرُ مُثْنَى، عَلَى حَدِّ زَيْدٍ وَزَيْدَانِ. (لسان العرب، الجزء 13، ص 37 - 38، مادة (أَنْ)).

25- الأزهرى، خالد بن عبد الله (ت 905 هـ)، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، الجزء 1، ص 97.

26- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومناهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1958، ص 314.

27- المقاييس، الجزء 5، ص 139، مادة (كَنُو).

28- الجرجاني، عبد القاهر (ت 471 هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني - القاهرة ودار المدني - جدة، ط3، 1992، الجزء 1، ص 66.

29- انظر: «السَّيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِنْكَشَافِ وَالْجَلَاءِ. مِنْ ذَلِكَ السَّفَرُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَنْكَشِفُونَ عَنْ أَمَاكِنِهِمْ... سَفَرْتُ الْبَيْتَ كَنَسْتُهُ... وَلِذَلِكَ يُسَمَّى مَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ السَّفِيرُ... وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَفِيرًا لِأَنَّ الرِّيحَ تُسَفِّرُهُ... وَسَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ وَجْهِهَا، إِذَا كَشَفَتْهُ... وَالسَّفَرُ: الْكِتَابَةُ. وَالسَّفَرَةُ: الْكِتَبَةُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ تُسَفِّرُ عَمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّيْءِ الْمَكْتُوبِ» (المقاييس، الجزء 3، ص 82 - 83، مادة (سَفَر)).

30- انظر: ستيفان فيال، الكينونة والشاشة كيف يغير الرقمي الإدراك، ترجمة إدريس كثير، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، 2018، (الفصل الخامس: الأنطوفانيا الرقمية)، ص 171 - 228.

31- المصدر نفسه، ص 180.

- 32- المصدر السابق، ص 263
- 33- أنطوان سيف، مصطلحات الفيلسوف الكندي، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 2003، الجزء 1، ص 198.
- 34- لسان العرب، الجزء 13، ص 40 - 43، مادة (أين).
- 35- انظر: «أني: أُنِيَ الشيءُ يَأْنِي أُنْيًا وَإِنِّي وَأَنْيَ، وَهُوَ أَنْيٌّ. حَانَ وَأَدْرَكَ،... وَإِنِّي الشَّيْءُ: بَلُوغُهُ وإِدْرَاكُهُ. وَقَدْ أُنِيَ الشَّيْءُ يَأْنِي إِنِّي، وَقَدْ آنَ أَوَّلُكَ وَأَوَّلُكَ وَإِيْنُكَ. وَيُقَالُ مِنَ الْإِنِّ: أَنَ يَبِينُ أَيْثًا... أَيْ مُتَنَاهِيَةً فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْجَوَاهِرِ. وَبَلَغَ الشَّيْءُ إِذَا وَانْهَى أَيْ غَايَتَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: غَيْرَ نَاطِرِينَ إِذَا هُوَ؛ أَيْ غَيْرَ مُنْتَظَرِينَ نُضْجَهُ وَإِدْرَاكَهُ وَبُلُوغَهُ. تَقُولُ: أَنَّى يَأْنِي إِذَا نَضِجَ... تَأَنَّى فِي الْأَمْرِ أَيْ تَرَفَّقَ وَتَنَظَّرَ. وَاسْتَأْنَى بِهِ أَيْ ائْتَمَرَ بِهِ... وَاتَّيْتُ الشَّيْءَ: أَخَّرْتَهُ، وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْأَنَاءُ عَلَى فَعَال... وَالْأَنْيُّ وَالْإِنِّي: الْوَهْنُ أَوْ السَّاعَةُ مِنَ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: السَّاعَةُ مِنْهُ أَيْ سَاعَةٌ كَانَتْ. وَحَكَى الْفَارِسِيُّ عَنْ ثَعْلَبٍ: إِثْنُو، فِي هَذَا الْمَعْنَى، قَالَ: وَهُوَ مِنْ بَابِ أَشَاوِي، وَقِيلَ: الْإِنِّي النَّهَارُ كُلُّهُ، وَالْجَمْعُ أَنْاءٌ وَأَنْيٌّ... وَاحِدٌ أَنْاءَ اللَّيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: إِنِّي بِسُكُونِ النُّونِ، وَإِنِّي بِكَسْرِ الْأَلْفِ، وَأَنْيٌّ بِفَتْحِ الْأَلْفِ... وَحَكَى سِيبَوَيْهِ: أَنَّهُ قِيلَ لِلْعَرَابِيِّ سَكَنَ الْبَلَدَ: أَتَخَرَّجَ إِذَا أَخَصَبْتَ الْبَادِيَةَ؟ فَقَالَ: أَنَا إِنِّيهِ؟ يَعْنِي أَتَقُولُونَ لِي هَذَا الْقَوْلَ وَأَنَا مَعْرُوفٌ بِهَذَا الْفِعْلِ؟ كَأَنَّهُ أَنْكَرَ اسْتِمْتَهَامَهُمْ إِيَّاهُ» (لسان العرب، الجزء 14، ص 48 - 51، مادة (أني)).
- 36- انظر: «أون: الْأَوْنُ: الدَّعَةُ وَالسَّكِينَةُ وَالرَّفْقُ... الْأَوَانُ الْحِينُ وَالزَّمَانُ،... وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: أَتَيْتُهُ أَتْبَةً بَعْدَ أَتْبَةٍ، بِمَعْنَى أَوْنَةٍ... وَجَمَعَ الْأَوَانُ أَوْنَةً مِثْلَ زَمَانٍ وَأَزْمَنَةٍ، وَأَمَا سِيبَوَيْهِ فَقَالَ: أَوَانٌ وَأَوَانَاتٌ، جَمَعُوهُ بِالْتَّاءِ حِينَ لَمْ يُكْسَرْ هَذَا عَلَى شَهْرَةٍ أَوْنَةٍ، وَقَدْ آنَ يَبِينُ؛ قَالَ سِيبَوَيْهِ: هُوَ فَعَلٌ يَفْعُلُ، يَحْمِلُهُ عَلَى الْأَوَانِ؛ وَالْأَوْنُ الْأَوَانُ يُقَالُ: قَدْ آنَ أَوْنُكَ أَيْ أَوَانُكَ. قَالَ يَعْقُوبُ: يُقَالُ فَلَانٌ يَصْنَعُ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَوْنَةً إِذَا كَانَ يَصْنَعُهُ مِرَارًا وَيَدَعُهُ مِرَارًا» (لسان العرب، الجزء 13، ص 38 - 40).
- 37- لسان العرب، الجزء 13، ص 44، مادة (أين).
- 38- مصطلحات الفيلسوف الكندي، ص 198 - 199.

د. شوقي عطيه

# ديموغرافيا المشرق



مركز الدراسات والبحوث  
الاجتماعية والسياسية  
Jawad Center for Research and Studies

# الرضا عن الحياة وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية لدى المرأة اللبنانية.

فريال عبدالله

الجامعة اللبنانية/

كلية الآداب

مقدمة:

تتميّز الحياة الإنسانية بكثرة التغيرات والتحوّلات والتعقيدات ومنها ظروف الحياة الإقتصادية ومستوى العلاقات الإجتماعية بالإضافة الى الظروف داخل الأسرة وكلها تشكّل ضغوطاً على الإنسان الذي يلجأ الى تعديل سلوكه والتكيّف مع هذه الضغوطات. ولكن من المهم أن نعلم أنّ قدرة الأفراد على المواجهة تختلف بين شخص وآخر لذا نجد أنّ معدل الرضا عن الحياة يختلف لدى الأشخاص تبعاً لقابليتهم النفسية والاجتماعية على المواجهة والتغيير.

لا شك أنّ مفهوم الرضا عن الحياة من المفاهيم التي أخذت حظاً مهماً من اهتمام الباحثين الاجتماعيين والنفسيين، فهو يشير الى كيفية تقييم الأفراد لحياتهم، وهذه الكيفية تتضمن جانبين: جانب إدراكي وجانب تقييمي. الجانب الأول يتمثل في إدراك الأفراد وتقييمهم للحياة بشكل عام أو تقييم جوانب محدّدة منها. والجانب الثاني تقييمي ويتمثل في تقييم الأفراد لحياتهم بناء على تكرار الأحداث السارة أو غير السارة التي تسبب إمّا السعادة والفرح إمّا التوتر والقلق وبالتالي الشعور بالرضا أو عدم الرضا وبدرجات مختلفة.

تكثّر الدراسات التي تتناول مفهوم الرضا عن الحياة من خلال العلاقة مع متغيرات أخرى. وهذا تحديداً ما نسعى الى تسليط الضوء عليه من خلال البحث في العلاقة بين هذا المفهوم ومجموعة من المتغيرات النفسية والاجتماعية والفزيولوجية ومنها

صورة الجسد وتعليم المرأة ومستواها الإقتصادي ومحيطها الأسري وعلاقاتها وغير ذلك. يطرح الجسد إشكالية حقيقية تطال عدّة مستويات لدى المرأة على الصعيد النفسي والفزيولوجي والعلائقي وبالتالي يمس مباشرة موضوع الهوية لديها. ويُظْهَر الواقع الجسد كنتاج صنعه السياق الاجتماعي والثقافي للمرأة، حيث تخوض هي دور الفاعل والمتلقي، بالإضافة الى ذلك الجانب الدلالي للجسد حيث تتجلى من خلاله علاقة المرأة بالعالم الخارجي وأيضاً بعالمها الداخلي حيث الأنشطة الإدراكية والتعبير عن المشاعر وكل ذلك يترجم من خلال الإتصال والتفاعل مع الآخر.

هذا الجسد هو محور العلاقات بالعالم، بالمكان والزمان، وعليه افترضنا أنّ تحسّن صورة الجسد يؤدي الى إرتفاع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية، بالإضافة أيضاً الى متغيرات أخرى. وسواء كان الجسد مُرسلاً أو متلقياً، فإنّه يحمل دلالات لا نهاية لها لا بدّ من قراءتها على المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك.

إذاً يعيش الجسد ضمن شمولية مُكوناته ليعكس أثر التربية والعلاقات الأسرية للمرأة ومحيطها العلائقي ونظرتها الى ذاتها، ليعكس أخيراً عنصر الرضا عن الحياة لديها وهو مفهوم مهمّ على صعيد التوافق النفسي لديها. وكما يمكن أن يكون الجسد متشرباً للنظام الاجتماعي وقيمه، ممكن أن يكون وفق تعبير «دوركهايم» «عامل الإنفرادية»، فهو هنا زمان ومكان الحدّ والإنعزال. وكأنّ هذا الجسد ممكن أن يشكّل عامل إنلقاء مع العالم وعامل إختلاف وإنعزال، وهنا تحديداً أهمية صورة الجسد.

إذن يتعلق مفهوم الجسد برؤية الفاعل لنفسه ورؤية الآخرين له، ويبدأ الفاعل بالإهتمام بالمظهر وكأنه يُرسل إشارات الى الآخر، تتحول مع الوقت الى رهان إجتماعي والى طريقة مقصودة لنشر المعلومات حول الذات وإستجلاب الآخر وكلما كان هذا المسار المقصود ناجحاً نفترض أنه يؤدي الى رفع مستوى الرضا عن الحياة وطبعاً مايرتبط بهذا المفهوم من مفاهيم مثل السعادة وتقدير الذات والمقارنة الإيجابية مع الآخر والحاجة الى التماثل. ونعني بالحاجة للتماثل الإجتماعي بين المشتركين في التفاعل الإجتماعي، أنّ الناس يحبون من هم على شاكلتهم، وهناك تراكم للأدلة المشيرة الى ذلك. (وليم لامبرت وولاس لامبرت، 1993، صفحة 170)

لا شك أنّ الفرد الإيجابي هو الفرد الذي يتصف بالمرونة النفسية التي تخولّه المواجهة الإيجابية وضبط الذات في الأزمات وصولاً الى الرضا عن الحياة. ولقد بيّن الباحثون



أنّ عدم الرضا الجسدي القوي يزيد من الآثار السلبية تجاه الجسد ويمكن أن يؤدي في الحالات الأكثر خطورة، الى شيء من القلق، أو الإكتئاب المرتبط بالجسد. إنّ القلق الجسدي الاجتماعي، أكثر تواتراً لدى النساء منه لدى الرجال، يتوافق مع درجة القلق التي يجد فيها الفرد نفسه عندما يشعر بملاحظة الآخرين أو حكمهم عليه عند ظهوره. بمعنى آخر يميل الأفراد الذين لديهم أفكار وتصورات سلبية حول مظهرهم الجسدي الى تطوير حالة التصرّو حول الأحكام التي قد تكون لدى الآخرين فيما يتعلق بمظهرهم الجسدي. (MOSCONE, 2013, p. 37)

ويعتبر موضوع الرضا عن الحياة كما موضوع صورة الجسد من المواضيع المهمة، لما لهما من أهمية على الصعيد النفسي. وعندما نبحث في موضوع الرضا، لا نقصد فقط تصوّر المرأة لجسدها ومدى إشباع ذلك لتطلعاتها وحاجاتها النفسية — من خلال التقارب بين الجسد الحقيقي والجسد المُدرَك — وإنما نقصد أيضاً مجموعة من المتغيرات التي تلعب دوراً في رفع منسوب الرضا لدى المرأة ومنها محيطها العلائقي حيث أنّ حاجة الناس الى بعضهم، صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم وثابتة لا تزيلهم.. (عن الجاحظ) (الدر، 1998، صفحة 193). وحيث يؤكد العديد من الباحثين على أهمية المجتمع والعلاقات الاجتماعية في التأثير على تقدير الفرد لذاته وإكسابه أكثر ثقة بالنفس فأَي شخص منّا يحتاج الى قدر من القبول والإحترام الاجتماعي لتتكوّن لديه مشاعر إيجابية نحو ذاته ولكي يرى نجاحه في عيون الآخرين. كما أنّ للعلاقات الاجتماعية الشخصية التأثير في تحديد مقدرة الشخص على التسامح والإحترام والانفتاح الذهني وتقبّل الآخرين وانعكاس ذلك على درجة تقبّله لذاته. (المعاينة، 2007، الصفحات 89-90). بالإضافة الى عامل التربية والبيئة الأسرية التي تعيش فيها الأنثى فمن المسلّمات الأساسيّة في علم التربية أنّ العلاقة الأولى للطفل بأسرته مهمّة في بناء شخصيته، ولا شك أنّ أساليب التربية ليست واحدة وإنّما تتعدّد بتعدّد ظروف الأهل وتكوينهم وتشتّتهم الاجتماعية وهذا ما نسعى الى التحقق منه ودراسة تأثير كل ذلك على متغير الرضا عن الحياة. بالإضافة الى عامل التحصيل العلمي بالنسبة للمرأة حيث إنّ هذا العامل مهمّ في تقدير الذات فعلماء النفس يؤكدون على أنّ تقدير الذات يتناسب طردياً مع درجة التحصيل العلمي. ونضيف أيضاً عامل المستوى الإقتصادي للمرأة وأهلها حيث نفترض أنّ تحسّن وضع المرأة الإقتصادي ينعكس إيجاباً على منسوب الرضا عن الحياة لديها.

وبناء على ما تقدّم تكون أهمية بحثنا في طرح إشكالية العلاقة بين مفهوم الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية من خلال تأثير عوامل التعليم والعمل والمستوى الاقتصادي ومستوى العلاقات وكذلك البيئة الأسرية بالإضافة الى متغير صورة الجسد. وعليه يسلّط البحث الضوء على مجموعة من المفاهيم الهامة في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي وهو مجال إختصاصنا ونسعى الى تحقيق أهداف البحث من خلال مسار ومنهج علمي واضح وتقنيات علمية نذكر منها تقنية الإستمارة التي تتضمن مقياسين: الأول لقياس صورة الجسد والثاني لقياس مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية. من هنا نقدم الهدف الرئيس للبحث:

الكشف عن العوامل الاجتماعية والثقافية التي تؤثر على صورة الجسد والرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية.

إشكالية البحث:

المرأة هي تلك الأنثى التي تتفاعل ضمن مجموعة من الدلالات والرسائل المجتمعية. ولا بدّ للبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها المرأة أن تكون مُشبعة لحاجاتها فيقبلها الآخرون ماينعكس بدوره على تقبلها لذاتها وبالتالي يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لديها. ويختلف الشعور بالرضا عن الحياة بين امرأة وأخرى، كما تختلف النظرة إلى الجسد تبعاً لعوامل عدة نحتاج للكشف عنها ومدى تأثيرها. وعليه فإنّ إشكالية البحث تتلخص في السؤال الأساسي التالي:

هل هناك علاقة ما بين الرضا عن الحياة وبعض المتغيرات النفسية والاجتماعية لدى المرأة اللبنانية ؟

الأسئلة الفرعية:

— هل هناك علاقة بين صورة الجسد لدى المرأة اللبنانية والرضا عن الحياة لديها؟

— هل هناك علاقة بين تعليم المرأة ووضعها المادي والرضا عن الحياة لديها؟

— هل هناك علاقة بين المحيط العلائقي للمرأة والرضا عن الحياة لديها؟

— هل هناك علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين بيئة المرأة الحاضنة ومعدل الرضا عن الحياة لديها؟

— هل هناك علاقة بين الوضع الاجتماعي للمرأة والرضا عن الحياة لديها؟

وبناء على التساؤلات نقدم فرضيات البحث:

الفرضية الأساسية: هناك علاقة ما بين الرضا عن الحياة وبعض المتغيرات النفسية والاجتماعية لدى المرأة اللبنانية.

الفرضيات الفرعية:

- هناك علاقة بين صورة الجسد لدى المرأة اللبنانية والرضا عن الحياة لديها
  - هناك علاقة بين تعليم المرأة ووضعها المادي والرضا عن الحياة لديها.
  - هناك علاقة بين المحيط العلائقي للمرأة والرضا عن الحياة لديها.
  - هناك علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين بيئة المرأة الحاضنة ومعدل الرضا عن الحياة لديها.
  - هناك علاقة بين الوضع الاجتماعي للمرأة والرضا عن الحياة لديها.
- منهج الدراسة: تمّ الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، حيث نقوم بداية بوصف مجتمع البحث وخصائصه، ثم تحليل العلاقة بين المتغيرات من حيث وجود هذه العلاقة أو عدمه، وتحديد حجم العلاقة بحال وُجدت من خلال العمليات الإحصائية المناسبة لنوع المتغيرات. ونعرض فيما يلي أدوات البحث والإطار النظري والمفاهيمي:
- أولاً: أدوات وتقنيات البحث:

المقابلة: للمقابلات وظيفة رئيسية هي تبيان جوانب من الظاهرة المدروسة، ومن الأمور الجوهرية أن تدور المقابلة بطريقة مفتوحة، ومرنة جداً. (ريمون كيبي ولوك فان كمبنهود، 1997، صفحة 85). تمّ تنفيذ ثلاث مقابلات مع إناث من أعمار مختلفة ووضع اجتماعي مختلف وكذلك خلفيات ثقافية وإجتماعية واقتصادية مختلفة. وأخذت المقابلة شكل المقابلة المفتوحة لتترك المساحة للمستجوبات بالتعبير عن أنفسهنّ، ولكن أضفنا الى المقابلة تقنية الصور حيث عرضنا على المستجوبات مجموعة من الصور لإناث بأجساد مختلفة وطُلب منهنّ اختيار النموذج الذي يشبهنّ وكذلك النموذج الذي يرغبن به ومن خلال هذه التقنية تمكّنّا من قياس مدى الاختلاف بين الجسد الحقيقي والجسد المرغوب به، وكذلك بين الجسد المُدرّك (كما تراه المرأة) وبين الجسد الحقيقي (من خلال دراسة مقاييس المرأة المستجوبة). وقد تم اعتماد تقنية تحليل المضمون حيث يتم تحليل محتوى المقابلة الى بيانات يمكن تلخيصها ودراستها.

الإستمارة: تم تنفيذ استمارة على 587 مستجوبة من مختلف الخلفيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تضمنت الإستمارة مقياس الرضا عن الحياة إعداد الدكتور مجدي دسوقي (1996)، ومقياس صورة الجسد من تأليف «روزين وآخرين» تعريب وتقنين

دكتور مجدي محمد الدسوقي. وقد تم تنفيذهما على عينة تجريبية مؤلفة من 60 امرأة، وبعد التأكد من صدق المقياسين حيث اقترب معامل ألفا كرونباخ من الواحد، تم تعميم الإستمارة. وبعد جمع المعطيات من الميدان قمنا باستخدام برنامج الرزمة الإحصائية، ومن العمليات الإحصائية التي تم استخدامها تحليل التباين الذي نقوم من خلاله بتحديد العلاقة وحجمها بين متغير تابع كمي ومتغير أو أكثر مستقل.

#### متغيرات البحث:

المتغيرات المستقلة: تعليم المرأة - الوضع المادي - البيئة الأسرية - المحيط العلائقي - الوضع الاجتماعي - صورة الجسد.

المتغيرات التابعة: الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية.

عينة البحث: تم تطبيق الإستمارة الإلكترونية - بسبب جائحة كورونا - من خلال شبكة علمية مضبوطة، على عينة ممثلة من مختلف المناطق اللبنانية والخلفيات المتنوعة، وقد بلغ حجم العينة 587 امرأة تراوحت أعمارهن بين 16 و 50 سنة.

#### حدود الدراسة:

الحدود البشرية: عينة مُتاحة (تتناول كل متغيرات الدراسة) مؤلفة من 587 مستجوبة.

الحدود المكانية: كافة المناطق اللبنانية.

الحدود الزمنية: مدة إجراء البحث النصف الأخير من عام 2020.

ثانياً: الإطار النظري للبحث ويضم الدراسات السابقة، المصطلحات والمفاهيم والمنطلقات النظرية.

#### أولاً: المصطلحات والمفاهيم:

##### أ- الجسد:

إنّ الجسد هو التوتر في الهوية للإنسان، للمكان والزمن، حيث العالم يتخذ جسماً. لفكر جسدية مثلما للجسد ذكاء، فمن تقنيات الجسد الى التعبيرات الوجدانية، من الإدراكات الحسية الى الرسم على الجلد، من سلوكيات الوقاية الى سلوكيات التغذية، من طرق الجلوس الى المائدة الى طرق النوم، من نماذج تمثّل الذات الى العناية بالصحة والمرض، من العنصرية الى التمركز، من الوشم الى الثقب، يعتبر الجسد مادة لاتنضب للممارسات الاجتماعية، للتمثيلات، للمتخيلات. إنّ الجسد «أداة عامة لفهم العالم» على حدّ قول «ميرلوبونتي». (لوبروتون، 2014، صفحة 10).

### صورة الجسد:

تعريف دسوقي: إنّ صورة الجسم هي «الصورة أو التصوّر العقلي الذي عند المرء عن جسمه الخاص أثناء الراحة أو في الحركة في أية لحظة، وهي مستمدة من الإحساسات الباطنة وتغيرات الهيئة والإحتكاك بالأشخاص والأشياء في الخارج، والخبرات الإنفعالية والخيالات». (دسوقي، 1988، صفحة 191).

التعريف الإجرائي لصورة الجسد: ونقصد به العلامة التي تحصل عليها المستجوبة على مقياس صورة الجسد.

### الرضا عن الحياة:

تعريف الدسوقي بأنّه تقييم الفرد لنوعية الحياة التي يعيشها طبقاً لنسقه القيمي ويعتمد هذا التقييم على مقارنة الفرد لظروفه الحياتية بالمستوى الأمثل الذي يعتقد أنّه مناسب لحياته. (الدسوقي، 1998، صفحة 2).

تعريف فاضل عباس بأنّه «درجة الإشباع التي تتحقّق لدى الفرد والنابعة من حاجاته الأساسية، وهذه الحاجات من مأكّل ومشرب ومسكن وحاجات الإنتماء الى الإحترام، وأخيراً حاجاته الى تحقيق ذاته. (الشنواني، 1972، صفحة 136).

تعريف الديب: الرضا عن الحياة هو: «تقبّل الفرد لذاته، وأسلوب الحياة التي يحيها في المجال الحيوي الذي يحيط به، فهو متوافق مع ربّه وذاته وأسرته وسعيداً في عمله، متقبّلاً لأصدقائه وزملائه، راضياً عن إنجازاته الماضية، متفائلاً بما ينتظره من مستقبل، مسيطراً على بيئته، فهو صاحب القرار، قادراً على تحقيق أهدافه. (الديب، 1988، صفحة 49).

تعريف مايكل أرجايل: «إنّه تقدير عقلي لنوعية الحياة التي يعيشها الفرد ككل أو حكم بالرضا عن الحياة». حيث يمثّل مفهوم الرضا عدداً من المقاييس النوعية للرضا، فهناك الشعور بالرضا عن الحياة بصفة عامة، وعن العمل، وعن الزواج، وعن الصحة ومقاييس الرضا المختلفة. (أرجايل، 1993، صفحة 14).

تعريف عبد الخالق: الرضا عن الحياة هو التقدير الذي يضعه الفرد لنوعية حياته بوجه عام اعتماداً على حكمه الشخصي. (عبدالخالق، 2008، صفحة 123).

تعريف منظمة الصحة العالمية: الرضا عن الحياة هو: «معتقدات الفرد عن موقعه في الحياة وأهدافه وتوقعاته ومعايير اهتماماته في ضوء السياق الثقافي ومنظومة القيم في المجتمع

الذي يعيش فيه» وهو مفهوم واسع يتأثر بطريقة مركبة بالصحة الجسمية للفرد وبحالته النفسية وباستقلاليتته وعلاقاته الإجتماعية وعلاقته بكل مكونات البيئة التي يعيش فيها. (WHOQOLGROUP, 1998)

إذن الرضا هو المُحصّل عليه في الواقع منقوص من المتوقع، أي الفارق بين مايرغبه الفرد وما يتحصّل عليه. (عزري، 2007-2006، صفحة 55). ولا شك أنّ هناك مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالرضا عن الحياة، نذكر منها السعادة ونوعية الحياة وغيرها من المفاهيم وتقبل الحياة.

تقبل الحياة: تقبّل الحياة هو مفهوم عام وشامل ويشمل قدرة الفرد على التكيف والتوافق مع ذاته ومع الآخرين المحيطين به. (عبدالمعزم، 2010، صفحة 5)

التعريف الإجرائي للرضا عن الحياة: ونقصد به الدرجة التي تنالها المفحوصة على مقياس الرضا المعدّ لهذا الغرض.

التحصيل العلمي للمرأة: إنّ هذا العامل مهمّ في تقدير الذات والرضا عن الحياة لدى المرأة وقد أكد العلماء على أنّ الرضا عن الحياة يتناسب طردياً مع درجة التحصيل العلمي، إنّ منظومة العلاقات الدراسية، العلاقة بالزملاء، الأساتذة، المرشدين والإدارة لها دور كبير في تقدير المرأة لذاتها وذلك أنّ المؤسسات التربوية وبمختلف مراحلها تُعتبر المكان الذي تتشكّل فيه شخصية الإنسان، من هنا فإنّ التفاعل الإيجابي سيؤثر حتماً على شخصية المرأة، ذلك أنّ مفهوم الذات هو مكوّن معرفي منظم ومتعلم للمُدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات يبلوره الفرد ويعتبره تعريفاً نفسياً لذاته. (الزغبى، 2007، صفحة 158). نضيف الى هذا المفهوم مفهوم الذات الأكاديمية فهو معرفة الفرد وتفكيره في ماضيه ومستقبله الأكاديمي، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحصيل الدراسي. (محمود، 2017، صفحة 603).

البيئة الأسرية للمرأة: ونقصد بها نوع العلاقات التي تحكم الأسرة الحاضنة للمرأة وقد حاولنا قياس هذا المتغير من خلال السؤال عن وجود محبة أسرية أو تسلط أو حتى عنف. ولا شك أنّ هناك عدة أنواع لأساليب المعاملة الوالدية وقد أشار في هذا الإطار «محمد شوكت» 1993، من خلال دراسته، الى أنّ أساليب المعاملة الوالدية القائمة على الديمقراطية والاستقلال والبعيدة عن التسلط والإتكال أكثر تدعيماً لتقدير الذات لدى الأبناء. (محمد، 1993، صفحة 21).

العلاقات الاجتماعية للمرأة: يؤكد العديد من الباحثين على أهمية المجتمع والعلاقات الاجتماعية في التأثير على تقدير الفرد لذاته وإكسابه أكثر ثقة بالنفس فأى شخص منا يحتاج الى قدر من القبول والإحترام الاجتماعي لتتكوّن لديه مشاعر إيجابية نحو ذاته ولكي يرى نجاحه في عيون الآخرين. كما أنّ للعلاقات الاجتماعية الشخصية التأثير في تحديد مقدرة الشخص على التسامح والإحترام والانفتاح الذهني وتقبّل الآخرين وانعكاس ذلك على درجة تقبّله لذاته. (المعاينة، 2007، الصفحات 89-90)

المستوى الإقتصادي للمرأة: يشمل الفعل الإقتصادي مصلحة تتمثّل في حفظ الملكية أو زيادتها. (سكوت، 2009، صفحة 409)

#### ثانياً: النظريات المفسرة للرضا عن الحياة:

هناك العديد من النظريات المفسّرة لمفهوم الرضا عن الحياة نذكر منها:

نظرية الإنتماء الاجتماعي: يعدّ الشعور بالإنتماء الاجتماعي من أقوى المشاعر في تحقيق الوئام والإنسجام والتماسك والترابط والتضامن والتكافل بين أفراد المجتمع الواحد. فالإنتماء هو العمود الفقري للجماعة وبدونه تفقد الجماعة تماسكها. وتماسك الجماعة هو درجة انجذاب الأعضاء لها والذي يتوقف على مدى تحقيق الجماعة نجاحات أفرادها، فطالما أنّ الجماعة تحقق حاجات الفرد فبإمكانها أن تؤثر على أفكاره وسلوكه عن طريق انتماءه لها. (عيسوي، 1985، صفحة 29). ويرى «فروم» أنّ الإنسان تحكمه العديد من الحاجات مثل الحاجة الى الإنتماء والحاجة الى التجذّر والهوية الشخصية والحاجة الى إطار مرجعي توجيهي. (جابر، 1986، صفحة 328).

نظرية المقارنة الاجتماعية: نظرية «فستكر»:

#### FESTINGER THEORIE

افترض فستكر أن ما يدعى بنظرية المقارنة الاجتماعية يبدأ بمسألة وهي أنّ الناس لديهم دافع لتقييم آرائهم ومشاعرهم وقدراتهم من خلال مقارنتها إمّا بمعايير موضوعية (واقع مادي) أو بسلوك الآخرين (واقع اجتماعي) وطالما أنّ المعايير الموضوعية لسلوك غير متاحة وأنّ العالم الاجتماعي متخبط وغامض في أغلب الأحيان فإنّ النظرية تقرر أنّ الأفراد ليس أمامهم سوى استخدام سلوك الآخرين كمصدر للمعلومات وكمعيار للمقارنة ومن ثمّ فإنّ هذه النظرية تقدّم دافعاً آخر للإنتماء من حيث أنّه يتمثل في الحاجة الى تقييم



الذات، ذلك أنّ هذه المعلومات وغيرها من المقارنات تساعدنا في تقييم أنفسنا وتحديد خصائصنا البارزة أو المميّزة لنا وتمكننا من بناء هويتنا فنعرف هل أن أفكارنا وأحكامنا ووجهات نظرنا صحيحة وهل أنّ مشاعرنا مناسبة في وضع معين وهل نحن ننجز كما يجب أو هل أن انجازنا كان كما يجب وفي ذلك مؤشّر مهم لتشكيل الجماعة والانتماء لها، إذ إنّ مثل هذه المقارنات والمعلومات لا يمكن الحصول عليها إلّا من خلال وجودنا مع الآخرين وارتباطنا معهم. (SHOW, M & CONSTANZO, P, 1970, p. 222)

#### نظرية التكيف:

تتلخص هذه النظرية في فرضية أنّ الأفراد يتصرفون بشكل مختلف اتجاه الأحداث الجديدة التي تمر عليهم في حياتهم، وذلك اعتماداً على نمط شخصياتهم، وردود أفعالهم وأهدافهم في الحياة، ولكن نتيجة التعود والتأقلم مع الأحداث ومع مرور الوقت فإنهم يعودون الى النقطة الأساسية التي كانوا عليها من قبل وقوع الأحداث. (عربية، 2017-2018، صفحة 63). حيث أنّ الإنسان يعتبر أقوى إرادة كلما كان أكثر قدرة على التواءم مع متغيرات بيئته، فالتكيف الحقيقي هو ذلك التكيف الذي يسمح له بالنجاح في الموقف والذي يحقق ضماناً أكبر لاستمرار الوجود بل وإحراز التقدم في الحياة. (أسعد، 1999، صفحة 92)..

نظريات مفسرة لصورة الجسد:

نظرة دوركهائم: حسب تعبير «دوركهائم» الجسد «عامل الإنفرادية» وهو زمان ومكان الحدّ والإنعزال، لأنّ أزمة الشرعيات جعلت من العلاقات بالعالم ذات إشكالية. فالفاعل أصبح يبحث عن علاماته وإشاراتِهِ وهو حائر ويحاول أن ينتج إحساساً بالهوية، لكنه يلتطم ويتعثّر بالإنغلاق البدني الذي هو الموضوع الذي يمثله. لقد أصبح هذا الفاعل كلما ابتعد عن العالم وعن الآخرين يعير جسده أهمية فائقة. ولأنّ هذا الجسد بات محلاً للطبيعة والإختلاف الفردي، فإنه يفترض فيه شرف وميزة التصالح الممكن. ومن ثم أصبح الناس يبحثون عن السرّ المفقود للجسد، وبدلاً من أن يكون موضوع الجلاء يجب أن يصبح موضوع الإدماج، أو بالأحرى لن يكون الجسد قاطع التيار الذي يعزل الإنسان، بل أصبح ذلك الجامع الذي يجمعه مع الآخرين. (لوبروتون، 2014، صفحة 22)

نظرية فرويد: إنّ جسمنا هو صورة. وجسمنا قدرنا كما قال فرويد، فهو الذي يشكّل مظهرنا ومصيرنا النفسي والعقلي والغريزي.

(chirpaz, 1989, p. 102)

وتعتبر سيمون دي بوفوار أنّ الرجل يُعتبر جسمه كما لو كان كائنًا مستقلًا يتّصل مع العالم إتصالاً حرّاً خاضعاً لإرادته هو، بينما يعتبر جسم المرأة حافلاً بالقيود التي تعرقل حركة صاحبتها وتستشهد لذلك بقول لأفلاطون: «الأنثى هي أنثى، بسبب نقص في الصفات». وتضيف أنّ الإنسانية في عُرف الرجل شيء مذكّر فهو يعتبر نفسه يُمثّل الجنس الإنساني الحقيقي أما المرأة فهي في عُرفه تمثّل الجنس الآخر. (بوفوار، 1949، صفحة 6)

ثالثاً: الدراسات السابقة: كما أشرنا سابقاً الى أنّ مفهوم الرضا عن الحياة ومفهوم صورة الجسد هما من المفاهيم الشائعة الإستخدام في الدراسات النفسية والاجتماعية وذلك لكون المفهومين يحملان أبعاداً مهمة على صعيد التوافق النفسي، لذا تكثر الدراسات حولهما ونذكر من الدراسات التي تناولت مفهوم الرضا باللغة العربية مايلي:

الرضا عن الحياة وعلاقته بالوحدة النفسية. (علوان، 2007). الذكاء الوجداني وعلاقته بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعة. (مختار، 2013). مشكلات التقاعد لدى المسنين وأثرها على الرضا عن الحياة. (أحمد، 2009). الرضا عن الحياة لدى عينة من طلبة الجامعة في سورية وبريطانيا. (ميخائيل، 2013). المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى النساء المتزوجات المصابات باضطرابات الغدة الدرقية. (عربية، 2017-2018). المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعات الفلسطينية بمحافظات غزة. (شقورة، 2012).

ونختار بعض الدراسات للإطلاع على منهجيتها:

أولاً: دراسة يحيى شقورة بعنوان: «المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعات الفلسطينية بمحافظات غزة». (شقورة، 2012). تناولت هذه الدراسة متغير الرضا عن الحياة—وهو متغير دراستنا—من خلال العلاقة مع متغير المرونة النفسية. وسعت الى الكشف عن الفروقات في مستوى المرونة والرضا عن الحياة تبعاً لعدد من المتغيرات (الجنس، الجامعة، التخصص، المعدل التراكمي للطالب..). استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وتم تطبيق الإستبانة على عينة من الطلاب وتضمنت الإستبانة مقياس الرضا عن الحياة لمجدي دسوقي (وهو المقياس التي تم استخدامه في بحثنا). توصلت الدراسة الى نتائج عدة منها: —وجود علاقة إرتباطية موجبة بين المرونة النفسية والرضا عن الحياة.

ثانياً: دراسة جودي عريية بعنوان: «المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى النساء المتزوجات المصابات باضطرابات الغدة الدرقية». (عريية، 2018-2017). هدفت هذه الدراسة الى التعرف على المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى النساء المصابات باضطرابات الغدة الدرقية، كما هدفت الى التحقق من وجود علاقة ارتباطية بين المرونة النفسية والرضا عن الحياة. هنا أيضاً استخدمت الدراسة مقياس الرضا عن الحياة لمجدي دسوقي. بالإضافة الى مقياس المرونة النفسية. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي الإرتباطي ومن النتائج التي توصلت اليها: -عدم وجود علاقة ارتباطية بين المرونة النفسية والرضا عن الحياة لدى النساء المتزوجات المصابات باضطرابات الغدة الدرقية. ولايوجد فروقات في مستوى الرضا عن الحياة لدى هؤلاء النساء يُعزى لمتغير السن.

دراسة أجنبية حول الرضا عن الحياة لـ /

MONICA ARDELT

(WISDOM AND LIFE SATISFACTION IN OLD AGE. (ARDET, 1997).

الحقيقة أنّ العديد من الدراسات سلّطت الضوء على موضوع الشيخوخة وعلاقته بالعديد من المتغيرات النفسية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها ولكن نقدم هنا هذه الدراسة التي سلّطت الضوء هذه المرحلة المتقدمة التي يعتبرها البعض الفصل الأخير في الحياة معتبرة أنّ الشيخوخة ليست تجربة موحدة، حيث يحقق بعض كبار السن إحساساً بالرضا والإنجاز في مراحل العمر المتقدمة. أهمية هذه الدراسة أنها عالجت هذا الموضوع من خلال العلاقة مع متغير الرضا عن الحياة ومتغير الحكمة. مايميّز هذه الدراسة أيضاً هو نوعية العينة وهي عينة تتبعية مؤلفة من 82 امرأة و39 رجل تم استجوابهم عام 1968-1969 كجزء من دراسة تتبعية خلال 40 عام. في هذه المرحلة كانت أعمار المستجوبين ما بين 58 و82 سنة. تألفت العينة الأصلية فقط من عائلات بيضاء البشرة من بوركلي كاليفورنيا الذين اختبروا ولادة أطفال بين كانون الثاني 1928 وحزيران 1929 تم معالجة المعطيات الميدانية للرجال والنساء بشكل منفصل. لأنّ العينة ضمّت 39 ثنائي متزوج. (أفراد العينة اللذين ألفوا هذه العينة التتبعية كانوا في حالة صحية جيدة، ووضع إقتصادي جيد). وتضمن مقياس الرضا عن الحياة عدة مؤشرات. ورغم أنّ هذه الدراسة غنية جداً من حيث النتائج الا أننا سنذكر بعضها فقط: للحكمة تأثير إيجابي

قوي على الرضا عن الحياة لدى النساء. يرتبط مؤشر الحكمة ارتباط قوي مع الرضا عن الحياة لدى المتقدمين في العمر من النساء والرجال. مادّل على أنّ وجود الحكمة هو مصدر قوي للرضا عن الحياة بغض النظر عن ظروف المستجوبين. -يختلف تأثير ظروف الحياة الموضوعية مثل الصحة البدنية والوضع المالي وفقاً لنقاط الضعف والقوة التي لم تكن هي نفسها لدى جيل المستجوبين من النساء والرجال. كما يختلف التأثير النسبي للظروف الموضوعية المختلفة على الرضا عن الحياة بين الجنسين.

#### دراسات حول صورة الجسد:

دراسة هبة محمد خطاب بعنوان: «صورة الجسم وعلاقتها ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية لدى عينة من النساء البدينات في قطاع غزة (خطاب، 2014) هدفت الدراسة الى التعرف على العلاقة بين صورة الجسم ومتغيرات الدراسة النفسية والاجتماعية لدى عينة من النساء البدينات في قطاع غزة، وسعت للتعرف على نسبة انتشار كل من (القلق-الخجل-الإكتئاب) لدى أفراد العينة، إضافة الى الكشف عن مستتوى الرضا عن صورة الجسم والكفاءة الاجتماعية لدى النساء البدينات في قطاع غزة، ومعرفة مدى وجود فروق ذات دلالة إحصائية في صورة الجسم تُعزى للمتغيرات الديمغرافية التالية: (العمر- عدد سنوات الزواج- عدد الأبناء..). استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وتم اعتماد الإستبانة كأداة أساسية في البحث وفيها خمس أدوات قياس: قياس صورة الجسم-قياس القلق-قياس الخجل-قياس الإكتئاب وأخيراً قياس الكفاءة الاجتماعية. أظهرت الدراسة مجموعة كبيرة من النتائج منها: وجود قلق وخجل واكتئاب لدى افراد العينة. وجود علاقة عكسية دالة إحصائياً بين مقياس صورة الجسم وكتلة الجسم، فكلما زادت كتلة الجسم انخفض مستوى الرضا عن صورة الجسم. وكذلك علاقة عكسية بين مقياس صورة الجسم ووزن الجسم فكلما زاد وزن الجسم انخفض مستوى الرضا عن صورة الجسم. وجود علاقة طردية ذات دلالة إحصائية بين مقياس صورة الجسم والكفاءة الاجتماعية.

دراسة وفاء القاضي بعنوان: «قلق المستقبل وعلاقته بصورة الجسم ومفهوم الذات لدى حالات البتر بعد الحرب على غزة (القاضي، 2009). هدفت هذه الدراسة للتعرف على قلق المستقبل وعلاقته بصورة الجسم ومفهوم الذات لدى حالات البتر بعد الحرب على غزة وتأثير بعض المتغيرات (الجنس، الحالة الاجتماعية، مكان البتر، مدة الإصابة..).

اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. واعتمدت الإستبانة كأداة أساسية وتضمنت عدد من المقاييس: مقياس قلق المستقبل - مقياس مفهوم الذات ومقياس صورة الجسم). وهي مقاييس من إعداد الباحثة وطبقته على عينة عشوائية من 250 فرداً. وقد أظهرت الدراسة وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين قلق المستقبل وصورة الجسم لدى حالات البتر بعد الحرب على غزة. - وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين قلق المستقبل ومفهوم الذات لدى هذه الحالات. ولا وجود لفروق ذات دلالة إحصائية في مستوى قلق المستقبل تعزى لمتغيرات مثل (الجنس الحالة الاجتماعية - مدة الإصابة وغيرها).  
دراسة أجنبية حول صورة الجسد بعنوان:

IMAGE CORPORELLE ET ESTIME DE SOI; ETUDE AUPRES DE LYCEENS  
(FRANCAIS (DANY LIONEL ET MORIN MICHEL, 2010

اعتبرت الدراسة أنّ مشكلة البدانة والوزن الزائد تشكل اليوم أزمة حقيقية في فرنسا، لاتقتصر تداعياتها على المستوى الصحي فقط وإنما على المستوى الاجتماعي والنفسي أيضاً، ومع أنه يطال الشرائح العمرية المختلفة إلا أنه يشكل أزمة حقيقية لدى المراهقين. لذا هدفت الدراسة الى تناول العلاقة بين صورة الجسم وتقدير الذات لدى عينة من المراهقين في المدارس الفرنسية. كما هدفت الدراسة الى تحليل العلاقة بين الجسد المُدرك والجسد الحقيقي وتقدير الذات لدى هؤلاء المراهقين تبعاً لمتغير الجنس. اعتمدت الدراسة على أداة الإستبانة التي تم تطبيقها على 187 مستجوب (86 طالب و101 طالبة) من مدرستين مختلفتين. تضمنت الإستبانة مقياس تقدير الذات ل/روزنبرغ، بالإضافة الى اختبار تضمن مجموعة من الصور (لجسد المرأة وكذلك الرجل) حيث يختار المستجوب الصورة التي تشبهه والصورة التي يودّ أن يكون عليها. وأحتسب الفرق بين الجسد الحقيقي والجسد المرغوب به على أنه وحدة لقياس عدم الإكتفاء الجسدي. استُخدمت العمليات الإحصائية في تحليل المعطيات الميدانية. أظهرت النتائج أنّ أغلبية المستجوبين من الإناث والذكور إختاروا جسد مثالي بعيد عن جسدهم الحقيقي (60.5% من الذكور و69.3% من الإناث). أيضاً هناك علاقة موجبة بين الإكتفاء الجسدي وتقدير الذات. وعلاقة سالبة بين تقدير الذات وتصور الجسد الذاتي. (الجسد المُدرك).

وبالإشارة الى ما ذكرناه سابقاً حول قلة الدراسات التي تناولت مفهوم صورة الجسد ومفهوم الرضا عن الحياة نعرض فيما يلي دراسة أجنبية طرحت المفهومين من خلال

### العلاقة بينهما بعنوان:

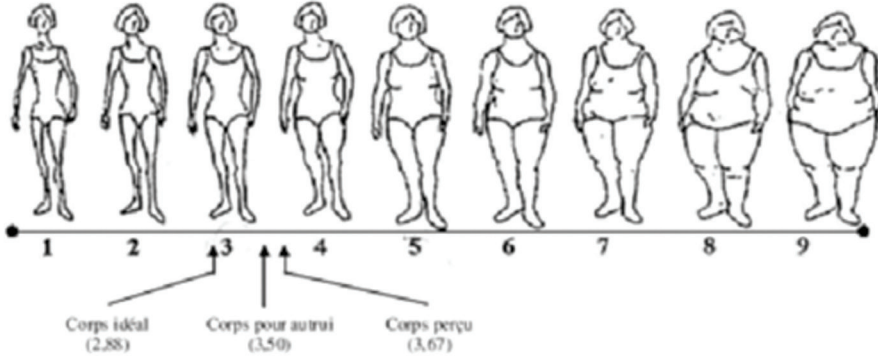
The role of body image in the prediction of life satisfaction and flourishing in men (and women). (LEANNE L, DAVIS&SAMANTHA A.FOWLER,LILLY.E.BOTH, 2020

تطرقت الدراسة الى موضوع النظرة السلبية والتقدير المتدني للجسد وعلاقته بالرضا عن الحياة، لدى النساء والرجال على حدّ سواء دون إغفال بعض من المتغيرات مثل سمات الشخصية. الدراسة في مندرجاتها تريد أن تؤكد أنّ هذا الإدراك الذاتي بمستوياته السلبية أو الإيجابية ربما يعتبر مؤشراً للإرتياح الذاتي. لهذا السبب أكدت الدراسة على أهمية السيطرة على الآثار لمنظومة الإدراكات هذه.

إنّ الدراسة افترضت أنّ عدم الرضا والتقدير المتدني لصورة الجسد مؤثر على مستوى الرضا عن الحياة. حيث حاولت التقليل من أهمية العمر وكتلة الجسد (مؤشر تمت دراسته في بحثنا هذا). لاختبار هذه الفرضية تم اختيار عينة عبر الانترنت مؤلفة من 112 من الذكور و336 من الإناث حيث تم تنفيذ استبانة مؤلفة من مقاييس الرضا عن الحياة، ومقياس تقدير الجسد. وبعد استخدام برنامج الرزمة الإحصائية ومن خلال عمليات التحليل الإحصائي ومنها الإنحدار المتعدد ، أظهرت الدراسة أنّ النساء لديهنّ مستوى منخفض من تقدير صورة الجسد وهذا ينعكس على صورة الذات ومستوى الرضا عن الحياة. لكن المقارنة في النتائج ما بين الجنسين لم تظهر ذلك الفارق المحسوس فأشارت الدراسة الى وجوب التعمّق بسمات الشخصية لما لديها من تأثير على مستوى الرضا عن الحياة وتقدير صورة الجسد. إنّ الباحثين ركّزوا على أنّ العلاقة ما بين عدم الرضا الجسدي كمؤشر لعدم الرضا عن الحياة لدى النساء بحاجة الى دراسات أكثر لأنّ حجم معامل الإرتباط لم يكن كبيراً.

### الجانب الميداني من الدراسة:

المقابلات: استخدمنا تقنية المقابلة المفتوحة بهدف ترك المجال للمستجوبات للتعبير عن أنفسهنّ حول موضوع صورة الجسد والرضا عن الحياة. وخلال المقابلة أيضاً تمّ استخدام مجموعة من الصور (وهي التي طبّقت في الدراسة الفرنسية المذكورة سابقاً في إطار الدراسات السابقة)، بهدف الوقوف على الفروقات بين الجسد الحقيقي والجسد المثالي. وبلغ عدد المقابلات ثلاث مقابلات. (ونجد في الرسم التوضيحي أدناه تقنية الصور المستخدمة).



وجاءت النتيجة على الشكل التالي:

أظهرت الحالة الأولى وهي في السابعة عشرة من العمر قلقاً كبيراً حول صورة الجسد لديها، فهي تعاني من مشكلة في الوزن خاصة أنها قصيرة القامة حيث يبلغ طولها 156 ووزنها 75 كيلو. وما زاد من قلقها هو أنها اتبعت حمية غذائية لعدة مرات وزارت العديد من الأخصائيين الغذائيين دون نتيجة. فهي تعتبر أنّ الطعام هو «فشة خلق» أمام ظروف عائلتها الإقتصادية الصعبة، وكذلك تعتبر أنّ الطعام هو أنيس وحدتها جراء عزلتها، لأنها لا تحب الآخرين ولا تريد أن تسمع آراءهم السيئة عنها. رغم أنّ عائلتها تحتضنها ولكن ظروف العائلة السيئة بسبب فقدان الأب عمله بعد الأحداث الأخيرة جعل الأمور في العائلة تزيد من حزنها، ماجعلها تفكر مرات عديدة بالإنحار. إذن هذه المراهقة تعيش حالة من عدم التوازن النفسي وسوداوية وأفكار إنتحارية بسبب صورة الجسد المُقلقة بالنسبة لها وكذلك التمرّ الذي تتعرض له من الآخرين بالإضافة الى الظروف العائلية الصعبة، كل ذلك جعل مستوى الرضا عن الحياة منخفض جداً لديها. أمّا فيما يخص تطبيق تقنية الصور مع المراهقة فقد إختارت صورة الأنثى الأكثر بدانة على أنها الصورة الأقرب الى صورة جسدها وعن الجسد المثالي فقد إختارت الجسد الأكثر نحافة مادلنا على وجود فارق كبير بين الجسد الحقيقي والجسد المرغوب به وما اكد لنا على وجود إشكالية في صورة الجسد لدى المراهقة انعكس على مستوى الرضا عن الحياة لديها.

أمّا الحالة الثانية وهي في الثلاثين من العمر متزوجة ولديها طفل واحد ولا تعمل ولكنها تتمتع بمستوى إقتصادي واجتماعي مرتفع. أظهرت المستجوبة أيضاً إشكالية حول صورة الجسد رغم أنّ مقاييس الجسد لديها تقترب من المقبول، حيث تبلغ من الطول 163 ووزنها هو 65، الا أنها تبدي قلقاً واضحاً حول صورة الجسد خاصة جراء التغيرات



النتيجة عن الولادة، وسعيها الى الجسد المثالي من خلال اتباع حمية غذائية بشكل دائم وممارسة الرياضة، ورغم ذلك هي ترى أنّ صورة الجسد لديها بعيدة عن الجسد المثالي \_ وهذا ما ظهر من خلال تقنية الصور حيث شبهت نفسها بصورة امرأة بدينة - وحول اختيار صورة ترغب أن تكون على مثالها اختارت صورة فتاة نحيلة جداً. حول الرضا عن صورة الجسد فيبدو واضحاً أنها غير راضية، أمّا حول الرضا عن الحياة فإنّ مؤشر الرضا مرتفع لديها ويعود ذلك الى شعور الأمومة الذي زيّن حياتها - على حد تعبيرها - بالإضافة الى الدعم من العائلة والزوج.

الحالة الثالثة هي في الخامسة والعشرين من العمر عزباء وتعمل في قطاع التعليم الخاص، خلفيتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية جيدة. لم تظهر أي إشكالية حول الجسد فهي راضية عن صورة الجسد لديها وتعتبر أن مقاييسها مثالية - رغم أنها ممتلئة على حد تعبيرها - حيث يبلغ طولها 168 ووزنها 70 كغ. الا أنها تشعر بالإرتياح مع جسدها ومع ذاتها فهي تتمتع بالرعاية من قبل العائلة وكذلك بالعلاقات الجيدة مع الجنس الآخر. وحول تقنية الصور اختارت صورة الجسد المثالي واعتبرت أن هذا هو جسدها . كما أكدت أنها تشعر بالرضا عن الحياة.

إذن يبدو واضح من الحالات الثلاث المعروضة أنّ إثنين منهما يعانين من إشكالية حول صورة الجسد، انعكست في الحالة الأولى على مستوى الرضا عن الحياة لديها، ما جعلها تفكر أحياناً بالإنتحار. أمّا الحالة الثانية فلم تؤثر إشكالية صورة الجسد على الرضا عن الحياة حيث لعبت عوامل عدة دوراً في جعل الرضا عن الحياة مرتفعاً منها الوضع الإقتصادي الجيد للزوج والدعم من العائلة. أمّا الحالة الثالثة فهي تعكس أهمية تلاشي الفروقات بين الجسد الحقيقي والمُدرك وعلاقة ذلك بالرضا عن الحياة. وهذا ما حاولنا التأكّد منه من خلال طرحنا لإشكالية العلاقة بين صورة الجسد والرضا عن الحياة لدى عينة من النساء اللبنانيات من خلال عمل ميداني نعرضه فيما يلي ونبدأ بوصف عينة البحث قبل الإنتقال الى القسم الإحصائي التحليلي الذي يؤكد أو ينفي وجود العلاقة بين المتغيرات وحجمها في حال وُجدت.

**أولاً: وصف عينة البحث:**

تألّفت العينة من 587 أنثى، تراوحت أعمارهنّ بين 16 و50 سنة. 54% منهنّ عازبات، و40.9% متزوجات ، 4.3% مطلقات و 0.9% أرامل. النسبة

الأكبر منهن لا يعملن وتحديدًا 51.4%. 25.6% يعملن في قطاع التعليم، و13.3% وظيفة والنسب القليلة الباقية توزعت على المهن الأخرى من تمريض وتعهّدات ومقاولات ومياومة وحرفة ...

أما من حيث المستوى المادي فتجد أنّ النسبة الأكبر وهي 59% وضعهنّ المادي وسط. و24.9% وضعهنّ جيد ، 12.8% وضعهنّ ضعيف ، و1.9% وضعهنّ جيد جداً وكذلك 1.4% وضعهنّ ضعيف جداً.

أما مستوى تعليمهن فجاء على الشكل التالي: 7.3% متوسط وثانوي . 65.4% من المستوى العلمي الجامعي و 27.3% دراسات عليا وما فوق.

حول النظرة الى الجسد: أوكيف تنظر المرأة لجسدها: تراوحت الإجابات بين نحيف جداً ونحيف، وسط، بدين وبدين جداً وجاءت النتيجة على الشكل التالي:

15% من المستجوبات ينظرن الى جسدهنّ الى أنه نحيف جداً، و20.1% ينظرن الى جسدهن على أنه نحيف، أمّا النسبة الأعلى من المستجوبات وهي 58.1% ينظرن الى جسدهنّ على أنه وسط، 17.5 بدين، و2.7% فقط بدين جداً. وحول نظرة الشباب والمحيط للمرأة نجد:

أنّ النسب الأعلى من الإجابات تركزت حول النظرة العادية والإيجابية الى إيجابية جداً. وحول الشعور بالمحبة في البيئة العائلية تركزت النسبة الأكبر من الإجابات حول أحياناً غالباً ودائماً. حول السيطرة الأبوية في البيئة الأسرية تمحورت النسبة الأعلى حول أحياناً يليها أبداً. حول وجود عنف أسري تمحورت النسب الأعلى حول عدم وجود عنف .

وبعد استخدام مقياس صورة الجسد وتحليل معطياته بدا واضحاً من خلال العينة أنّ لدى 40% من أفراد العينة نظرة مُرضية جداً ومُرضية، 50% مُرضية الى حدّ ما وهذا اتجاه سلبي الى حدّ ما ، و10% تقريباً لديهنّ نظرة غير مُرضية.

وبعد استخدام مقاييس الوزن والطول للمستجوبات واحتسابها من خلال مؤشر كتلة الجسم وهي أداة لتقييم الوزن الطبيعي أو زيادة الوزن ويتم احتسابه على الشكل التالي: وزن الجسم بالكيلوغرام/الطول بالمتّر مضروب بالطول بالمتّر ويكون احتساب الوزن على الشكل التالي:

أقل من 18.5 نحيل، بين 18.5 و24.9 جسد مثالي - بين 24.9 و29.9 - بين 29.9 و35.0 زائد. بين 30 و39.9 بدانة . و40 وأكثر بدانة مفرطة. وبعد إحتسابه على عينة البحث نلاحظ

عدم وجود بدانة مفرطة في العينة وجاءت النتيجة من خلال العينة على الشكل التالي: 6.3% من المستجوبات هنّ نحيلات، 53.2% لديهن جسد مثالي و 26.7% لديهن وزن زائد، 13.8% بدانة.

ثانياً: بعد هذا الوصف لواقع المجتمع الإحصائي موضوع الدراسة ننتقل الى تحليل العلاقات بين المتغيرات. إذن إحتوت الإستبانة كما ذكرنا سابقاً على مقياسين الأول وهو مقياس صورة الجسد من تأليف «روزين وآخرين» تعريب وتقنين دكتور مجدي محمد الدسوقي. ومقياس الرضا عن الحياة إعداد الدكتور مجدي دسوقي (1996)، وقد تم تنفيذهما على عينة تجريبية مؤلفة من 60 امرأة، وبعد التأكد من صدق المقياس حيث اقترب معامل ألفا كرونباخ من الواحد، تم تعميم الإستمارة.

معامل ألفا كرونباخ لمقياس صورة الجسد بلغ 0.781  
معامل ألفا كرونباخ لمقياس الرضا عن الحياة بلغ 0.931  
أ- الرضا وصورة الجسد:

#### Descriptive Statistics

Dependent Variable: رضى 1

| N   | Std. Deviation | Mean   | البدانة  |
|-----|----------------|--------|----------|
| 37  | 15.781         | 111.05 | نحيل     |
| 312 | 15.394         | 106.41 | مثالي    |
| 157 | 18.639         | 104.17 | وزن زائد |
| 81  | 19.908         | 99.86  | بدانة    |
| 587 | 17.170         | 105.20 | Total    |

نجد من خلال الجدول اعلاه أنّ معدل الرضا عن الحياة يرتفع مع الجسد النحيل والمثالي وينخفض مع البدانة والوزن الزائد.

#### Tests of Between-Subjects Effects

Dependent Variable: رضى 1

| Sig.  | F         | Mean Square | df  | Type III Sum of Squares | Source          |
|-------|-----------|-------------|-----|-------------------------|-----------------|
| .002  | 4.836     | 1398.207    | 3   | 4194.620*               | Corrected Model |
| 0.000 | 12553.125 | 3629619.947 | 1   | 3629619.947             | Intercept       |
| .002  | 4.836     | 1398.207    | 3   | 4194.620                | البدانة         |
|       |           | 289.141     | 583 | 168569.059              | Error           |
|       |           |             | 587 | 6669032.000             | Total           |
|       |           |             | 586 | 172763.680              | Corrected Total |

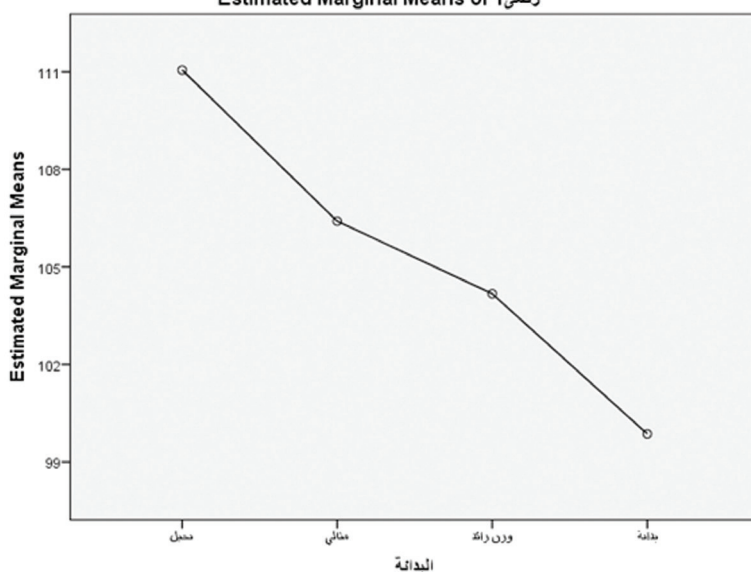
يبدو من خلال الجدول أعلاه -من خلال تحليل التباين- أنّ هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين المتغير التابع الرضا والمتغير المستقل صورة الجسد. حيث بلغت درجة الدلالة 0.002 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 ما يدلّ على أنّ العلاقة قوية بين المتغيرين.

Dependent Variable: رضـى1  
LSD

| 95% Confidence Interval |             | Sig. | Std. Error | Mean Difference (I-J) | البداية (I) |
|-------------------------|-------------|------|------------|-----------------------|-------------|
| Upper Bound             | Lower Bound |      |            |                       |             |
| 10.45                   | -1.16       | .117 | 2.957      | 4.65                  | نحيل مثالي  |
| 12.99                   | .78         | .027 | 3.107      | 6.88*                 | وزن زائد    |
| 17.82                   | 4.56        | .001 | 3.374      | 11.19*                | بدانة       |
| 1.16                    | -10.45      | .117 | 2.957      | -4.65                 | نحيل مثالي  |
| 5.50                    | -1.03       | .180 | 1.664      | 2.24                  | وزن زائد    |
| 10.71                   | 2.38        | .002 | 2.120      | 6.54*                 | بدانة       |
| -.78                    | -12.99      | .027 | 3.107      | -6.88*                | نحيل        |
| 1.03                    | -5.50       | .180 | 1.664      | -2.24                 | مثالي       |
| 8.88                    | -.26        | .065 | 2.326      | 4.31                  | بدانة       |
| -4.56                   | -17.82      | .001 | 3.374      | -11.19*               | نحيل        |
| -2.38                   | -10.71      | .002 | 2.120      | -6.54*                | مثالي       |
| .26                     | -8.88       | .065 | 2.326      | -4.31                 | وزن زائد    |

يدلنا جدول المقارنات المتعددة: أنّ هناك فروقات في مستوى الرضا عن الحياة مع جميع الفئات لصالح فئة النحيل والجسد المثالي. والرسم التوضيحي يظهر ذلك. حيث يرتفع مستوى الرضا مع فئة الجسد النحيل والمثالي.

Estimated Marginal Means of رضـى1



ب- سنعرض فيما يلي جدولاً للعلاقات الإحصائية الدالة بين مجموعة من المتغيرات لأنه لامتجال لعرض الجداول كلها.

| العلاقة بين المتغيرات                                                                                                | درجة الدلالة                                                                | الاتجاه العام                                                                                                                                                                                                     |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين نظرة المرأة الى جسدها ومستوى الرضا عن الحياة                                        | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة كلما نظرت لجسدها نظرة إيجابية على أنه نحيف جداً ونحيف وحتى وسط. وينخفض مستوى الرضا عندما تنظر المرأة الى جسدها على أنه بدين وبدين جداً.                                    |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين غنى بيئة المرأة العائلية بالمحبة والتعاطف ومستوى الرضا عن الحياة لديها              | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة كلما زادت وتيرة المحبة والتعاطف في البيئة العائلية للمرأة (يكون مستوى الرضا ضعيف عندما لا تشعر المرأة بالمحبة أبداً أو نادراً، ويرتفع مع شعور المرأة بالمحبة أحياناً وغالباً ودائماً) |
| هناك علاقة بين متغير العنف الأسري ومتغير الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية                                        | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة كلما خلت بيئة المرأة العائلية من العنف الأسري. (ينخفض معدل الرضا كلما كان اتجاه العنف الأسري أحياناً وغالباً ودائماً ويرتفع مستوى الرضا كلما كان اتجاه العنف الأسري نادراً وأبداً)    |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير السيطرة الأبوية في البيئة الأسرية ومتغير الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة كلما خلت بيئة المرأة العائلية من السيطرة الأبوية (يرتفع مستوى الرضا كلما كان اتجاه السيطرة الأبوية معدوم أبداً ونادراً وينخفض مع السيطرة الأبوية أحياناً وغالباً ودائماً).            |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير الوضع المادي للمرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها                              | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا كلما تحسن وضعها المادي (يضعف مستوى الرضا مع الوضع المادي الضعيف والضعيف جداً)                                                                                                                   |

|                                                                                          |                                                                             |                                                                                                                                                                        |
|------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير تعليم المرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها         | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية كلما ارتفع مستوى التعليم (وخاصة مع فئات التعليم الجامعي والدراسات العليا)                                             |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير نظرة الأهل للمرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها    | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية كلما كانت نظرة الأهل للمرأة إيجابية وإيجابية جداً وينخفض الرضا كلما اتجهت نظرة الأهل للمرأة الى السلبية والسلبية جداً |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير نظرة الأصدقاء للمرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية كلما كانت نظرة الأصدقاء لها إيجابية وإيجابية جداً وينخفض الرضا كلما اتجهت النظرة الى السلبية والسلبية جداً            |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير نظرة الأقارب للمرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها  | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية كلما كانت نظرة الأقارب لها إيجابية وإيجابية جداً وينخفض الرضا كلما اتجهت النظرة الى السلبية والسلبية جداً             |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير نظرة الشباب للمرأة ومتغير الرضا عن الحياة لديها   | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية كلما كانت نظرة الشباب لها إيجابية وإيجابية جداً وينخفض الرضا كلما اتجهت النظرة الى السلبية والسلبية جداً              |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير نظرة المرأة للشباب ومتغير الرضا عن الحياة لديها   | بلغت درجة الدلالة 0.00 وهي يجب أن تكون أدنى من 0.05 أي أن الدلالة قوية جداً | يرتفع مستوى الرضا كلما كانت نظرة المرأة للشباب إيجابية وإيجابية جداً وينخفض الرضا كلما اتجهت النظرة الى السلبية والسلبية جداً                                          |
| هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين وضع المرأة الاجتماعي ومعدل الرضا عن الحياة لديها        | بلغت درجة الدلالة 0.00 أي أن الدلالة قوية جداً                              | يرتفع مستوى الرضا مع المتزوجة يليها العزباء وينخفض لدى المطلقة والأرملة                                                                                                |



نتائج الدراسة وتحقق الفرضيات:

الفرضية الأساسية: هناك علاقة مابين بعض المتغيرات النفسية والإجتماعية والرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية

— هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين صورة الجسد ومستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية. فيرتفع معدل الرضا مع الجسد النحيل والمثالي وينخفض مع الوزن الزائد والبدانة.

هناك علاقة بين نظرة المرأة الى جسدها(الجسد المُدرك) ومعدل الرضا عن الحياة لدى المرأة اللبنانية. حيث يرتفع مستوى الرضا كلما كانت نظرة المرأة الى جسدها نظرة إيجابية ومُرضية.

الفرضيات الفرعية:

— هناك علاقة بين تعليم المرأة ومستواها المادي والرضا عن الحياة لديها.  
فكلما ارتفع الوضع الثقافي والمادي للمرأة ارتفع معدل الرضا عن الحياة لديها.  
— هناك علاقة بين المحيط العلائقي للمرأة والرضا عن الحياة لديها.  
هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين نظرة الأهل والاصدقاء والأقارب للمرأة ومعدل الرضا عن الحياة لديها. فكلما اتجه المحيط القريب والبعيد للمرأة نحو نظرة إيجابية لها ارتفع معدل الرضا عن الحياة لديها.  
هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين بيئة المرأة الحاضنة ومعدل الرضا عن الحياة لديها.

— هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين غنى البيئة العائلية للمرأة بالمحبة وخلوّها من التسلط الأبوي والعنف ومعدل الرضا عن الحياة لديها. حيث يرتفع معدل الرضا عن الحياة لديها مع كون البيئة العائلية للمرأة حاضنة لها وخالية من العنف والتسلط.

— هناك علاقة بين الوضع الاجتماعي للمرأة والرضا عن الحياة لديها.  
— هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين متغير الوضع الاجتماعي للمرأة ومعدل الرضا عن الحياة لديها : حيث يرتفع هذا المعدل لدى المرأة المتزوجة يليها المرأة العزباء وينخفض مع وضع المرأة المطلقة والأرملة(مع أنّ عددن في العينة قليل).

مناقشة النتائج والإستنتاجات:

لابدّ من مقارنة موضوع الجسد بعين الباحث السوسيولوجي والنفسي فهو يعكس—أي



الجسد - المُنجزات الإنسانية على الصعيد الاجتماعي والثقافي والعلائقي لذلك ننكر كل مايمكن أن ينكر على الجسد هذا البُعد الشخصي أويحبسه ضمن تمثيله التشريحي البيولوجي ومقاييسه الفزيولوجية الضيقة. وبالتالي يقف السوسيولوجي والنفسي بصفته يعيش في كنف المجتمع الذي يعرض وقائعه وعليه أن لايقف بخجل أمام النظرة الطبية التي تدعي امتلاك حقيقة الجسد أو النظرة البيولوجية التي تضع حدوداً جينية وراثية له. إذن ظُهر البحث الجسد بكل مدلولاته وإنعكاساته التي لا يمكن عدم التوقّف أمامها. فوجدنا أنفسنا أمام شمولية «الدال» أي الجسد، وتعميدات «الفاعل» أي المرأة التي لا تكف تعطي إشارات نفسية واجتماعية وبيولوجية وطبية حول الجسد. وبالتالي فإنّ نكران مدلولات الجسد يعرّض هوية المرأة البشرية للضياع. وعلينا كي لايحصل ذلك بدايةً كوكبة الأفعال الاجتماعية والثقافية والنفسية المتمحورة حول الجسد والتي تشكل عالماً من التحليلات التي لا نهاية لها.

حول الجديد الذي جاء به البحث فهو تلك العلاقة بين هذا «الدال» أي الجسد وبين مقياس الرضا عن الحياة ومجموعة من المتغيرات. فلا شك أنّ المرأة تسلك كذات إجتماعية في هذا المجتمع الذي تبحث فيه دوماً عن التقدير والذي تجمع منه عناصر تقديرها لذاتها. ولا شك أنّ حُسن استخدامها ل/ تقنيات الجسد يساعدها في تحصيل قدر أكبر من الرضا عن الحياة ويجعلها تبتعد عن أي مخاطرة كرؤية الجسد الممتلئ أو البدانة التي قد تُبعدها عن النماذج الساكنة في مخيلة الفكر الإنساني في عصر العولمة. ولا شك أيضاً أنّ مفهوم الرضا مفهوم شديد التعقيد ولا يمكن اختزاله الى عنصر أو عنصرين، وهذا ما بدا واضحاً من خلال عينة البحث حيث تضافرت عناصر عدة لترفع مستوى الرضا عن الحياة لدى المرأة منها تعليمها ووضعها الإقتصادي ومستوى العلاقات مع المحيط القريب والبعيد. فالمرأة بحاجة الى نظرة إيجابية من المحيط القريب والبعيد، كما أنها بحاجة الى أسلوب تربية بعيد عن القسوة والعنف ويتسم بالمحبة والإحتضان، كما أنها تحتاج الى أن تحقق نفسها من خلال العلم والعمل وتحقيق الإستقرار المادي، ومن خلال كل ذلك بناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تساعدها على رفع منسوب الرضا عن الحياة والذي قد يساعدها أحياناً على إدراكها لجسدها بشكل أفضل وردم تلك الهوة ما بين الجسد المُدرك (كما تراه المرأة)، والجسد الحقيقي. فقد رأينا نساء يصفن أنفسهنّ بالبدينات ويخترن صوراً للتعبير عن أنفسهنّ لا تشبهنّ في الواقع

ونساء في المقلب الآخر ساعدتهنّ عوامل حياتهنّ الأخرى من إحتضان عائلي وارتقاء في مستويات التعليم والعمل الى رؤية الجسد بصورة أفضل وبالتالي رفع منسوب الرضا عن الحياة وهنا تحديداً كانت إشكالية البحث .

أخيراً نقول أنّ الجسد «لغة» وكذلك العلاقات الإنسانية والفردية والرغبات والحاجات والإدراكات وأنّ معدل الرضا عن الحياة هو بمثابة مادة إنسانية وبشرية ضرورية تغذي الروح وأي نقص فيها ممكن أن يؤدي الى الرغبة بالتخلص من الحياة(كما رأينا في تحليل مضمون المقابلات). هذه المفاهيم التي طرحناها شكّلت عالماً— من الظلم بمكان— تقييده في مجال ضيق أو إختصاص مدّعي لامتلاك الحقيقة المطلقة. إنها بنية متكاملة تهل بالنفسي والاجتماعي والفزيولوجي والأنثروبولوجي وغير ذلك. لذلك ندعو في نهاية البحث الى فتح آفاق البحث على أبحاث جديدة تجيب عن التساؤلات التالية؟  
— كيف تستخدم المرأة اللبنانية العزباء والمتزوجة «تقنيات الجسد» لرفع معدل تقديرها لذاتها؟

— ماهي أبعاد صورة الجسد لدى المرأة المُصابة بسرطان الثدي؟  
— ماهو معدل الرضا عن الحياة لدى النساء المطلقات؟  
— أهمية الدعم النفسي—الاجتماعي في رفع معدل الرضا عن الحياة لدى النساء المتضررات من انفجار مرفأ بيروت في الرابع عشر من آب 2020؟

#### المراجع:

- إبراهيم فريد الدر(1998). الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان. القاهرة: مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع.
- أحمد محمد الزغبى. (2007). مدخل الى علم النفس . الرياض : مكتبة الراشد .
- أحمد محمد عبد الخالق. (2008). الرضا عن الحياة في المجتمع الكويتي. الكويت—المجلد الثامن عشر: دراسات نفسية.
- إيمان شعبان أحمد. (2009). مشكلات التقاعد لدى المسنين وأثرها على الرضا عن الحياة. مجلة بحوث التربية النوعية—جامعة المنصورة.
- جودي عربية. (2017—2018). . المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى النساء المتزوجات المصابات باضطرابات الغدة الدرقية. جامعة محمد بوضياف—المسيلة.
- جون سكوت. (2009). علم الاجتماع المفاهيم الأساسية. الشبكة العربية للأبحاث والنشر—ترجمة.

- حنان حسن محمود. (آبريل، 2017). مفهوم الذات الأكاديمية ومستوى الطموح الأكاديمي. خليل عبد الرحمان المعاينة. (2007). علم النفس الاجتماعي . عمان : دار الفكر.
- دافيد لوپروتون. (2014). سوسيولوجيا الجسد. روفد للنشر والتوزيع ترجمة عياد أبلال وادريس المحمدي.
- ريمون كيفي ولوك فان كمبنهود . (1997). دليل الباحث في العلوم الاجتماعية . المكتبة العصرية - تعريب يوسف الجباعي .
- سيمون دي بوفوار. (1949). الجنس الآخر .
- شوكت محمد. (1993). تقدير المراهق لذاته وعلاقته بلا اتجاهات الوالدية والعلاقات مع الأقران. مركز البحوث التربوية كلية التربية جامعة الملك سعود.
- طلعت منصور وآخرون. (2003). أسس علم النفس. القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية.
- عبد الحميد جابر جابر. (1986). نظريات الشخصية: البناء، الديناميات، النمو، طرق البحث. القاهرة: دار النهضة العربية.
- عبد الرحمن عيسوي. (1985). سيكولوجية الشباب العربي. القاهرة : دار المعرفة الجامعية.
- علي محمد الديب. (1988). العلاقة بين التوافق والرضا عن الحياة لدى المسنين وبين استمرارهم في العمل . مجلة علم النفس - العدد السادس.
- كمال دسوقي. (1988). ذخيرة علوم النفس المجلد الأول. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع.
- مايكل أرجايل. (1993). سيكولوجية السعادة. عالم المعرفة العدد 175 ترجمة فيصل عبد القادر يونس.
- مجدي محمد الدسوقي. (1998). مقياس الرضا عن الحياة: دليل التعليمات . جامعة المنوفية.
- مطانيوس ميخائيل. (2013). الرضا عن الحياة لدى عينة من طلبة الجامعة في سورية وبريطانيا. مجلة إتحاد الجامعات العربية للتربية وعلم النفس - المجلد 11 العدد الأول.
- مومية عزري. (2006-2007). ظروف العمل والرضا المهني للمعلم. الجزائر: جامعة منتوري قسنطينة.
- نجوى ابراهيم عبدالمنعم. (2010). الرضا عن الحياة. المؤتمر السنوي الخامس عشر. مركز الإرشاد النفسي - جامعة عين شمس.
- نعمات شعبان علوان. (2007). الرضا عن الحياة وعلاقته بالوحدة النفسية. . جامعة الأقصا - غزة فلسطين.
- هبة محمد خطاب. (2014). صورة الجسم وعلاقتها ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية لدى عينة من النساء البدينات في قطاع غزة. غزة: الجامعة الإسلامية في غزة.
- وحيد مصطفى كامل مختار. (2013). الذكاء الوجداني وعلاقته بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعة. جامعة بنها.
- وفاء محمد حميدان القاضي. (2009). قلق المستقبل وعلاقته بمفهوم الجسم ومفهوم الذات لدى حالات البتر بعد الحرب على غزة. - غزة: الجامعة الإسلامية .

وليم لامبرت وولاس لامبرت. (1993). علم النفس الاجتماعي. مكتبة أصول علم النفس الحديث - ترجمة سلوى الملا.  
يحيي عمر شعبان شقورة. (2012). المرونة النفسية وعلاقتها بالرضا عن الحياة لدى طلبة الجامعات الفلسطينية بمحافظات غزة. جامعة الأزهر - غزة.  
يوسف ميخائيل أسعد. (1999). قوة الإرادة. القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

ARDET, M. (1997). Wisdom and life satisfaction in old age . UNIVERSITY OF FLORIDA.

chirpaz, f. (1989). le corps.

DANY LIONEL ET MORIN MICHEL. (2010). image corporelle et estime de soi; etude aupres de lyceens francais . GROUPE D'ETUDES DE PSYCHOLOGIE NUMERO 509 .

MOSCONE, A. -L. (2013). TROUBLES DE L'IMAGE DU CORPS ET TROUBLES PSYCHOLOGIQUES ASSOCIES DANS L'ANOREXIE MENTALE. FRANCE: UNIVERSITE PARIS SUD.

SHOW, M & CONSTANZO, P. (1970). THEORIES OF SOCIAL PSYCHOLOGY . NEW YORK: MC GRAW-HILL, INC.

WHOQOL GROUP. (1998). WORLD HEALTH ORGANIZATION QUALITY OF LIFE ASSESSMENT: DEVELOPMENT AND GENERAL PSYCHOMETRIC PROPERTIES. SOCIAL SCIENCE AND MEDECINE.



## حياد لبنان: التحديات والفرص

أعمال ورشة التفكير والنقاش المنعقدة في 25 و 26 أيلول 2020

مجموعة من الباحثين

إشراف د. أدونيس العكره

# الخطاب الدعائي السياسي عن الأزمة الليبية الأخيرة أساليبه ومحتواه

مبارك حمد

مبارك الدسمة

مستخلص البحث:

استهدف البحث تعريف مفهوم الدعاية الإعلامية السياسية وأساليبها، من خلال تحليل الأزمة الليبية التي حدثت مؤخراً بتحول الصراع في ليبيا إلى طرفين: طرف تمثله حكومة السيد فايز السراج بدعم من تركيا، وطرف يمثله الجيش الليبي بقيادة السيد خليفة حفتر والسيد عقيلة صالح رئيس البرلمان. وتم إعداد استبانة عن المحتوى الدعائي عن الأزمة على قناتي الجزيرة والعربية، وتوصل البحث إلى مجموعة من الخصائص التي تميز بها الخطاب الدعائي على القناتين المذكورتين.

الإطار المنهجي للبحث:

أهمية البحث:

ليبيا دولة مهمة إستراتيجياً في الشمال الإفريقي؛ بحكم موقعها، وثرواتها النفطية الهائلة؛ إلا أنها بعد ثورات الربيع العربي، التي بدأت في عام 2011 ، شهدت عدم استقرار أوصولها إلى الانقسام إلى فريقين: فريق تمثله حكومة الوفاق، وفريق آخر يمثله الجيش الليبي والبرلمان الليبي المنتخب من الشعب. وهذه الأزمة الأخيرة قد أفرزت خطاباً دعائياً مغايراً لما كان قبل الأزمة، ومن ثم يحاول البحث تعرف أبرز ملامح الخطاب الدعائي بين طرفي الأزمة في ليبيا كما تعرضه قناتي الجزيرة والعربية.

مشكلة البحث:

تطلق مشكلة البحث من تساؤل رئيس هو: ما خصائص الخطاب الدعائي لطرفي الأزمة الليبية من الناحية الإعلامية، وما التقنيات المستخدمة فيه؟.

كبير مخرجين ومراقب  
الاتصال الفضائي  
بقطاع الأخبار والبرامج  
السياسية في تلفزيون  
دولة الكويت

ومن هذا المنطلق يمكن طرح التساؤلات الآتية:

- ما المقصود بالخطاب الدعائي السياسي؟
- ما الأساليب المتبعة في الخطاب الدعائي السياسي عن الأزمة الليبية؟
- أهداف البحث: يهدف البحث إلى تحليل مضامين الخطاب الدعائي عن الأزمة الليبية على قناتي العربية والجزيرة.
- عينة البحث:

من حيث مادة التحليل تم اختيار نشرة الأخبار الرئيسية في كل يوم على القناتين المذكورتين، وتم اختيار مجموعة من الخبراء والمتخصصين في مجال الإعلام الذين لهم علاقة بهذا الموضوع.

حدود البحث:

— الحدود الزمانية: شهر يونيو 2020

— الحدود المكانية: قناتا الجزيرة القطرية وقناة العربية.

— الحدود الموضوعية: الموضوعات التي تعلق بالأزمة الليبية على القناتين المذكورتين.

— الحدود البشرية: مجموعة من المحللين السياسيين المختصين بمتابعة الأزمة الليبية.

منهج البحث:

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي من خلال تحليل مضمون الخطاب الدعائي عن الأزمة الليبية على قناتي العربية والجزيرة.

### الإطار النظري للبحث

#### المحور الأول:

نظرا لأن الدعاية إحدى الوسائل القوية لكسب الناس والتأثير في اتجاهاتهم وآرائهم؛ فإن الباحث يتناول هذا المحور نشأة الدعاية الإعلامية ومفهومها وأساليبها، وفيما يلي عرض لكل ذلك.

#### مفهوم الدعاية الإعلامية السياسية:

اختلف الباحثون في تعريفهم للدعاية باختلاف العدسة التي ينظرون منها للدعاية، وهذه التعريفات هي:

الدعاية هي الجهود المقصودة التي يقوم بها الداعية لتوجيه أفعال المتلقين وأفكارهم نحو موضوع ما، باستخدام الكلمات والإيماءات والصور. (الدليمي 2010)

والدعاية هي المحاولة المقصودة التي يقوم بها فرد أو جماعة من أجل تشكيل اتجاهات



جماعات أخرى أو التحكم فيها أو تغييرها، وذلك عن طريق استخدام وسائل الاتصال. والهدف من ذلك أن يكون رد فعل أولئك الذين تعرضوا للدعاية هو نفسه رد الفعل الذي يرغبه رجل الدعاية. (أحمد بدر، 1974)

وهي المحاولة المقصودة التي يقوم بها فرد أو جماعة من أجل تشكيل اتجاهات جماعات أخرى أو التحكم فيها أو تغييرها عن طريق استخدام وسائل الاتصال. (calter) وعرفها عبد اللطيف حمزة (1968) بأنها: محاولة التأثير في الأفراد والجمهير، والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها، وذلك في مجتمع معين وزمان معين ولهدف معين.

ويعرفها فايز العساف (2012) بأنها: أسلوب ذكي لجذب المعنيين لمسألة أو فكرة أو توجه لتحقيق مصلحة تخص فئة أو فرداً أو جهة أو منتجاً دون غيره، وهذا الأسلوب ينتهج في كثير من الأحيان المبالغة والإيحاء وتركز على الجانب النفسي والسلوكي لدى الأفراد الموجهة لهم.

وهي الأساليب التي تستخدمها الحكومة أو الإدارة أو جماعة ما؛ بهدف التأثير في سلوك الجمهور وتغيير موقفه تجاه موضوع ما، والدعاية السياسية قد تكون استراتيجية تضع الخطوط العامة وقد تكون تكتيكية بغرض الحصول على نتائج فورية. (عبد اللطيف حمزة، 1984) ويعرفها الباحث بأنها: مجموعة من التقنيات والإستراتيجيات الإعلامية التي يستخدمها كل طرف من أطراف الأزمة الليبية؛ بغرض كسب تأييد الناس وتعاطفهم معه، والهجوم على الطرف الآخر وتهميشه والنيل منه.

#### الأساليب الفنية للدعاية السياسية:

الإعلام هو أداة السياسة، وهو القادر على التأثير في عقول الناس واتجاهاتهم، فهو أداة قوية للتأثير على عقول وسلوك الناس كأفراد أو مجموعات باستخدام اللغة والبلاغة والتأويل الكلامي.

وتتخذ الدعاية السياسية أساليب متنوعة، وهذه الأساليب هي:

#### التكرار:

يؤدي التكرار إلى تركيز المتلقي وجذب انتباهه نحو الموضوع الذي تم تكراره، فتكرار فقرات أو جمل معينة أو معلومات قد يؤدي إلى تصديقها، بصرف النظر عن صحتها أو عدم صحتها، فالتصديق ليس ناتجاً عن التأمل العقلي والتحليل المنطقي والتفكير النقدي بقدر ما هو ناتج عن تقنية التكرار.

والملاحظ في الأزمة الليبية أن تقنية التكرار واسعة الانتشار، ففناة العربية التي يبدو

أنها تدعم الجيش الليبي والبرلمان، تلج على تكرار المعلومة التي تدعم الجيش سواء من خلال مقابلة بعض الداعمين الغربيين الذين يرفضون الوجود التركي في ليبيا، أو من خلال إبراز دور مصر من الأزمة الليبية والتأكيد على موقفها الداعم. كما تكرر الجوانب السلبية المتعلقة بالطرف الآخر والمتمثلة في الصراع بين المرتزقة الذين يدافعون مع حكومة السراج، وكذلك إبراز علاقتهم بالإرهاب وخطورتهم على دول الجوار. وعلى الجانب الآخر تجد قناة الجزيرة تفعل الأمر نفسه مع الطرف الذي تدافع عنه. ومن ثم فالطرفان من خلال قنواتهما يصران على استخدام تقنية التكرار.

#### المبالغة:

أبسط تعريف للمبالغة هو وضع شيء أو حدث أو سلوك في غير حجمه الطبيعي، وهنا تتضمن المبالغة أمرين: المبالغة بالتقليل، والمبالغة بالتهويل. وهذه التقنية اتضحت، أيضاً، في الأزمة الليبية من خلال التقليل من الأشياء التي يمكن أن يحققها الطرف الآخر، فمؤخراً أفردت قناة العربية مساحة كبيرة لتدمير قاعدة الوطاية التركية، وأبرزت الأمر وكأنه نصر عسكري مهم، وعلى العكس لم ترقى قناة الجزيرة أن الأمر يعد انتصاراً للجيش، الأمر نفسه تكرر في زيارة القبائل الليبية إلى القاهرة. ومن ثم فالقناتان تمارسان المبالغة بالتضخيم والمبالغة بالتهميش في الوقت نفسه.

#### الاستشهاد بالمصادر:

وتعنى هذه التقنية أن وسيلة إعلامية ما حين تعرض خبراً أو شيئاً ما، فإنها تعرضه من خلال مصدره، فإذا أصدرت منظمة دولية تقريراً إيجابياً عن دولة ما، فإن الإعلام يحاول أن يتواصل مع أحد أفراد الجهة ليناقشه ويعرض الخبر من خلاله.

#### الارتباط بالكاذب:

وفيه يحاول المرسل أن يدفع المتلقي دفعاً نحو تكوين ارتباطات معينة غير صحيحة، من خلال استخدام عدد من المؤثرات تدفع المتلقي إلى تصديق ما يتم عرضه.

#### البساطة:

بمعنى أن تتصف الدعاية بأكبر قدر من البساطة في الصياغة والعرض؛ لأن التعقيد قد يؤدي إلى الملل والعزوف عن المتابعة. ( فايز عبد الله العساف ( 2012 )  
( عبد اللطيف حمزة، 1987 )

وأكدت دراسة فريدة فلاك ( 2016 ) أن من الأساليب الدعائية الفعالة أسلوب الترغيب في العمل بضرب الأمثلة؛ بمعنى أن يضرب رجل الدعاية الأمثلة بما جرى للشعوب الأخرى نتيجة الحروب والمقاطعات، فيذكرون مثلاً أن إندونيسيا استطاعت الانتصار على هولندا،

وأن الشعب الجزائري الأعزل استطاع الانتصار على فرنسا. ومن الأساليب أسلوب التركيز على الحالات النفسية، وذلك من خلال التركيز على مخاطبة العواطف والمشاعر أكثر من مخاطبة العقل، من خلال استخدام بعض الميكانيزمات كالتبرير والتعويض والإسقاط. كما أضافت أنه من الأساليب: أسلوب الاستعطاف، وذلك من أجل التأثير في نفوس الشعوب والحكومات من خلال استعطاف الآخر وبيان الضرر النفسي الذي تعرض له.

#### نشأة وتطور تاريخ الدعاية:

كان القدماء المصريين على دراية واسعة بفنون الدعاية والإعلان، وهذا ما اتضح من خلال استخدام طقوسهم وأعيادهم الدينية بوصفها وسيلة وأداة لإرهاب عدوهم؛ حيث كانوا يدونون أخبارهم على جدران المعابد لإظهار قوتهم وجبروتهم وتقويم الحكام والترويج لحكمهم. (فريدة فلاك، 2016)

وتدل آثار الحضارة اليونانية القديمة على أنهم كانوا يهتمون بالدعاية والإعلان اهتماماً كبيراً، من خلال تركيزهم على أساطيرهم وملاحمهم، وقد اهتم فلاسفة اليونان بالدعاية فكتاب أرسطو في الخطابة هو أول كتاب في الدعاية والاستمالة الخطابية، محددًا عناصر الموقف الاتصالي: المرسل والمتلقي والمادة. وفي العصور الإسلامية بدءاً من عصر صدر الإسلام مروراً بالعصر الأموي، وصولاً إلى العصر العباسي كان هناك اهتمام واضح بالدعاية بعامتها وبالأخص الدعاية السياسية التي كانت واضحة بشدة في العصرين الأموي والعباسي. ففي العصر الأموي كانت الخطابة تستخدم كأداة من أدوات الدعاية السياسية، فالأمويون استخدموا الدعاية السياسية لتثبيت أركان دولتهم ضد الزبيريين وغيرهم، والأمر نفسه تكرر في العصر العباسي والعصور التي تلتها. (السيد محمد الحسني 2006)

في أوروبا في العصور الوسطى استخدمت الدعاية لأغراض دينية؛ حيث ظلت جزءاً من نشاط المؤسسات الكاثوليكية التي كان من أهم واجباتها الدعاية من أجل الإيمان. ويمكن القول إن الدعاية كانت مرادفة للتبشير. (فريدة فلاك، 2016)

والدعاية بمعناها الحديث ظهرت في القرن الثامن عشر أثناء الثورة الأمريكية من خلال ترويج الإشاعات وغيرها، كما استخدم الفرنسي نابليون بونابرت الدعاية السياسية لتقوية الروح المعنوية بين الجنود الفرنسيين والترويج لأغراضه السياسية.

برزت الدعاية السياسية بوضوح في العصر الحديث، فقد أسست بريطانيا وزارة للدعاية، أخذت على عاتقها تحريض الشعب الأمريكي ضد الألمان وقد نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً، وفي الحرب العالمية الثانية احتلت الدعاية مكانة أكبر عما كانت عليه في الحرب العالمية

الأولى؛ حيث استخدمها كل طرف من طرفي الحرب. ويرى الألمان أن الدعاية هي العامل الحاسم في العمليات النفسية الحديثة، التي يمكن استخدامها لهزيمة العدو بأقل قدر من إراقة الدماء؛ حيث نسقت وزارة الدعاية الألمانية جميع نشاطات الدعاية، وسيطرت على كل أوجه الحياة الاجتماعية مبلورة الرأي العام المطلوب في ألمانيا وخارجها، كما قامت وسائل الإعلام الألمانية بوصف آلة الحرب الألمانية بأنها لا تقهر. (أحمد طاهر، 1983) ومن ثم يتضح أن الدعاية لم تكن وليدة العصر الحالي، بل لها جذور عميقة في التاريخ، بدءاً من العصور القديمة، ألا أنها مع الحرب العالمية الثانية قد بدأت في التطور إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن من تطور .

#### صور الدعاية السياسية:

##### أ-الدعاية البيضاء:

هي الدعاية الواضحة التي يمكن الدفاع عن مضمونها بحجج قوية مقنعة، فهي تقوم على أساس الحق والحرية والمبادئ الإنسانية، وتسمى هذه الدعاية بالدعاية المكشوفة أو الدعاية المباشرة.

##### ب-الدعاية الرمادية:

هي دعاية مقنعة وموجهة وهي في خطابها وعناصرها تخفي أموراً غير المعلنة، وليس من السهل الوقوف على غايتها الحقيقية.

##### ج-الدعاية السوداء:

هي دعاية خفية تقترب من الإشاعات مجهولة المصدر، وتقوم بهذه الدعاية أجهزة المخابرات والعلماء السريون، وتسمى بالدعاية المستورة أو الدعاية غير المباشرة. (عبد اللطيف حمزة ، 1984 )

#### المحور الثاني: الخطاب الدعائي:

##### - مفهوم الخطاب الدعائي:

الخطاب أحد مرتكزات العمل الإعلامي، حيث يعتمد على اللغة اعتماداً كبيراً؛ من خلال التركيز على الجوانب البلاغية، والجوانب التي تؤثر في المتلقي. والخطاب الدعائي عمل مدروس يعتمد على سلم من الأولويات والقيم التي تحكمه، ودراسة الخطاب الدعائي لجهة ما يعتمد على طبيعة هذه الجهة، من حيث أفكارها وأهدافها . وهو أسلوب تواصل لغوي يفهم بوصفه تعاملاً أو صفقة بين المتكلم والسامع، ونشاطاً شخصياً تحدد شكله ومقاصده الاجتماعية. ( سارة ميلز، 2012 )

والخطاب الدعائي يضع تصورا للواقع، ويمثله على الصعيد العقلي في نظام من المفاهيم، فهو يقع في أكثر المواقع حساسية، ومن ثم فالخطاب الدعائي هو عملية تقنيع الواقع وتصوره وفق إدراك مسبق لما يجب أن يكون. ( بسام مشاقبة، 2010 )

وهو، أيضاً، نظام مركب من عدد من الأنظمة التوجيهية والدلالية والتركيبية والوظيفية التي تتوازي وتتقاطع جزئياً أو كلياً فيما بينها. (محمد حجاب، 2004 )  
فالخطاب الدعائي يعمل على إعادة تشكيل الوعي من خلال إنتاج الأفكار وتوليد المعاني الضرورية تجاه القضايا التي يتبناها، وبذلك يمتاز الخطاب بنظرة تفسيرية اجتماعية، مع محاولة استكشاف العلاقات بين النص والخطاب والسياق.

#### مكونات الخطاب الدعائي:

يتكون الخطاب من:

- 1- اللغة: يتجسد الخطاب باللغة في مستوياته كافة، والكلمات جزء من نظام اللغة، وتحيل كل كلمة لمدلول معين مع وجود البعض منها في المعجم الذهني عبر ارتباطه بمدلول ثابت، والبعض الآخر من المعاني يتحقق من سياق الخطاب.
- 2- الإيماء: ويعمل استخدامها على تغييب الكلمات الملفوطة، وإحلال معان محلها، وهو أداة للربط بين الفكرة والصورة الصوتية، فاستخدام الإشارة الجسدية، فضلاً عن العلامات الصوتية يجعل الخطاب أو الرسالة مخاطبة لأكثر من حاسة.
- 3- الأداء الصوتي: لابد أن لكل فعل حركي أداءً معيناً، وللکلمة أداء صوتي من علو وانخفاض وعلامات تردد وصمت في أثناء الكلام يحمل في طياته معاني متنوعة. ( الربيعي، 2015 )

#### خصائص الخطاب الدعائي:

يرى طراد محمد ( 2010 ) أن الخطاب الدعائي يستند إلى: تشوية الحقائق: وذلك من خلال توظيف كافة الوسائط المكتوبة والمسموعة والمرئية. والتعتيم: وذلك من خلال فرض جدار من الصمت حول بعض القضايا، والتحريض: وهو عملية غسيل دماغ للرأي العام، ودفعه نحو تبني فكرة معينة والدفاع عنها.  
ويمكن القول إن الخطاب الدعائي لكل طرف من أطراف الأزمة الليبية هو خطاب غائي يركز على وجهة نظر واحدة، ويهمل وجهات النظر الأخرى.

## الجانب الميداني للدراسة

أعد الباحث استبانة ببعض البنود التي يمكن من خلالها تحليل المحتوى الإعلامي بقناتي الجزيرة العربية فيما يتعلق بالأزمة الليبية، والهدف من هذه الاستبانة تحليل الأداء الإعلامي للقناتين فيما يتعلق بالأزمة الليبية، وتحديد الأساليب المتبعة في القناتين لإدارة الأزمة، وللتحقق من صدق الاستبانة تم عرضها على المحكمين المتخصصين في دراسة الإعلام، وأجرى التعديلات التي اقترحها السادة المحكمون، وجاءت الاستبانة في صورتها النهائية على النحو الآتي:

| الاستبانة |       |       | البند                                                                                  |
|-----------|-------|-------|----------------------------------------------------------------------------------------|
| أرفض      | محايد | أوافق | تكرر كل قناة بعض المواد الإعلامية الإيجابية عن الفريق الذي تدافع عنه.                  |
|           |       |       | تعرض كل قناة موبدة لأحد طرفي الأزمة بعض المواد الإعلامية التي تلتقص من الطرف الآخر.    |
|           |       |       | تضخم كل قناة في إنجازات الفريق التي تدافع عنه.                                         |
|           |       |       | تمارس كل قناة التشويش على إنجازات أو أي أخبار إيجابية عن الفريق التي تدافع عنه         |
|           |       |       | يبدو أن بعض القنوات العالمية لا تمارس عملها الإعلامي بحياد فيما يتعلق بالأزمة الليبية. |
|           |       |       | تمارس كل قناة تقنية الاستعانة بالمصادر العالمية في دعم وجهة نظر الفريق التي تدافع عنه  |
|           |       |       | لا تعرض القناة المؤيدة لطرف أي شيء إيجابي عن الطرف الآخر.                              |
|           |       |       | الخطاب الدعائي في القناتين خطاب دعائي استعظافي.                                        |

## نتائج الدراسة

بالنسبة للسؤال الأول للبحث ونصه: ما المقصود بالخطاب الدعائي السياسي؟ قام الباحث بعرض التعريفات المختلفة للخطاب الدعائي وهو في هذا البحث: مجموعة من الجمل والمفردات المنطوقة والمكتوبة التي تعرض على قناتي الجزيرة والعربية حول طرفي الأزمة الليبية.

بالنسبة للسؤال الثاني للبحث ونصه: ما الأساليب المتبعة في الخطاب الدعائي السياسي عن الأزمة الليبية؟ قام الباحث بتطبيق الاستبانة الآتية:

| البند                                                                                  | نسبة الموافقة |
|----------------------------------------------------------------------------------------|---------------|
| تكرر كل قناة بعض المواد الإعلامية الإيجابية عن الفريق الذي تدافع عنه.                  | 93.3 %        |
| تعرض كل قناة مؤيدة لأحد طرفي الأزمة بعض المواد الإعلامية التي تنتقص من الطرف الآخر.    | 80 %          |
| تضخم كل قناة في إنجازات الفريق التي تدافع عنه.                                         | 90 %          |
| تمارس كل قناة التشويش على إنجازات أو أي أخبار إيجابية عن الفريق التي تدافع عنه         | 96.6 %        |
| يبدو أن بعض القنوات العالمية لا تمارس عملها الإعلامي بحياد فيما يتعلق بالأزمة الليبية. | 83.3 %        |
| تمارس كل قناة تقنية الاستعانة بالمصادر العالمية في دعم وجهة نظر الفريق التي تدافع عنه  | 93.3 %        |
| لا تعرض القناة المؤيدة لطرف أي شيء إيجابي عن الطرف الآخر.                              | 96.6 %        |
| الخطاب الدعائي في الفئتين خطاب دعائي استعطاقي.                                         | 93.3 %        |



يتضح من النتائج ما يلي:

1- كل قناة تركز على إبراز الجوانب الإيجابية التي تحدث للطرف الذي تويده، وحاولت أن توحى للمشاهد أنها تدعم رأيها بأراء بعض المتخصصين أو بعض المصادر متى أمكن لها ذلك.

2- كل قناة أغفلت الجوانب الإيجابية للطرف الآخر.

3- كل قناة تجاهلت التقارير السلبية التي تتحدث عن الطرف الذي تتبنى وجهة نظره.

4- اعتمدت القنوات الرئيسة لكل طرف من طرفي الأزمة على البعد عن الإعلام الحر، والتركيز على أن يكون الإعلام بيد السلطة، وأن السلطة السياسية لكلا الدولتين هي المتحكمة في المحتوى المنشور عن الأزمة.

5- يحاول الإعلام في كل طرف البحث عن أخطاء الطرف الآخر وتضخيمها وإفراد مساحة واسعة للحديث عنها.

6- يحاول الإعلام في كل طرف التركيز عن الأخبار السلبية المتعلقة بالطرف الآخر وإفراد مساحات واسعة للحديث عنها.

7- يحاول الخطاب الدعائي لكل طرف من طرفي الأزمة أن يرسم صورة إيجابية عن الطرف الذي يبنى وجهة نظره.

8- يحاول الخطاب الدعائي لكل طرف من طرفي الأزمة أن يرسم صورة سلبية عن الطرف الآخر عن الطرف الذي يبنى وجهة نظره.

9- كثير من الضيوف الذين تستضيفهم كل قناة لهم مواقف سياسية معروفة بالانحياز لأحد طرفي الأزمة.

التوصيات والمقترحات:

1- التوصيات:

- الاهتمام بالخطابات الدعائية وتحليل مضامينها.

- زيادة الوعي بخطورة الخطاب الدعائي السياسي.

- تثقيف المواطنين وتحسينهم ضد الخطابات الدعائية العدائية.

- تنمية مهارات التحليل النقدي للخطاب الدعائي لدى طلاب الجامعة في كل التخصصات.

- تنمية الوعي القومي والفكري في نفوس الطلاب منذ الصغر.

2- المقترحات:

- تحليل الخطاب الدعائي السياسي للأزمة الخليجية في ضوء نظرية الحتمية القيمية.

- تقويم الخطاب الدعائي السياسي الأمريكي ضد الصين في أزمة كورونا.
- تحليل الخطاب الدعائي في الانتخابات العضوية لمجلس الأمة.
- تحليل الخطاب الإعلامي العربي في موضوع الانتخابات الأمريكية الأخيرة.

#### مراجع الدراسة:

- 1- أحمد بدر ( 1974 ): الاتصال بالجمهير والدعاية الدولية، الكويت، دار القلم.
- 2- أحمد طاهر ( 1983 ) الإعلام الدولي، القاهرة، دار المعارف.
- 3- بسام مشاقبة ( 2010 ) مناهج البحث الإعلامي تحليل الخطاب، عمان، دار أسامة.
- 4-سارة ميلز ( 2012 ) الخطاب، ترجمة غريب اسكندر، بيروت ، دار الكتب العلمية.
- 5-السيد محمد الحسيني ( 2006 ) الرأي العام والإعلام، بيروت، مكتبة دار العلوم.
- 6- طراد حمادة ( 2010 ) الخطاب الإعلامي منهج وتطبيق ( بيروت، دار المحجة البيضاء)
- 7- عبد الرزاق الدليمي ( 2011 ) مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال، الأردن، دار الثقافة.
- 8- عبد اللطيف حمزة ( 1987 ) الإعلام والدعاية، ط4، الجزائر، الناشر المؤلف نفسه.
- 9- فايز عبد الله العساف ( 2012 ): أساليب الإدارة المتقدمة للدعاية الإعلامية الدولية ، مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، العدد التاسع والعشرون .
- 10- فريدة فلاك ( 2016 ) دور الدعاية الإعلامية الغربية في تشويه صورة الإسلام وقيمه، دراسة استطلاعية في ضوء نظرية الحتمية القيمية في الإعلام على عينة من أساتذة جامعة المسيلة، رسالة ماجستير، جامعة محمد بوضياف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- 11-محمد منير حجاب( 2004 ) المعجم الإعلامي، القاهرة، دار الفجر.
- 12- مى العبد الله ( 2006 ) الدعاية وأساليب الإقناع، بيروت، دار النهضة العربية.
- 13-ولاء محمد الربيعي( 2015 ) الخطاب الدعائي الأمريكي إزاء الشرق الأوسط( عمان - دار غيداء)
- 14-يسرى خالد إبراهيم ولاء محمد على ( 2017 ) مضامين الخطاب الدعائي الروسي إزاء المنطقة العربية ( دراسة تحليلية لخطابات الساسة الروس في قناة روسيا اليوم للمدة من -6-1-7-30 / 2017 كلية الإعلام، جامعة بغداد.

#### المراجع الأجنبية

- 15-Calter , Terence H (1962), propaganda and psychological warfare , New York-Random House Inc.
- 16-Merton R. ( 1949 ) social theory and social structure ( glences the free press )

# لبنان وصيف الدم

1958

وثائق التنصت على الهاتف

إعداد وتقديم  
أحمد أصفهاني



# أراء في الوحدة الريماوي وعصمت سيف الدولة نموذجاً

عبدالله نجم

طالب دكتوراه/

علم اجتماع التنمية/

الجامعة اللبنانية

شغلت فكرة بناء الوحدة العربية حيّزاً مهماً في حياة الأمة، وأخذت الكثير من اهتمام مفكرها، فقضية الوحدة العربية والطريق الى تحقيقها، كانت من أهم الموضوعات الفكرية والسياسية التي عمل عليها مفكرون، ولكن الواقع السياسي والاجتماعي القائم على وجود دول قائمة بذاتها، كان العقبة الأساسية لإيجاد الطرح القادر على بناء الوحدة في ظلّ التجزئة التي أوجدها الواقع الإستعماريّ ووجود أشكال الدولة الحديثة التابعة للبلدان الأوروبية الاستعمارية.

شهدت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية استقلالات لأشكال الدولة الحديثة في العالم العربي، بفضل نضالات أبنائها من جهة، ونتيجة التنافس بين الدول الإستعمارية من جهة أخرى، ولم تراع هذه الأشكال في الدولة الحديثة تطّعات أبنائها القومية للوحدة. وأصبحت هناك حدود إقليمية بينها معترف بها دولياً، ولكن هذه الحدود لم تتطابق مع الواقع الذي كان سائداً تحت لواء السلطنة العثمانية التي فتتها الاستعمار بعد الحرب الأولى إلى دويلات وأقطار، فضرِب ذلك وحدة الأمة العربية. هذا الواقع دفع العديد من المفكرين العرب للبحث عن صيغ لإيجاد دولة عربية قومية واحدة، فطرحوا الكثير من النظريات لتحقيق هذا الهدف، منها إنشاء حزب سياسي واحد يحقق الوحدة، والدعوة الى التكامل السياسي والإقتصادي، وتطوير دور مؤسسات الجامعة العربية ومنها الحفاظ على وحدة الأقطار الداخلية والعمل على تكامل الوطنيات وغيرها من الأفكار.

المشكلة الأساسية، عند المفكرين، التي حاولوا حلّها: هي الوحدة العربيّة والطريق إلى تحقيقها في ظل التجزئة، ووجود دول قائمة ، فكيف يمكن تحقيق الوحدة العربية بوجود هذا الواقع ؟

سوف نتابع هذا الموضوع من خلال عرض ومناقشة أراء بعض المفكرين والأحزاب الذين عالجوا هذه المسألة .

أولاً: الدكتور عبد الله الريماوي: وقد ركّز على أهمية تأسيس الحركة العربيّة الواحدة على مستوى الأمة والتي يجب أن تسعى بدورها لإيجاد أدواتها الثوريّة لتحقيق الوحدة وحدّد الأداة ببناء التنظيم القوميّ الثوريّ ، محدّداً ساحة عملها وعلاقاتها ضمن هذه الساحة . كما تحدّث في كتابه «الحركة العربيّة الواحدة» بإسهاب عن كيفة تحقيق الوحدة العربية وأداتها التنظيم القوميّ العربيّ. واعتبر أنّ الحركة العربيّة الواحدة هي شرط ضروريّ لتحقيق الوحدة ، وهنا اعتبر أنّ هناك صيغتان لقيام الحركة العربيّة الواحدة: صيغة تستند إلى أنّ قيام الحركة فكرة مقبولة عند الجميع ومتفق عليها، ولكنّ الخلاف يكمن حول الأسلوب الذي ستقوم عليه . والصيغة الثانية: ترى أنّ الفكرة مقبولة ومحبة، والدعوة إليها ضروريّة، والمهم أن تبدأ وأن تنطلق كيفما تمّ لها ذلك ، وبعد قيامها ونموّها ستصلح، وتعالج أي خطأ، فيقول: ” إنّ قيام الحركة العربيّة الواحدة شرط ضروريّ تستكمل به الثورة العربيّة ثورة الجماهير العربيّة العاملة حول طليعتها الصادقة «1».

فيرى « ان الحركة العربيّة الواحدة من حيث هي سير المدّ القوميّ قدماً لإقامة التنظيم القوميّ الثوريّ ذو الوجود الماديّ المحدّد. ”2

وحول مفهوم الوحدة في الحركة العربية الواحدة يقول: « إنّ مفهوم الوحدة في الحركة العربيّة الواحدة مفهوم ثوري عقائديّ وجماهيريّ وقياديّ ” 3

هنا نرى أنّ الكاتب أكد ضرورة قيام الحركة الثوريّة العربيّة الواحدة التي من واجبها إيجاد التنظيم القوميّ كأداة للحركة، لتحقيق الوحدة العربية ، ولكنّه لم يوضح كيفة قيام هذه الحركة ومن سيوجدها ، فإذا كانت الجماهير العربيّة هي المسؤولة عن إيجادها فما هي الكيفية لذلك ؟ وبالتالي من سيوجد هذه الحركة بصفة الأداة الثوريّة المنظمة التي تستطيع أن تحرّك كلّ الإمكانات المتوافرة عند قيادتها وعناصرها؟ بقي هذا السؤال بلا إجابة . أليس من المنطقي إيجاد التنظيم القوميّ أولاً لتنظيم الجماهير وتعبئتها لتشكيل الحركة الثوريّة العربيّة الواحدة ؟

أمّا الدعوة إلى قيام الحركة العربيّة التي تصنع الوحدة كيفما قامت وبعد قيامها ستزيل

كل الأخطار والشوائب التي سترافقها ، فكيف لعمل يؤسس لوحدة أمّة مزّقتها الإستعمار، وما زال يترّبّص بها ، أن يقوم دون ثوابت وأسس واضحة وبوجود أداة منظمة قادرة على مواجهة التحديات وتحقيق الوحدة عبد الله الريماوي ،

ثانياً الدكتور عصمت سيف الدولة: وقد أولى إيجاد التنظيم القومي أهميّة خاصّة باعتباره أداة تحرّر الأمّة ووحدها، وحدّد كفيّة بناء التنظيم، وساحة عمله، وعلاقته بالقوى الأخرى وقيادته . كما ربط بين معركة التحرر العربي بوجود التنظيم القومي، فقال: ” إنّ مصير معركة التحرّر العربيّة متوقّف على التنظيم القومي؛ والتنظيم القوميّ التقدمي هو بداية الطريق إلى دولة الوحدة والإشتركية والديمقراطية، ولا بدّ من وجود تنظيم قوميّ يوزّع المسؤوليّات والأدوار على المناضلين. ” 4“ و يرى أنّ الوحدة هي «الحلّ المتفق عليه للتناقض بين الوحدة والوجود القوميّ والتعدّد الإقليميّ السياسيّ فإنّ الذي يستهدفهما ثم يختلفون في الطريق إليها ، لا بد ان يكونوا باحثين عن منطقتين متناقضتين المنطق القومي والمنطق الإقليمي“ 5“. فالثورة هي الطريق لحلّ مشكلة التجزئة وتحقيق التغيير. ” إنّ المشكلة التي يريد الوحدويّون حلها هي التجزئة. فتقسيم وطنهم الواحد الى دول عدة حلّه إلغاء التجزئة بالوحدة السياسية للوطن العربي 6“ . وحول أداة الثورة للوصول الى الوحدة يقول: « في مثل بساطة واحد زائد واحد يساوي اثنين تصبح وحدة الأداة الثورية بديهية بسيطة بعد كل ما قلناه أمّة واحدة ،مصير واحد، عقيدة واحدة، مضمون ثوري واحد، وساحة نضال واحدة، وخصائص واحدة، تميز الثوريين ، كل هذا يحتمّ أن تكون للثورة العربية أداة واحدة، هذا اذا لم يكونوا يبحثون عن الطريق للفشل وليس عن الطريق الى الوحدة 7“

فالوحدة تتحقق من خلال تنظيم واحد، بقيادة واحدة تضع استراتيجية الثورة، وتكتيك واحد يتفق مع غايات الوحدة. بهذا تستطيع الطليعة العربية الثورية الانتصار على التجزئة. فالتنظيم القوميّ العربيّ الواحد بقيادة عربيّة واحدة من يحقق هذا، وللطليعة العربية دور في إيجاد التنظيم القومي والاستقطاب له . فالحزب يبلور الأمّة الموحدة ويجسدها » اذا كان الحزب هو الأمّة العربيّة مبلورة فهو حزب قوميّ ، وان تمتدّ قواعده إلى أكثر من إقليم ، وان كان الحزب هو الدولة الإقليمية المصغّرة فهو حزب إقليميّ وان امتدّت قواعده الى كل الأقاليم. ” 8 « هنا ربط وجود الأمّة بوجود الحزب القوميّ.

ورداً على سؤال: لماذا الحزب القومي هو الأداة لتحقيق الوحدة، يجيب: « إنّ الحركات والأحزاب الإقليمية التي تهدف إقامة دولة الوحدة الديمقراطية الاشتراكيّة ، لا تستطيع



الوصول لتحقيق الوحدة لأنه لا يوجد لها امتداد خارج إطارها الإقليميّ تستطيع تحريكه، فلا تستطيع أن تنفذ استراتيجيتها للوحدة القومية، فهي أدوات قاصرة. "9" ويعيد فشل تجربة الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958 لوجود الفكر الإقليميّ عند البعث . وعن قيادة التنظيم يعتبر أنّ المهم فيها أن تحتفظ بسماتها العربيّة في كلّ الظروف، ومهما كانت طبيعة النضال الذي تخوضه ، بعد هذا ليس من المهم أن تغطّي كلّ الأقاليم تنظيمياً فتلك إحدى غاياتها ولكن شرطاً وجودياً ، وليس من المهم أن تمثل تنظيمياً الشعب العربيّ في كل إقليم . ويضيف: " ذلك لأن التمثيل الإقليمي قد يضمن قبولاً للتجزئة، ولا بدّ أن يحمل معه الى قلب التنظيم جرائم الإقليميّة فتفتك به من الداخل. وإذا كان الحصر الإقليمي قد يقضي بأن تكون للطليعة العربية فروع في كلّ إقليم، فيجب ان تظلّ القيادة دائماً مطهرة من الإقليميّة التي قد يعبر عنها التمثيل الإقليميّ ، تأكيداً دائماً على طريق الوحدة «10» ويؤكد أن قيادة التنظيم هي المسؤولة عن وضع استراتيجية وتكتيك الثورة العربية في أيّ مكان من الوطن العربيّ وفي أيّ زمان، وهي وحدها صاحبة الحق في تحديد كفيّة النضال الثوريّ في الإقليم حتى يستقطب الدولة القوميّة لحساب دولة الوحدة ، وللمناضلين العرب مهمّة دائمة هي هزيمة الإقليميّة .

وحول نظريته الى الوحدة الوطنيّة في الإقليم ودور التنظيمات الوطنيّة في إطار الوحدة الوطنيّة يرى «أنّ الوحدة الوطنيّة في الإقليم والتي ستكون تنظيمياً للقاعدة الشعبية في الدولة الإقليميّة، أي تنظيماً اقليمياً ولو كان تنظيم واحد ، وهذه التنظيمات ستكون أسيرة الإطار الإقليميّ، وهذا يحول بينها وبين الوحدة الاستراتيجية ، وأنّ هذه القوى تستطيع ان تلتقي

في تبادل النشرات والخبرات ولكنها ستبقى مستقلة القيادة ومستقلة الغايات وسيبقى التعاون أسير إرادة كلّ منظمة وبالتالي لن تستطيع هذه المنظمات تحقيق الوحدة الإستراتيجية «11»

الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه «نظرية الثورة العربية » طرح أهميّة تحقيق الوحدة العربية، وربط قيامها بقيام الحزب القوميّ الواحد الذي تتبنّاه الجماهير. هو الذي يضع استراتيجية وتكتيك الوصول الى الوحدة وهو السبيل الوحيد للوصول إليها، وتحدّث عن كفيّة إيجاد قيادته، ودورها في استقطاب الجماهير للوحدة ، وربط بين وجود التنظيم القومي

وهنا يطرح سؤال: هل غياب وجود التنظيم القوميّ يمنع تحرير الأمّة، والوصول الى وحدتها؟ وهل تعاون وتضامن قوى التحرّر لا يستطيع تحقيق التحرر والوحدة ؟ وما هو



التنظيم القومي؟ وكيف سنبنيه؟

إنّ فكرة الربط بين وجود التنظيم القومي وتحرير وتوحيد الأمه كسبيل وحيد مبالغ فيها . أمّا طرحه لوجود تناقض بين الوحدة والتعدد الاقليمي منطقيّ في ظلّ وجود طرح لفكر إقليمي رافض للوحدة ويرى الدولة الإقليمية واقعا ، صحيح فلا شك أنّ الطرح الإقليمي يعيق الوصول الى الوحدة وقيام دولتها ، أما حصره أحادية أداة الثورة والوحدة بإيجاد التنظيم القومي الواحد أمر يجب البحث فيه.

فهناك طروحات أخرى لتحقيق الوحدة ، وهنا يطرح سؤال كيف سيبنى الثوريون التنظيم القومي، إن لم يترافق مع حركة ثورية واعية منظمة على مستوى الأمة؟ وهذا يتطلب وجود حركة ثورية منظمّة في كلّ قطر لها خطتها واستراتيجيتها النّابعة من واقعها، وفي هذه الحالة سنجد تنظيمات قوميّة الفكر قطريّة الحركة ساعية الى الوحدة، وهذا ما يرفضه سيف الدولة الذي يعتبر وجود التنظيمات القطرية تعيق الوصول الى الوحدة . وحول نظريته الى الوحدة الوطنيّة في الإقليم ودور التنظيمات الوطنية وقوله إنّ وجود أكثر من منظمّة في قطر واحد او في عدة اقطار سيؤدي الى تباين الأفكار والآراء. ومن الطبيعيّ حينها وجود خلاف حول كميّة تحقيق الوحدة ، ولكن يجب ألا يغيب عنا أنّ وحدة هذه القوى وتعاونها ستكون أداة مواجهه لإفشال أيّ مشروع تقسمي يستهدف الوحدة الداخليّة لهذا القطر. اما اعتباره أنّ قيام الجبهة بين المنظمات القوميّة يفيد مرحلياً، الا انها لا تصلح لأن تكون بديلاً عن الحزب القومي

من الممكن ان تساعد على تماسك الوحدة الوطنيّة الداخليّة في مواجهة مشاريع التفتيت، لكنّها لا يمكن ان تكون بديلاً عن الحزب القوميّ فهي تجمع أحزاب، ومن الصعب الوصول الى وحدة تنظيمية لأكثر من سبب ، منها مصالح قياداتها والتمسك بالزعامات الفردية الإنتهازية وغياب الديمقراطية ففشل تجارب جبهوية كثيرة في الأمة .

ثالثاً: حزب البعث: تحدّث عن أهمية الوحدة معتبراً أنّ الثورة والتغيير مع وجود التنظيم القومي يرسمان الطريق الى الوحدة وهذا الرأي تسنّى له الوصول الى السلطة وممارسة العمل الحزبي من خلالها وركّز على أنّ الحزب هو عامل التغيير الشامل في حياة الأمة ويتماثل معها .

ورد في المادة الأولى من دستور البعث أنّ: ” حزب البعث العربي الاشتراكيّ حزب عربيّ شامل مؤسس له فروع في سائر الأقطار العربية وهو لا يعالج السياسة الا من وجهة نظر المصلحة العربيّة العليا .” 12 كما ورد في نفس المادة أنّ « السمات السياسيّة لمنطلقات

البعث النظرية الإيمان بالفكرة القومية واعتبارها حقيقة قائمة، والبعث منظمة سياسية قومية شعبية اشتراكية انقلابية، شعارها أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. “13” وفي المادة السادسة ورد: «حزب البعث انقلابي يؤمن بأن الأهداف الرئيسية في بعث الأمة وبناء الاشتراكية وجمع العرب في دولة واحدة» “14” وحول الغاية من وجود البعث جاء أنه «يجب أن يكون هناك تنظيم جماهيري ثوري يكون سباجاً لحماية الوحدة بين مصر وسوريا والعراق» “15” وورد في بيانات القيادة القومية حول تعريف البعث: «لقد لخص البعث العربي الاشتراكي أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية وجسد إيمانه بالوحدة عندما أقام على نطاق الوطن العربي الكبير تنظيماً قومياً موحداً يخضع لقيادة مركزية قومية ويؤكد تصميمه على مواصلة نضاله في سبيل المجتمع العربي الاشتراكي الموحد. ” 16“ ويقول مؤسس حزب البعث ميشال عفلق حول موقع التنظيم في الأمة ومميزاته: حزب البعث حزب عربي شامل قومي اشتراكي شعبي ، وحول نظرة الحزب للأمة جاء في كتابات البعث « لقد عشنا قضية الوحدة منذ اليوم الأول لولادة حزبنا فهي حياتنا وهي من مبررات وجودنا. “17“

وفي كتاب نضالات حزب البعث بيانات القيادة الصادر عام 1963 جاء أن التشكيك بالحزب تشكيك بالوحدة لأن الوحدة هدف الحزب الأول والأساسي . والوحدة الاتحادية تعني دولة الوحدة ذات سيادة واحدة وسياسة واحدة ووجود دولي واحد

والوحدة الإتحادية هي التي تتيح إعطاء مضمون شعبي ديمقراطي لهذه الوحدة ، وهي الوحدة التي تنتج شكلاً عملياً وتطبيقاً للديمقراطية الشعبية لأن الشكل المركزي للحكم والمجالس الشعبية التي ستوجد في هذه الأقطار هي التي تنتج إقامة دعائم الدولة العربية المتمثلة بشكل يسمح للشعب المنظم ممارسة سلطاته الفعلية على أجهزة الدولة وتجعله فعلاً لا قولاً فوق هذه الأجهزة. بينما يراقبها ويطورها ويحميها . كما حدد الحزب الوسيلة لتحقيق «الوحدة بالوحدة القومية الثورية الجماهيرية المنظمة هي الأدوات الموضوعية التي تصنع الوحدة وتحميها وترسخها. “ 18“ وفي موقع آخر ان الحزب يؤكد تصميمه على مواصلة نضاله في سبيل إقامة المجتمع الاشتراكي الموحد. “19“

وحول الوحدة وواقع الأمة ورد أن الوطن العربي للعرب ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونهم وثوراتهم ومقدراته. “3“ وفي المادة السادسة من دستور البعث « حزب البعث العربي انقلابي يؤمن بأن اهدافه الرئيسية تتلخص في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية والنضال لجمع العرب في دولة واحدة ، والأمة العربية وحدة روحية ثقافية وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي. “20“

حزب البعث هو حزب قوميّ شموليّ يشمل كل البلدان العربيّة ويحمل الفكر القوميّ العربيّ الذي يعالج من خلاله كلّ المشاكل القطريّة انطلاقاً من المصلحة القومية ، ويكون ذلك من خلال قيادة قوميّة واحدة للحزب تدير كلّ الفروع وفق مصالح كلّ فرع في كلّ قطر، شرط ألاّ يتنافى مع المصلحة القومية . وحزب البعث يقوم على التغيير الشامل لواقع الأمة ، ولكن على أي أساس سيقوم هذا التغيير ؟ هل بطرح مفهوم جديد لوحدة الأمة؟ أم على بعثها من جديد ؟ لا شك اننا بحاجة إلى بعث الأمة من جديد، وبروحية نضاليّة قائمة على الديمقراطية والعدالة والإيمان والوحدة . أما الطرح بوجوب تنظيم جماهيريّ ثوريّ يحمي الوحدة ، كيف سنوجد هذا التنظيم لا سيّما بعد فشل كلّ الطروحات القوميّة في بناء التنظيم القومي الذي يصنع الوحدة ؟ اما اعتبار الحزب هو الأمة وأيّ تشكيك بالحزب هو تشكيك بالأمة فهو طرح مبالغ فيه، فالأمة فوق كلّ الأحزاب، ووحدتها هي الهدف. ومن غير المنطقي ربط الامة بأيّ حزب وتصوير أخطائه بأنها خطأ بفكرة الوحدة. والقول بأن وحدة القوى الثورية الجماهيرية المنظمة هي التي تصنع الوحدة وهي التي تحميها ، وأنّ أفضل أشكال الوحدة هي التي تأتي حصيلة نضال ثوريّ جماهيريّ تقوده قوى ثوريّة منسجمة ، فالوحدة لا تقوم بوجود تنظيم قوميّ واحد على مستوى الأمة كما يقول سيف الدولة ، بل يجب ان يكون لكلّ القوى الثوريّة الجماهيرية دور في إيجاد الوحدة وذلك من خلال عمل مشترك وانسجام في الهدف والفكرة والأسلوب . إنّ تجارب الوحدة العربية بوجود الحزب القوميّ الواحد «حزب البعث» الذي وصل للحكم في سورية والعراق لكنه لم يستطع تحقيق الوحدة بين القطرين ولم يستطع الوصول إليها رغم وجود فروع له في كل الأقطار العربية، بل كان له دور في افشال اول وحدة قامت في العصر الحديث بين مصر وسوريا، فتجربة البعث بوجود التنظيم القوميّ الواحد ودولة القاعدة فشلت في تحقيق الوحدة العربية . وهذا أدّى الى إضعاف فكرة الوحدة عند الجماهير العربيّة وقوّى واقع التجزئة القائم .

رابعاً جمال عبد الناصر: تبنى العمل الحزبي القطريّ المؤمن بوحدة الأمة كأداة لتحسين الوحدة الوطنيّة الداخلية لكل قطر ، ودعا الى تكامل الوطنيّات انطلاقاً من عمل ديمقراطي تكامليّ معتبراً أنّ التلاقي بين الأحزاب القوميّة يأتي بعد الوحدة الوطنيّة ، و التعاون والتضامن العربي يساعدان على تحقيق الوحدة .

ورد في الميثاق «إن لا يستطيع باي حال أن تعمل الحركة العربية الواحدة واذا حاولت تعمل الحركة العربية الواحدة ستولد ميتة ، لازم تكون الحركة العربية الواحدة وليدة

كفاح ونضال في كل بلد عربي وبعده نلتقي على المبادئ والأهداف، وحدة العمل السياسي تقرب الخطوات من اجل الوحدة ، فمن مسؤولية الثوريين المناضلين المكافحين ان يعملوا الحركة العربية التي تجمع كل العناصر القومية العربية «21» وعن معركة الوحدة جاء في الميثاق «معركة وحدة القوى الثورية معركة ايضاً متشعبة متعددة الجبهات ، جبهة تعمل فيها القوى الثورية في ظل اوطانها الصغيرة لكي تثبت وجودها وتأثيرها ، وجبهة تلتقي عليها القوى الثورية معاً وتنسق معاً وتحدد أهدافها ووسائلها معاً ثم جبهة الصراع مع العدو الأساسي للأمة العربية وأهدافها .» (22) وحول الوحدة العربية وواقع التجزئة كان لجمال عبد الناصر رأيه بالوحدة العربية تعني عودة الوحدة الطبيعية للأمة العربية التي فرقها الإستعمار وأنّ الحدود التي تفصل بين الدول العربيّة هي كرتونية وذلك لتمنع الشعب العربي من الوحدة ويفرض القوّة لبناء الوحدة لأن الوحدة بالقوة تقتل قوة الوحدة التي لا يمكن تكريسها وتعزيزها الا بالوحدة الوطنية الشعبية داخل كلّ قطر على قاعدة تحالف قوى الشعب العاملة «23» ، فالطريق الى الوحدة العربيّة وسبيل تحقيقها لا توجد صورة دستورية لا مناص من تطبيقها ولكن الوحدة العربية طريق طويل قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولاً الى الهدف الأخير .» (24)

لم ير جمال عبد الناصر أنّ التنظيم القوميّ هو الطريق الوحيد للوحدة ، رأى ان هناك سبل متعدّدة يمكن أن تساهم في تحقيق الوحدة ، وركز على دور الجماهير العربية داخل كل قطر عربيّ في بناء تنظيمها الثوريّ الذي يصوغ مستقبلها وفق مطالبها ويعمل على تلبية المطالب، والتنظيم يبنع ديمقراطياً من الجماهير المؤمنة بالثورة، ويقوم تعاون مع كل الوطنيين التقدميين في الوطن العربي ليكون هناك تفاهم ولقاءات تحقق انسجاماً في العمل من اجل الوصول الى الوحدة . واعتبر عبد الناصر أنّ التعاون بين الحركات العربية والإلتقاء على الأهداف والمبادئ تقرب الوحدة ، ويعتبر ايضاً أنّ وحدة العمل السياسيّ تقرب الخطوات نحوها .

عبد الناصر آمن بوحدة الأمّة العربيّة واعتبرها وحدة قائمة في ضمير الشعب العربي ، وإن حالة التجزئة هي حالة استعمارية والحدود بين البلدان العربية هي حدود هشّة وهذا ما دل عليه التاريخ الحديث للأمة التي فتتها الإستعمار وفقاً لمشاريعه ومصالحه وأهدافه وعمل ويعمل على تعميق واقع التجزئة وتغذيته بل يعمل على تفتيت الكيانات الوطنية القائمة لجعل إقامة الوحدة من المستحيلات ، وهذا ما يتطلب من القوى القومية المؤمنة بالوحدة البحث عن صيغ تعاون وأهداف مشتركة لمواجهة المشاريع التفتيتية الجديدة. فالوقوف عند أسلوب واحد للوحدة سوف يؤدي بالنهاية ليأس الجماهير العربية من

تحقيقها ، فالعمل الوجدوي يحتاج لدراسة وافية لواقع الأمة وخصوصيات أقطارها والعمل لإيجاد صيغة وحدوية مقبولة من الجميع. فالمهم الآن العمل على مواجهة المشاريع الصهيونية الإستعمارية ، من خلال التعاون بين القوى الثورية العربية والتقارب فيما بينها يقرب الوصول الى الوحدة . فبعد فشل صيغة العمل القطري وصيغة الضم القصري وصيغة حكم الحزب الواحد ، فإن إيجاد الرؤية المشتركة بين القوة القومية العربية و التعاون بين الدول العربية و إيقاف الصراعات العربية العربية يسهل قيام الوحدة وهذا ما اعتبره عبد الناصر عنصراً مساهماً وإيجابياً للوصول الى الوحدة.

### الخلاصة

بعد استعراض مجموعة من الآراء التي تناولت أهمية الوحدة العربية والطريق الى تحقيقها، تبين لنا أن هناك اتجاهين : اتجاه يدعو الى قيام التنظيم القومي كأداة واحدة للوصول الى الوحدة ، وتمثل برأي الدكتور الريماوي والدكتور عصمت سيف الدولة وحزب البعث وهذا الاتجاه ركز على الأمور التالية للوصول الى الوحدة

- 1- خطورة العمل الإقليمي ووجود المنظمات الإقليمية والتي ان وجدت تكون بشكل مرحلي .
- 2- ضد التعددية الحزبية.
- 3- التأكيد على خطورة التجزئة وأهمية العمل للوصول الى الوحدة.
- 4- التنظيم القومي هو الذي سيغير واقع الأمة ويعمل لوحدها.
- 5- اعتبار دور الطليعة العربية أساسية في وجود التنظيم القومي.
- 6- التركيز على ضرورة قيام الوحدة العربية، وبناء التنظيم هو السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة . واتجاه آخر يدعو الى العمل الحزبي القطري ، وحدة الأقطار الداخلية وتكامل الوطنيات على قاعدة الديمقراطية والمشاركة للوصول اليها والاتجاه الثاني : قال بالعمل الحزبي القطري وتكامل الوطنيات والديمقراطية ، والمشاركة لتحقيق الوحدة والمتمثل بطرح الرئيس جمال عبد الناصر واتحاد قوى الشعب العامل، وأكد هذا الاتجاه على أهمية تحصين الوضع الداخلي للأقطار العربية في مواجهة محاولات التفيت ، وليس من طريق واحد. والوصول الى الوحدة فهناك عدة أساليب قد تساعد على تقريب الوصول اليها، ومنها: تحصين الوحدة الداخلية لكل قطر عربي ، التضامن العربي ، التكامل بين الوطنيات ، تعزيز التعاون العربي على جميع المستويات .

## قائمة المراجع

- 1- عبد الله الريماوي، الحركة العربية الواحدة، بيروت، دار النشر للجامعيين، 1962، ص9
- 2- عبد الله الريماوي ، نفس المصدر ص2
- 3- عبدالله الريماوي نفس المصدر ص21
- 4- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ”الأسلوب ” الثورة وإدارة الثورة ، بيروت دار المسيرة، 1976 ص10
- 5- عصمت سيف الدولة ، نفس المصدر ص16
- 6- عصمت سيف الدولة ، نفس المصدر ص55
- 7- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ”الطريق ” الى الوحدة والاشتراكية ، بيروت دار المسيرة ، 1976 ، ص93
- 8- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ، الأسلوب ، الثورة وإدارة الثورة ، بيروت ، دار المسيرة ، 1976 ص43
- 9- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ” الأسلوب ” الثورة وإدارة الثورة ، دار المسيرة، بيروت 1976 ، ص52
- 10- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ، الطريق الى الوحدة والاشتراكية ، بيروت ، دار المسيرة ، 1976، ص93
- 11- عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ”الأسلوب ” الثورة وإدارة الثورة ، بيروت ، دار المسيرة ، 1976، ص56
- 12- حزب البعث العربي الاشتراكي ، نضالات حزب البعث العربي الاشتراكي ، بيانات القيادة القومية ، بيروت ، دار الطليعة 1963 ، ص9
- 13- شبلي العيسمي، حزب البعث العربي الاشتراكي ، بيروت ، دار الطليعة ، 1975-1974، ص19
- 14- شبلي العيسمي، المصدر نفسه ، ص121-120
- 15- حزب البعث العربي الاشتراكي ، نضالات حزب البعث العربي الاشتراكي بيانات القيادة القومية ، بيروت ، دار الطليعة ، 1963 ، ص147
- 16- حزب البعث العربي الاشتراكي ، نضالات حزب البعث العربي الاشتراكي ، بيانات القيادة القومية ، بيروت ، دار الطليعة ، 1963، ص28
- 17- حزب البعث العربي الاشتراكي ، نفس المصدر السابق ، ص153
- 18- حزب البعث العربي الاشتراكي ، نفس المصدر السابق ، ص342
- 19- شبلي العيسوي ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، بيروت ، دار الطليعة ، 1974-1974، ص119
- 20- جلال السيد ، حزب البعث ، بيروت ، دار النهار ، 1973 ، ص45
- 21- جمال عبد الناصر ، الميثاق ، بيروت، لبنان ، نشرة صوت الناصرية -9-28 1973، ص3
- 22- جمال عبد الناصر ، الى أعضاء المكتب الدائم للمحامين العرب ، بيروت ، صوت الناصرية، 1967-3-8 ص16
- 23- عبد الناصر ومعارك التحرر القومي ، بيروت ، مجلة الموقف ، 12-8-1981 - ، ص105
- 24- عبد الناصر ومعارك التحرر القومي ، المصدر السابق ص106

# «إلى بيروت الأنثى» لنزار قبّاني قراءة في فنّ الأغنية الوطنية.

عمر جابر

طالب دكتوراه/  
الجامعة اللبنانية

تمهيد

يُعدّ الفنّ من أسمى الأعمال وأكثرها رقيّاً، حيث يعكس صورة لإبداع يتميّز به شخص ما، منحه الله نعمة الموهبة. وهو «مجموعة الوسائل التي يستخدمها الفرد لإثارة المشاعر والعواطف بما فيها عاطفة الجمال، كما أنه مهارة يحكمها الذوق ومواهب الإنسان»<sup>1</sup>.

وعليه نقول بأنّ الفنّ هو التّعبير الصادق عمّا يختلج الإنسان من أفكار وأحاسيس، فهو أعمال إنسانية بحث لكلّ من يتمتّع بهذه الصّفة، ترتقي بصاحبها ليصل إلى مرحلة لا يبلغها سواه.

أنواع الفنون

تتعدّد أشكال الفنون وتختلف تصنيفاتها<sup>2</sup>، ومن وجهة نظر منطقيّة نجد أن تقسيم «لاسباكس»<sup>3</sup> أحد أتباع المدرسة الاجتماعية الفرنسيّة هو التّقسيم الأقرب إلى المنطق الحديث، لأنّه ينطلق من معالجة الظّاهرة ضمن إطارها الاجتماعيّ المؤلّف من مرسل ومتلق ومرسلة ضمن سياق مقاميّ ما.

فنّجده يقسّم الفنون إلى ثلاثة أقسام<sup>4</sup>:

القسم الأول: الفنون الحركيّة.

ويندرج تحت هذا القسم ثلاثة فنون: الرّقص، الغناء، والموسيقى.

القسم الثّاني: الفنون الساكنة.

ويندرج ضمنه: العمارة، والتّصوير، والنّحت.

القسم الثّالث: الفنون الشّعريّة.

وتندرج فيه الفنون الثّالية: الشّعْر التمثيليّ، والكوميديّ،

والتراجيديّ، والشّعْر القصصيّ والغنائيّ، وتجمع هذه الأنواع من

الفنون جانب الفنّ الأدبيّ وجانب الغناء والموسيقى.



## الفن الغنائي

إنّ الفنّ الغنائيّ يُعدّ من أكثر الفنون شيوعاً، وهو الفنّ الذي يعكس إيديولوجيات لمجموعة من الأشخاص ساهموا في إنتاج العمل الغنائيّ، والفناء هو «التطريبُ والترنُّمُ بالكلام الموزون وغيره يكون مصحوباً بالموسيقى وغير مصحوب»<sup>5</sup>.

وبالتالي تنتمي الأغنية إلى أكثر من نوع فنيّ: فهي قصيدة أولاً، من ثم تُقوّل هذه القصيدة في نمطٍ إلقائيّ معيّن، يرافقه عزف وإيقاعات تقوم بإنتاجها مجموعة من الآلات الموسيقيّة.

والأفراد المساهمون في إنشاء هذا الفنّ هم: الشّاعر، والملحن، والموزّع الموسيقيّ، والموسيقيّين، والمغنيّ.

وقد عرف العرب هذا النوع من الفنون منذ نشأة اللّغة في العصر الجاهليّ وكانت تختلف أنماطه باختلاف المناسبة التي يُقال فيها.

ونظراً للتطوّر الحضاريّ الذي يُرافق كلّ المراحل الحياتيّة والتطوّرات الزمانيّة والتبدلات الدوّيّة، تطوّرت الأغنية على مرّ العصور، لتصل إلى ما وصلت إليه اليوم حيث صارت تحمل طابع السرعة والاختصار.

ولأنّ الفنّان هو ابن بيئته لا بدّ أن يتأثر بالواقع المعيشيّ الذي ينتمي إليه، ولا بدّ أن يواكب عصره من حيث المواضيع أولاً، ومن حيث طبيعة الموسيقى التي فرضها الانفتاح على حضارات العالم كلّ.

كما أنّ بعض الظروف الحياتيّة التي يعيشها الفنّان تجبره على إنتاج نوع غنائيّ مختلف عن سواه وملأئم للظرف الاجتماعيّ الذي ينتمي إليه.

الأغنية الوطنية: تعريفها وهدفها.

لأجل ما يحمله الفنّ الغنائيّ من رسائل إنسانيّة، سعى أغلب الفنّانين إلى تقديم أعمال فنيّة ذات طابع إنسانيّ، كان من أهمّها «الأغاني الوطنيّة».

والأغنية الوطنيّة هي التي من خلالها نعبر عن حبّ الوطن والتّفاخر به وبأمجاده وتاريخه وحضارته وممتلكاته، وهي مرآة تعكس أصالته وثقافته. كلّ الغاية منها التّعبير عن حبّ هذا الوطن والتأثير بالمتلقّي من خلال إعادة شحن لحسّه الوطنيّ والقوميّ بعيداً عن أيّ غرض تسويقيّ أو ماديّ.

وهي تأريخ لأحداث اجتماعيّة أو سياسيّة مرّ بها وطن ما، من خلال تجسيد هذه الوقائع في مجموعة من العبارات التي غالباً ما تحمل طابعاً حسيّاً تأثيريّاً ودلالات هادفة، مُرفقة بلحن يشحذ الأمل والقوة والهمم في نفوس سامعيها. كما أنّ التّوزيع الموسيقي لها يكون

مُرَكِّزًا على بعض الآلات الإيقاعيّة والقرعيّة التي تبثّ في سامعيها نوعًا من النشاط والحماس والاندفاع.

وقد كان للبنانيّين نصيبٌ كبيرٌ من بين الشّعوب العربيّة في الأغاني الوطنيّة، وذلك عائد للظروف الصّعبة التي لم تُفارق لبنان منذ إعلانه حتّى اليوم. فإذا راجعنا الأرشيف الفنّائي للأغاني الوطنيّة نجده حافلًا جدًّا، حيث يتضمّن عشرات بل مئات الأغنيات، منها: «وطني، بحبك يا لبنان، بكتب اسمك يا بلادي، نحن شعبك يا الله، تعلا وتتعمر يا دار، تسلم يا عسكر لبنان، أحباي، يا ثوار الأرض، لبنان يا قطعة سما، ... والقائمة تستمر وتستمر.

وكان آخرها أغنية للمطربة اللبنايّة «نانسي عجرم» بعنوان «إلى بيروت الأنثى» من أشعار «نزار قباني» ومن ألحان «هشام بولس» والتوزيع الموسيقي لـ «باسم رزق»، التي قدّمتها بعد الانفجار الكبير الذي تعرّض له مرفأ بيروت في الرّابع من آب من العام الجاري، ما جعله حدثًا عالميًا تناولته كل الأخبار العالميّة باعتباره حدثًا استثنائيًا، ومؤلمًا، وكارثيًا. والملفت في هذه الأغنية أنّها خرجت على السّائد والمتعارف عليه في أغاني هذه الفنّانة، حيث لجأت المطربة إلى الشّعور العربي الفصيح، وهي التي عودتنا (مع أغلب فنّانات جيلها) على استخدام اللّغة المحكيّة باختلاف اللهجات العربيّة. فكان لا بدّ من الوقوف على هذه الأغنية ودراستها باعتبارها خطابًا لسانيًا له تداعياته وأسبابه، وكونه منتشرًا انتشارًا واسعًا.

التّحليل التّداولي لأغنية «إلى بيروت الأنثى».

من أجل تحليل هذه الأغنية لا بدّ من النّظر إليها من خلال منظور لسانيّ يتناولها من خلال ثلاثة جوانب: الأوّل يتناول الأغنية باعتبارها خطابًا لسانيًا مكتوبًا، والجانب الثّاني يتناول الجانب النّطقيّ للأغنية مع ما يرافقها من موسيقى، والجانب الأخير يتناول الأغنية باعتبارها مشهدًا تمثيليًا مرئيًا ومسموعًا.

#### 1- الجانب الأوّل: النّصّ باعتباره خطابًا مكتوبًا.

إنّ الملفت في هذه الأغنية اعتماد الفنّانة شعراً عربيّاً فصيحاً، بعيداً كلّ البعد عمّا قدّمته سابقاً، هي وزملاؤها وزميلاتها، فلم نشهد في لبنان أغنية وطنية باللّغة العربيّة الفصحى على الأقلّ في العشرين عامًا الأخيرة.

كذلك اعتمادها على شعر عربيّ يُعدّ قديماً بعض الشيء، فهو لم يُكتب للتعبير عن الواقع الذي يعيشه اللّبانيّون في هذه الفترة أي الانفجار، بل كان «قباني» قد كتب القصيدة في عام 1981 الذي كان عام حرب شتّى العدو الإسرائيليّ على الجنوب اللّبانيّ وبيروت

وبعض المدن الرئيسية كزحلة، ما سبب موت المئات وجرح الآلاف، ناهيك عن الدمار العمراني والبنائي لهذه الوطن، والدمار النفسي والصحي لمعظم اللبنانيين. ولا ننسى أن هذا العام هو جزء من حرب أهلية بدأت في نيسان 1975. فكان لبنان في ذلك الوقت وما زال مطعوناً ويحتضر، كالأب الذي فقد أحد أبنائه والآخرين يتنازعون ويتقاتلون، عائشاً في ظلّ شبح الموت الذي يهدده في خطف أحد أبنائه في أي لحظة.

وقد كان للبنان في قلب «القباي» مكانة خاصة عبّر عنها بعدد من قصائده، فكان لبنان موطناً له قبل هجرته إلى أوروبا، من هذه القصائد كانت قصيدة «إلى بيروت الأثني مع الاعتذار»<sup>6</sup>. فقال فيها:

كان لبنان لكم مروحةً  
تنشر الألوان والظلّ الظليل  
كم هربتم من صحاراكم إليه  
تطلبون الماء والوجه الجميل  
واغتسلتم بندى غاباته  
واختبأتم تحت جفنيه طويلاً  
وتسلقتم على أشجاره  
وسرحتم في براريه ووعولاً  
وشربتم من خواويه نبيذاً  
وسمعتم من شواديه هديلاً  
وقطفتم من روابيه الخزامى  
والعُيون الخضر والحدّ الأسيل  
واقتنيتم شمسهُ لؤلؤةً  
وركبتم أنجم الليل خيولاً  
إنّه علمكم أن تعشقوا  
لم يكن لبنان في العشق بخيلاً  
إنّه علمكم أن تقرّوا  
هل تقولون له : شكراً جزيلاً؟  
آه يا عشاق بيروت القدامى  
هل وجدتم بعد بيروت البديلاً؟

إِنَّ بَيْرُوتَ هِيَ الْأُنْثَى الَّتِي  
تَمْنَحُ الْخَصْبَ وَتُعْطِينَا الْفُضُولَا  
إِنْ يَمُتْ لُبْنَانُ ... مِتُّ مَعَهُ  
كُل مَنْ يَقْتُلُهُ ... كَانَ الْقَتِيلَا  
كُل قُبْحٍ فِيهِ .... قُبْحٌ فِيكُمْ  
فَأَعِيدُوهُ كَمَا كَانَ جَمِيلَا  
إِنْ كَوْنَا لَيْسَ لُبْنَانُ فِيهِ  
سَوْفَ يَبْقَى عَدَمًا أَوْ مُسْتَحِيلَا  
كُل مَا يَطْلُبُهُ لُبْنَانُ مِنْكُمْ  
أَنْ تُحِبُّوهُ ..... تُحِبُّوهُ قَلِيلَا

وهذه القصيدة لا تعبر إلا عن مدى الحب الذي يملأ قلب المواطن لوطنه، فكان «نزار قباني» في هذه القصيدة لا يفترق عن أيّ لبنانيّ في تلك الآونة، يريد التعبير عن محبته وتقديره لهذا الوطن، وقد ظهر ذلك في تغنيّه بطبيعته الخلابة (مروحة تنشر الألوان والظل، الماء، الوجه الجميل، سرحتم في براريره، ندى غاباته، روايبه، الخزامى،...) وبثقافة شعبه.

فصفة الثقافة كانت وما زالت بصمة شرف لكلّ من يُنعت بلبنانيّ، فاللبنانيون شعب مثقف ومتعلّم ومنفتح على أكثر من حضارة، فيقول نزار: (علمكم أن تقرأوا) حيث يعتبر لبنان منارة علم ومقصد للأدباء وللعلماء من كلّ أقطاب العالم العربيّ وحسب الغربيّ، لاحتوائه أهمّ الجامعات والمدارس التي تعترف بشهاداتها كلّ دول العالم.

كذلك يقول «نزار قباني» فيه أنّه علّم الناس العشق وذلك لاحتوائه على أهمّ أماكن السّهر والسياحة بكلّ أشكالها التي تشكّل مقصدًا لكلّ الأحبة والعشاق لتمضية أجمل الأوقات فيها، كما كان مسرحًا لأهمّ النجوم العرب وغير العرب الذين غنّوا فيه للحبّ والعشق والسّهر، ما جعله مقصدًا لمحبي الفنّ والموسيقى والمسرح في العديد من المناسبات والأعياد.

وكان هذا الوصف وصفًا ذاتيًا وجدانيًا نابعًا من قلب ينضج بالحبّ، فكثرت الصفات الجميلة التي تعكس جمال هذا الوطن، وتشجّع على زيارته والتمتع بجماله وخدماته. ولا ينسى الشاعر في قصيدته أن يشير إلى أهميّة لبنان على مستوى الحرّيات عندما يقول: (اختبأتم تحت جفنيه) نظرًا لما يسمح به هذا البلد من حرّية في التعبير والاعتقاد، فكان ملاذًا للكثير من الشّعراء والأدباء والنّاشطين السّياسيين والمدنّيين الذين حرّمهم

سياسة بلادهم من التعبير بحرية عما يفكرون به. ومن ثم يتوجه الشاعر إلى عاشقي بيروت القادمي، قاصداً العشاق الحقيقيين لهذا البلد وليس للمتظاهرين بحبه، وكم هم أكثر! طارحاً سؤاله من دون أن ينتظر إجابته لأنه يعرف ويعي ألا بديل عن بيروت، عن تلك العاصمة التي تتمتع بجمال طبيعي خلقه الله مميزاً إيّاها عن سواها من المدن العربيّة، وجمال أهل بيروت وسعة قلوبهم ومحبتهم وحسن ضيافتهم وطيب معشرهم.

ونحن نطرح السؤال أين هم عشاق بيروت؟! عشاق الحرية وعشاق الأرض؟ أين روح الانتماء والقومية التي تنغى بها فقط بالأقوال وعند الأفعال تتحدث المصالح.

عن أي عشاق تحدثت يا «نزار» ونحن في زمن أصبحت فيه خيانة الوطن والأرض والعروبة رؤية نحو الإصلاح ووجهة نظر نحو التمدّن؟! أنتحدث عن فراغة القدر وعبيد المال المطيعين العرب الذين يريدون اغتصاب بيروت وكل أنثى عربيّة مرة ثانية بتطبيعهم مع العدو؟ ينبذونها وكأنها المجرمة ويتوددون إلى المغتصب؟!

أم نتحدث عن الساسة في لبنان، عملاء الشياطين، والنفس الأمّارة بالسوء التي حذرنا ربنا منها؟

أعن عشاق نتحدث أم عن إخوة يوسف، وكهنة معبد الشر، ونسّاك الحانات؟ هؤلاء هم أعداء لبنان الحقيقيون.

أين المواقف وفلسطين مهد المسيح وقبلة الإسلام تنتهك؟ أين القوميّة والعروبة وبيروت تنزف وتقتل مع كل صفقة وتغتصب مع كل محاولة هدنة وصلاح مع العدو الصهيوني الذي سيبقى عدونا مهما تبدلت الأحوال والأزمان؟ وكم من أين وكيف ولم؟

أنسيتم بيروت العربية والقدس العربية؟ أم المال أهم من الدماء والشرف؟ سؤال إجابته وحيدة: المصالح فوق كل شيء.

وبالعودة إلى «القباني» شاعر الحب والغزل في النساء، الذي لم يتوان عن وصف بيروت بالأنثى التي تتمتع بصفات مميزة خلقها الله فيها، وهل يوجد أعظم من الأنثى؟! يكفي أنّها بكل بساطة الأم.

وحتى الأنثى إن كانت عذراء فهي أمّ، لأنّها – برأيي – تلد مع شعور الأمومة الذي يبدأ منذ نعومة أظافرها ويكبر معها كي تنشره على كلّ من يحيط بها، فتزيل عنهم حزنهم ووحدتهم.

وكان وصف «القباني» لهذه الأنثى بالخصوبة وصفاً فريداً من نوعه، فقد خصّصها بشيء هو أساس اكتمال الحياة وسر من أسرار استمرارها. ومن أهمّ مظاهر استمرار الحياة هو تناوب الفصول، فكانت برأي الشاعر هي الطبيعة الأم التي تلد الفصول للكون كله وتعطيه خيراته.

وانقطاع هذا الإنجاب يؤدّي إلى انتهاء الحياة، فكلّ من يسعى إلى قتل بيروت سيكون بطريقة أو بأخرى ينتحر، لأنّه سيقتل نفسه وأرضه وشعبه وسيكون طابخ السّم وأكله. وبعد كلّ ما ذكره الشاعر من محاسن هذه المدينة وهذا البلد، شدّد على أنّ الجمال الذي يمتلكه لبنان لا يمكن أن يُضمّر أو يختفي، ولا يمكن لأحد إنكاره، وإن فعل فهو انعكاس لبشاعة نفوس الحاقدين الذين يتحدّثون عن بيروت أو يؤذوها، كما طلب ألاّ يعبثوا بممتلكات الله؛ فبيروت وجمالها من صنع الله وكأنّه يريد منهم أن يعودوا إلى دينهم وإلى تعاليمه كي لا يُخطئوا بحق أنفسهم، منذراً إياهم بعذاب أليم في الآخرة عند ربّهم لأنّهم انتهكوا حرّماته، وبعذاب كبير في الحياة التي لن تكون سوى صحراء قاحلة تعجّ بالأفاعي التي تنتظر فريستها لتسمّم لها حياتها، فإن لم تقتلها ستعطبها، وتعيقها، وتجعلها بائسة وحقيرة ومقيتة.

وهذا التحذير لم يكن على مستوى لبنان والعالم العربي والغربيّ، بل شمل كلّ الكون، وكأنّ في هذه المدينة إكسير الحياة، وترياق العلاج من سم الأفاعي، ومحرك الزّمن إن انتهت الحياة وانقرض البشر وغير البشر.

ونصل إلى آخر بيتين في القصيدة، وكانا طلباً أقرب إلى الرّجاء بتقديم الحبّ للبنان، فهو الحلّ الوحيد ليخرج من مصابه، وينتشله من غرقه. وهذا الطّلب خرج من كونه طلباً خاصاً بلبنان ليصير درساً أو عبرة يستطيع أن يستفيد منه كل إنسان على الأرض مع مراعاة اختلاف ما قد يمرّ به من مشاكل وعقبات، ليصبح حلّاً عابراً لكلّ الأزمنة والأمكنة، فالحبّ هو الحلّ لكلّ الأزمات.

وبعد ما ذكرناه يتحدّد لنا المثير والاستجابة في هذه القصيدة. فالأول هو مخفيّ، ولكن من خلال تحديد البيئة الاجتماعيّة والوقت الذي كتب بهما الكاتب هذا النّصّ يوصلنا إلى تحديده. فالمثير إذاً هو الحرب والوضع السيّء الذي يعيشه الوطن فكانت هذه القصيدة هي الاستجابة له.

وفي العودة إلى الأغنية نجد أنّ الفنّانة لم تستعمل كل أبيات القصيدة بل اختارت بعضها، لتتلاءم مع القضية التي تريد أن تسلّط الضّوء عليها، خصوصاً أنّ أبيات القصيدة تؤدي الوظيفة التأثيريّة الإقناعيّة والتي تضرب على الوتر الحساس، ولأنّ المدّة الزّمنيّة التي

فرضها التطور الموسيقي في عالمنا الحالي أجبرها على تقديم عمل سريع نسبياً، خصوصاً أن الفنانة ستغني لوحدها وليس ضمن أوبريت، فهي ستقدم عملاً منفرداً، ولم يعد من المستساغ عند المتلقي تقبل أغنية تتجاوز مدتها الخمس دقائق. فاخترت هذه الأبيات وهي:

أَه يَا عُشَّاقَ بَيْرُوتَ الْقُدَامَى  
هَلْ وَجَدْتُمْ بَعْدَ بَيْرُوتَ الْبَدِيلَا ؟  
إِنَّ بَيْرُوتَ هِيَ الْأُنْثَى الَّتِي  
تَمْنَحُ الْخَصْبَ وَتُعْطِينَا الْفُصُولَا  
إِنْ يَمُتْ لُبْنَانُ ... مِتُّ مَعَهُ  
كُل مَنْ يَقْتُلُهُ ... كَانَ الْقَتِيلَا  
أَه يَا عُشَّاقَ بَيْرُوتَ الْقُدَامَى  
هَلْ وَجَدْتُمْ بَعْدَ بَيْرُوتَ الْبَدِيلَا ؟  
إِنْ يَمُتْ لُبْنَانُ ... مِتُّ مَعَهُ  
كُل مَنْ يَقْتُلُهُ ... كَانَ الْقَتِيلَا  
كُل مَا يَطْلُبُهُ لُبْنَانُ مِنْكُمْ  
أَنْ تُجِئُوهُ ..... تُجِئُوهُ قَلِيلَا

واستخدام المطربة للأبيات العربية الفصحى عائد لعدة أسباب سنوجزها في التالي:  
السبب الذي دفع بالفنانة إلى اختيار هذا النص هو مخفي، إلا أنه دلّ عليه دليل وهو البيت الأول (أه يا عشاق بيروت القدامى)، فهي تريد أن تشير إلى أن هذه الأغنية مهداة إلى بيروت وأهاليها بعد الحادث الأليم الذي تعرض له مرفأها. فكانت هذه الأغنية هي الاستجابة لهذا الحادث. ما دفع بالفنانة إلى حصر الأغنية بالأبيات التي تدعو إلى إيجاد حلّ للمشاكل التي يعاني بها لبنان وبيروت بشكل خاص بعدما بينت أهمية بيروت بأنه لا بديل لها.

وقد أحببت الفنانة أن تعتمد على نص مشهور وبلغ لشاعر محبوب من قبل كل العرب، فلا يختلف اثنان على أهمية شعر «نزار قباني» وسلاسته واستساغه من قبل المتلقي. ولم تعتمد على شعر يحتوي العبارات الصعبة والمبهمة لمن لا يتقن العربية الفصحى. كذلك اعتمدت الفنانة على نص شعري عربي فصيح ليكون في رصيدها أغنية تحمل طابعاً إنسانياً ووطنياً يختلف عن المتعارف، وهي خطوة ذكية منها، فإن كانت تقصد أم لم تقصد، فتحت عيون الناس على أهمية الشعر العربي الفصيح، وهي الفنانة التي يتفق على



محبتها الجميع، الصّغير قبل الكبير، فقدمت خدمة كبيرة للغة العربيّة الفصحى خصوصاً في زمن تعاني منه لغتنا الأم من إهمال كبير.

الصّورة المختلفة التي صوّر بها الشاعر بيروت، وهي الأنثى الخصبة، فكان وصفه صورة غير نمطيّة عن المتعارف عليه في وصف الأوطان، فلجأت إليه الفنّانة لخدمة قضيتين أساسيتين هما: وصف بيروت ودورها المهم، ودعم قضية مهمة وهي تبيان أهمية الأنثى في المجتمع وفي الحياة لأنّها لا تقلّ شأنًا عن دور الذّكر في استمرار الحياة على الأرض. هذه القصيدة منظومة على البحر الرّمل:

إن يمت لبنان متمّ معه

الكتابة العروضيّة: إن يمت لبنان متمّ معهو

الكتابة التفعيليّة: 0/// 0/0/ /0/ 0/ 0// 0/

التفعيلات: فاعلاتن فاعلاتن فعّلن

ويعتبر بحر الرّمل من البحور الأكثر شيوعاً في القصائد الحرّة، وذلك للسهولة التي تتمتع بها تفعيلاته، و«لسرعة النّطق به، وذلك لتتابع تفعيلة فاعلاتن»<sup>7</sup> فهو يتألّف من تفعيلة واحدة وهي «فاعلاتن» وغالباً ما يكون ضربه وعروضه على هيئة «فاعلن» أو «فعّلن» أو «فعّلن» كما في القصيدة التي ندرسها.

فاعتماد تفعيلة واحدة مع جوازاتها يعطي نوعاً من السّلاسة والتّناسق في الكلام، ما يصحّ أن يُصّب عليها الإيقاع الموسيقيّ الذي تفرضه الآلات القرعيّة، وما يعطي المؤلّف الموسيقيّ (الملحن) القدرة على وضع النّوتات الموسيقيّة لتلائم المحتوى، أمّا من ناحية المعنى فهو يمدّ الشّاعر بحريّة أكثر في التعبير عمّا يختلجه من دون التقيّد كثيراً، فيصيّغ نصّه كما يشاء.

## 2- الجانب الثّاني: النّصّ باعتباره خطاباً منطوقاً (دراسة صوتيّة للّحن وللتّغيم).

بعد اختيار النّصّ وتسلّيط الضّوء على الفكرة التي تريد المطربة معالجتها، لا بدّ من وضع الإطار الصوتيّ أو النّطقيّ الذي يجب أن تقول به المطربة هذا النّصّ.

وقد بدأت الأغنية بصوت الكورال يرددون كلمة (آه) بإيقاع متكرّر بطيء يرافقه صوت آلات موسيقيّة هادئ وحزين، وكأنّهم يمهدون الطّريق أمام المطربة لتبدأ غناءها، فيحيل إلى المستمع أنّ هذه الأغنية هي أغنية يغلب عليها الطّابع الحزين والهادئ والشّجيّ.

من ثم تبدأ نانسي بالغناء: «آه يا عشاق بيروت القدامى» وتكرّرها مرّتين بطريقة بسيطة من دون تكلف مستخدمة صوتها في حالة «القرار» وبأسلوب يغلب عليه الطّابع الحزين.. من دون استعمال أي آلات قرعيّة وذلك لإعطاء الأغنية الطّابع الهادئ الجاذب للاستماع،

البعيد كلّ البعد عن إثارة الحماس، بل يسعى إلى خلق جوٍّ من الحزن والكآبة عند المستمع، وكأنّها تشكي همّها وتناجي روحها وتريد من المستمع أن يشاركها حزنها على بيروت. من ثم تبدأ بعبارة «إن بيروت هي الأنثى التي تمنح الخصب» حيث تبدأ الإيقاعات بالعمل خصوصاً آلة «الطبلّة» مع الموسيقى (الكمان بشكل خاص) لجذب المستمع كي لا يملّ من (الرّيتم) البطيء من دون أن يكون الهدف حماسيّاً، وكي تشد انتباه السّامع إلى هذه العبارة المهمّة وهذا الوصف المميّز، مع ارتفاع قليل في حدّة الصّوت، أو ما يعرف عند الموسيقيّين بارتفاع قليل في طبقة الصّوت.. من ثم يتوقف الصّوت فجأة لخلق مساحة من الهواء تستخدمه المطربة في اعتماد درجات أعلى من الصّوت في قولها «وتعطينا» من دون استعمال أي صوت موسيقيّ أو قرعيّ، ومع قولها «الفصولا» التي تمّد فيها صوت الصّاد بشكل واضح، يبدأ صوت الفيولون يظهر، من ثم تعود نانسي إلى الطّبقّة العادية أو «القرار» في إخراج الصّوت، ويقوى فيه صوت الإيقاع وصوت الموسيقى الذي يذكرنا بأفلام الرّعب، وتغنّي المطربة جملة «إن يمت لبنان متم معه كل من يقتله كان» بطريقة التحذير والتنبية والتهديد، ويرافقها الأداء الكورال لإضفاء جوٍّ من الغموض والإثارة، لتنتهي غنائها بـ «كان القتيل» حيث تمّد اللام (قتيلااا)، ليخرج بعده صوت «الدرامز» بطريقة مفاجئة لينقل بنا إلى المقطع الثّاني الذي تنطلق به المطربة بالغناء بحريّة متنقلة بين القرار والجواب (الطبقات العليا)، ويرافقها الأداء الكورال الموسيقيّ، وترافقهم معظم الآلات الموسيقيّة والإيقاعيّة التي ترافق معظم الفنانين في العادة، لأنّنا في النّهاية أمام عمل غنائيّ سريع وعصريّ، وهنا نانسي تتكرر «آه يا عشاق بيروت القدامى هل وجدتم بعد بيروت البديلا، إن كوناً ليس لبنان فيه سوف يبقية عدماً أو مستحيلا» مرتين بأسلوب سلس ومرن وفيه نفحة من الفرح والتّأكيد على مضمون هذين البيتين.

وبعد هذا الأداء، تتوقّف نانسي والكورال عن الغناء لتلعب الآلات الموسيقيّة والقرعيّة بحريتها، من ثم تكرر عبارة «إن كوناً ليس لبنان فيه سوف يبقى عدماً أو مستحيلا»، بالطريقة نفسها التي كانت تغنّي فيها أي المليئة بالفرح والحرص على تأكيد أهميّة وجود لبنان.

وتستمر هذه الموسيقى الفرحة التي تنتجها الآلات الموسيقيّة، ولكن مع إيقاع أكثر بطءاً وأكثر حضوراً من ذي قبل، لأنّ هذا المقطع ستوجه فيه المطربة النّداء فتتشد نانسي «كل ما يطلبه لبنان منكم» وتشدّد على تسكين الميم وتسكت.. فتتوقف الموسيقى السّابقة لتبدأ موسيقى تحذيريّة أخرى يصاحبها ظهور قوي لصوت «الدرامز» ويقول هنا الكورال: «أن تحبّوه» ويكرّرونها ثلاث مرّات وليس التّكرار إلا دلالة قوة وتأكيد، إضافة إلى طريقة

أدائهم لها التي تحمل طابع الشدة والقوة وليس الخذلان والانكسار، ويتوقفون بعدها لتصدر موسيقى رقيقة جدًا لتعيدنا إلى حيث بدأنا في الأغنية، حيث يغلب طابع الحزن والانكسار، وبعدها تقول المطربة «أن تحبّوه قليلا» مع مدّ الواو والياء من دون الانتقال إلى طبقات أعلى وإلى استعراض عضلات في المقطرة الصوتية كي تحافظ على الشجن والحزن في قولها «تحبّووه قلييل»، مع استعمال لآلة موسيقية واحدة، وفجأة تتغير الموسيقى وتعود الآلات جميعها إلى العمل وخصوصًا «الدرامز» و«البيانو» لتردنا إلى حالة العنفوان والقوة في الموسيقى لتختم نانسي والكورال الأغنية في قول «لا» في نهاية « قليلا»، وهي النغمة التي أخذت من الفنانة الجهد الصوتي الأكبر حيث فتحت صوتها لمدة عشر ثوان تقريبًا. وهنا نلاحظ ارتفاع صوت المطربة تدريجيًا منتقلة من القرار إلى أعلى الجواب دلالة على التركيز على أهمية ما تقول، وسعيًا منها إلى ختم أغنياتها بأسلوب بعيد عن الانكسار والخوف لتعطي المستمع نوعًا من استعادة الهمة والحماس.

ويجدر الإشارة في هذا الجانب أن الفنانة نانسي عجرم تعدّ من المطربات العربيات التي تمتلك صوتًا عذبًا يتلاءم كثيرًا مع هذا اللون الغنائي الذي قدّمته، فكانت خطوة جريئة وناجحة منها، أن تقدّم لونا غنائًا مختلفًا عمّا قدمته سابقًا، وهي النجمة التي أجمع العرب وغير العرب على اختلاف أجناسهم واختلاف مراحلهم العمرية على محبتها.

### 3- الجانب الثالث: النصّ باعتباره مشهدًا تمثيليًا (أي الفيديو كليب).

شكلت ظاهرة «الفيديو كليب» قضية إنسانية مجتمعية، و«الفيديو كليب» هو عبارة عن عرض لمشاهد ولقطات مصوّرة أو مبتكرة مرفقة بأغنية بهدف التسويق لهذه الأغنية بطريقة أو بأخرى.

وبناء على السابق، يعتبر الفيديو كليب دعاية ترويجية للعمل الغنائي، يذاع على شاشات التلفزة في أغلب الأحيان، وبات الآن يُعرض على الهواتف الذكية من خلال برنامج «اليوتيوب» حيث أصبحت نسبة مشاهدته (الرّاتينغ) تحدّد نجاح الأغنية أو لا.

وبعد هذا التقديم، سنتناول فيديو كليب الفنانة «نانسي عجرم» للأغنية التي قمنا بتحليلها مسبقًا. قبل البدء، كلمة حق تُقال، إنّ هذا النوع من الفيديو كليب ليس من الأنواع التي تُستعمل كثيرًا في الأغاني، وخصوصًا الأغاني الوطنية. فنقطة تحتسب لنانسي خروجها على المألوف حتّى في طريقة ترويجها لأغنياتها.

ويعتبر هذا الكليب فيلمًا قصيرًا يتألف من مقدمة وتسلسل أحداث وخاتمة. ويتناول قضية، أو مشكلة يُعاني منها المجتمع اللبناني وهي هجرة الأدمغة أو هجرة الشباب. وباعتباره فيلمًا، يبدأ هذا الفيلم بعرض تقديمي للعائلة اللبنانية البسيطة التي تتألف من

أب وأم وإخوة يعيشون في بيت بسيط ليس فيه خدم ولا فيه طهارة، وذلك ليصل هذا العمل إلى كل الفئات المجتمعية، لأنّ كل اللبنانيين في الوضع الحالي يعيشون كأسر بسيطة خصوصاً في ظل الأزمة الاقتصادية التي تنهش لحم شعبه.

فيبدأ الفيلم بعرض لشابة تجلس في غرفتها، تظهر عليها ملامح الحزن من شدة التفكير وقد بيّنها المخرج من خلال تسليطه للكاميرا على صورة الفتاة وهي تفرك يديها بعضها ببعض، وهذا العمل لا يقوم به الإنسان إلّا إذا كان متوتّراً وحزيناً وشديد التفكير.

وهذه الشابة تُمثل الأخت الكبيرة في المنزل التي لم تتزوَّج، وهي تكون في أغلب الأحيان بمثابة الأم، وهي تكون الأقرب إلى إخوتها وخصوصاً الشّباب منهم، فهي التي تدافع عن إخوتها دائماً، والتي تفتح لهم باب المنزل إذا تأخروا في العودة، وإلخ...

من ثم ينتقل المخرج إلى المطبخ لتصوير صورة الأم التي تعدّ الطّعام، وهذا حال معظم النساء في لبنان، اللواتي، ولو كنّ موظفات، ملتزمات بالاهتمام بعائلاتهن. فكان هذا المشهد الدليل الأول على أنّ هذه العائلة هي عائلة لبنانية بسيطة. أمّا الدليل الثاني فهو عندما نادت الأم: «يا نبيل افتح الباب» ما يدلّ على عدم وجود شخص مسؤول عن استقبال الزوّار، ويمكن أيضاً أن يشير إلى كرم الضيافة عند اللبنانيين الذين قد يرفضون أن يفتح الخدم الأبواب للضيوف بل يقومون بذلك بأنفسهم وذلك احتراماً وتقديراً للزوّار. من ثم ينتقل المخرج لتصوير شاب في مقتبل العمر يتحدث على الهاتف مع حبيبته، وهي ظاهرة اجتماعيّة مهمّة أراد المخرج أن يُسلط الضوء عليها لبيّين الهدف الذي دعا بهذا الشّاب إلى الهجرة، وهو تأمين نفسه وتمكينها كي يعود ويرتبط بمن يحبّ.

ثم يصوّر الأب الذي يقوم بفتح الباب لأبنائه المتزوجين. فيدخل أحفاده راكضين فرحين بمجيئهم إلى بيت جدّهم، فتسارع والدتهم (الابنة) بإعطائهم أمر بعدم الرّكض في البيت، فيقول والدها: «طولي بالك عليهم». وهنا حاول المخرج أن يبيّن كيف دائماً يدافع الجد عن أحفاده، وكيف أنّ المثل الشائع: «ما أعز من الولد إلّا ولد الولد» حقيقة موجودة وشائعة. ولا ننسى استخدام الابنة والصّهر لعبارة: «بونسوار» بدل عبارة «مساء الخير»، والتي أصبحت جزءاً من ثقافتنا؛ فاللبنانيون معروفون باستخدامهم للغات الأجنبية بكثرة حتى أصبحت عادة من عاداتهم، وخصوصاً الفرنسيّة، وذلك عائد للمدارس وللتعليم في لبنان الذي يشدّد على أهميّة تعلّم اللّغات وضرورتها.

من ثم يُظهر المخرج صورة المطربة وهي الأخت الكبيرة في هذا الفيديو كليب حيث تظهر ملامح السعادة عليها مع دخول إخوتها المنزل، وهذا المشهد رافقه حديث بين الأب والصّهر القادم حاملاً هديّة بيده، والتي تبين عادة من عادات الشّعب اللبناني، فالأب

يشكر صهره على إحضاره هذه الهدية، وفي هذه الحالة يعتمد اللبنانيون على الشكر غير المباشر «لشو معذب تفضل تفضل».

هنا بدأت الموسيقى مع صوت الكورال الخفيف الذي تحدثنا عنه سابقاً يرافق تسلسل الأحداث، فنجد اقتراب الأولاد من خالهم المسافرين وحوار مقتضب بين الخال وأبناء أخته ومشاكسات، فيقول الخال «كيفك يا أزعر» للطفل الصغير وهذه العبارة تستعمل كثيراً في مجتمعنا اللبناني مع الأطفال الذكور للتعبير عن الولد الشقي، من ثم دخول الأخ الأكبر العريس الجديد مع عروسه، وتبادل القبل بين الإخوة.

كذلك سلط المخرج الضوء على صورة الأم اللبنانية المنهمكة في تحضير الطعام، واهتمامها بأبنائها وتحضيرها ما يحبون، خاصة عندما دخل العريس الجديد إلى المطبخ وتذوق طعم «التبولة» بعدما سألته أمه عن طعمها...

كل هذه المشهدية كانت قبل البدء بالغناء ليوصل المخرج الفكرة العامة لمضمون فيلمه القصير ولنحوى القصيدة.

بعد ذلك بدأت نانسي الغناء، وهي في غرفتها وفي عينيها دموعاً وكأنها تحاول أن تبقى مختفية عن الأنظار كي لا يرى أحد حزنها، ورافق غنائها الحزين مشاهد توضع السفرة، ولعب الأطفال مع خالهم المسافرين، واقتراب الجميع لتناول الطعام.

من ثم علت أصوات الموسيقى وأخذ الفيلم يأخذ «ريتماً» سريعاً في عرض الأحداث، وكيف تتناول هذه الأسرة الطعام على الطاولة وكيف يتبادلون الأطباق، وكيف يتحدثون، ومن ثم أتت الأخت الكبيرة بقالب الحلوى الذي أحضرته مفاجأة لأخيها المسافرين كاتبة عليه: «كل التوفيق». بعد ذلك بدأ الشاب الذي يريد السفر بالرقص مع أمه ما حمس الجميع على الرقص.

فجأة، توقفت الموسيقى وتسلطت الأضواء على الهاتف الذي يرن ولم يكن سوى رنين هاتف الشاب الذي يريد السفر وكأنه العنصر المحوّل للأحداث من حالة الفرح إلى حالة الحزن، لأن رنين الهاتف لم يكن سوى اتصال من سائق (التاكسي) الذي يريد أن يقلّ الشاب إلى المطار.

تغيّرت الملامح وتبدّلت المشاعر وعاد الفيلم من دون أي موسيقى يصوّر مشهداً عائلياً بامتياز يقوم على توديع المسافر لأمه التي تذكره بالأغراض التي وضعتها له في الحقيبة، وهي «مونة» من صنع يديها «كيلو زعتر، ومرطبان مربى ورطبتين خبز» محاولة إخفاء غصتها وحزنها بتوصية الابن بحفظ الخبز في البراد كي لا ي تلف. وبعدها يقوم الأخ بحضن أخته الكبيرة ومحاولة تذكيرها بالاهتمام بسيارته التي تركها. هنا ينتهي المشهد

بخروج الجميع من المنزل مرافقين المسافرين إلى مدخل العمارة التي يسكنها، ثم تعود نانسي إلى الغناء لتنتهي أغنياتها باللاحق بالجميع لتوديع أخيها، ولم يبقَ في المنزل سوى الأم، التي لم تكن إلا بيروت الأنثى، الأم، التي ودعها أحد أبنائها، وهذا أكبر ألم تعيشه الأم، عندما ترى أحد أبنائها يبتعد عنها قصرًا وغضبًا، فلم يكن لديها حل إلا الصمت.. وهكذا بيروت صمتت وما تزال صامته.

نتهي حديثنا بمجموعة من النتائج، بعد عرض الهدف الأساس الذي قامت عليه هذه الدراسة:

الهدف هو تسليط الضوء على الظاهرة الفنية التي أحدثتها إحدى أهمّ نجومات العالم العربيّ ( 29.6 مليون متابع على انستغرام، 21.8 مليون على فيسبوك، 5.1 مليون مشترك على اليوتيوب ...) وهو العودة إلى الشعر العربيّ الفصيح في الأغنية الوطنية.

#### النتائج:

— الشعر العربيّ الفصيح الحرّ، مهما تبدّلت وتحوّلت الأزمان والأحوال، سيظلّ المنافس الأوّل لكلّ الأشعار في مختلف اللهجات وتُشكر نانسي على هذه المبادرة. المتعة التي يقدمها الأدب التفاعليّ والإفادة التي يضيفها على النصّ ما يجعل النصّ العربي يصل إلى العديد من فئات المجتمع وإلى مختلف الفئات العمرية. الالتفات إلى الشعر العربيّ الفصيح أزال بعض الغموض عن الصورة المأخوذة عنه، ما سيجعل النظرة إلى الموروث تختلف.

إن الصورة التي صوّرها الشاعر بيروت صورة استثنائية ومختلفة وغير نمطية. الشعر العربيّ الفصيح يجب أن يُنظر له من منظور تفاعليّ رقميّ حديث كي يعاد إليه رونقه وأهميته.

المجتمع اللبنانيّ يعاني من مشاكل كبيرة أهمها ظاهرة الهجرة. التسلسل المنطقيّ والتفاعل بين الأحداث والموسيقى والنصّ الشعريّ المغنّى جعل من هذا العمل عملاً فنيّاً راقياً يرتقي إلى مرتبة عالية جداً.

#### خاتمة

بعد عرض هذه النتائج، نخلص إلى القول بأنّ لغتنا الفصحى التي تعاني من مشاكل وحروب كثيرة على الصّعدين اللّفظيّ والنّطقيّ، بسبب تفسّي العاميّة واللّغة المحكيّة، تحتاج إلى إعادة النظر فيها، والسعي إلى إبرازها من خلال أعمال غنائية ومسرحية تعبّر بشدّة وصلابة عن مواقف حياتيّة نعيشها لا نستطيع إلا باللّغة الفصحى أن نعبر عنها، ولا بدّ منها أن تلائم التطوّر الفكريّ والدوقيّ للأجيال الجديدة، وتساهم في تنمية هذين

الأخيرين وترقيتهما، كي نعيد للغتنا الأم ولو قليلاً البعض من رونقها.

#### قائمة المصادر والمراجع:

##### 1- الورقية:

أبو ريّان، محمد علي: فلسفة الجمال ونشأة الفنون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ط8. خلوصي، صفاء: فن التقطيع الشعري والقافية، منشورات مكتبة المثني، ط5، بغداد، 1977. قباني، نزار: ديوان «إلى بيروت الأنثى مع حبي»، منشورات نزار قباني، بيروت، 1978. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليّة، ط4، مصر، 2005.

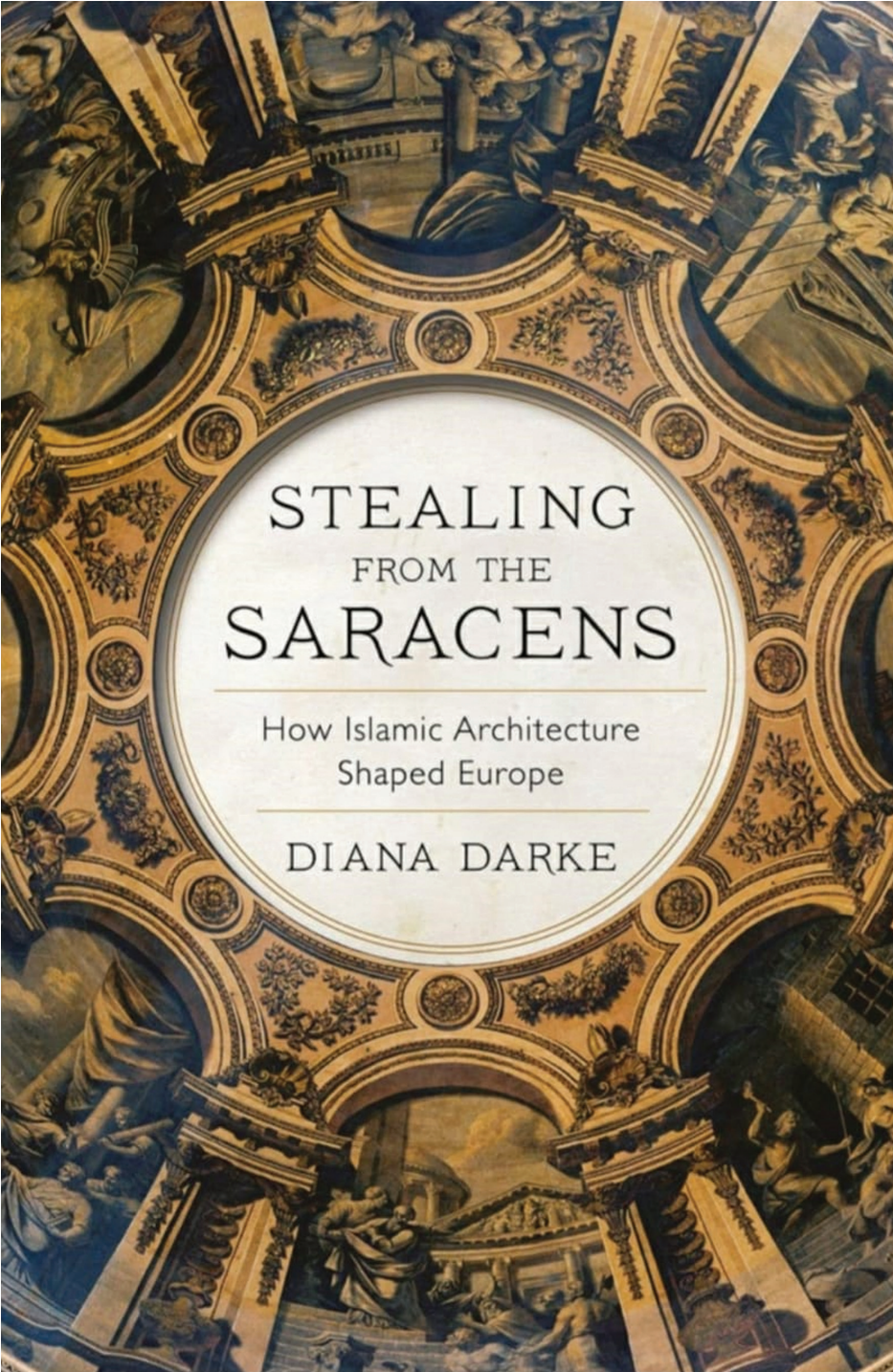
##### 2- الإلكترونية:

صحيفة الثورة أونلاين نبض الحدث، يومية سياسية تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر، دمشق.  
معجم المعاني الجامع، [www.almaany.com](http://www.almaany.com).

#### (Endnotes)

- 1- تعريف معنى «فن» في المعجم الوسيط، ص703.
- 2- راجع كتاب فلسفة الجمال ونشأة الفنون للدكتور محمد علي أبو ريّان، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ط8.
- 3- اميل لاسباكس (1888-1966)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي درس في جامعة بودرو. تأثر بفلسفة اسبينوزا( من موقع صحيفة الثورة أونلاين نبض الحدث، مقال بعنوان: وكيبيديا ولاسباكس).
- 4- راجع فلسفة الجمال ونشأة الفنون للدكتور محمد علي أبو ريّان، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ط8، ص 180 - 174 - 182.
- 5- ”تعريف و معنى غناء في معجم المعاني الجامع“، [www.almaany.com](http://www.almaany.com)، اطلع عليه بتاريخ 2020-10-26. بتصرّف.
- 6- القصيدة من ديوان «إلى بيروت الأنثى مع حبي» بعنوان: «إلى بيروت الأنثى مع الاعتذار» ص 360-357.
- 7- فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، ص133.





# STEALING FROM THE SARACENS

How Islamic Architecture  
Shaped Europe

DIANA DARKE

# في مواجهة الكورونا.. مُلزَمون بالتفلسف أيضاً!

لارا ميشال حداد

طالبة دكتوراه في

الفلسفة / الجامعة

اللبنانية

مدخل

إن الخروج من عام 2020 إمتياز يستحق أن يُسجّل في السيرة الذاتية لكلّ منّا، وذلك إذا خرج منها صحيح العقل والجسد والإيمان، إلا أنك مع هذا الخروج المأمول مُلزم بالتفلسف والتفكّر وتأويل النصوص.

بعد مرور عام على فيروس كورونا منذ الإبلاغ عن أول حالة إصابة بمدينة ووهان الصينية، وفي أواخر شباط الماضي، تمّ تسجيل أول حالة في لبنان، ولا يزال العالم يعيش، مهولاً، صدمة الجائحة التي أصابت الملايين من الأنفس، غير مفرّقة بين الناس.

فرضت العديد من الدول حظراً كاملاً على شعوبها للحفاظ على إجراءات التباعد الإجتماعي باعتبارها خطوة أساسية لتقليل إنتشار الفيروس، وتخفيف العبء عن قطاع الصحة، ولكن بمجرد رفع هذه التدابير سيعود هذا الوباء إلى الظهور، ويبقى السؤال الذي يتعطش الجميع لسماع إجابة عنه: متى ستعود الحياة إلى طبيعتها؟ كيف تأقلم الإنسان مع هذا الوضع؟ أين الله في زمن كورونا؟ هل اختبئ الله؟ وهل انتهى دوره؟ أم أن الفيروس هو غضب من الله؟ هل المؤمنون لا يُصابون بالعدوى؟ وما موقف رجال الدين من الفيروس؟ ما جدوى العلم في مواجهة الفيروس؟ هل الثورة الرقمية إيجابية؟ أم أنها تحمل في طياتها سلبيات؟

### التعايش مع الفيروس الموسميّ

بداية، وبحسب الدراسات التي تم إنجازها إليها إن هذا الفيروس جاء ليبقى، وسيصبح موسميّ مثل نزلات البرد وغيره، ولكن سرعة انتقال هذا الوباء ستكون الأعلى في الأشهر الباردة من السنة، إن العمل الأنسب، إذًا، هو إبقاء العدوى محصورة حتى يتوافر اللقاح، الذي يعطينا المناعة اللازمة لوقف انتقال الفيروس، على ما يقول العلماء.

انتقل الإنسان من حالة هلع وقلق بالغين إلى المساكنة والتأقلم مع وباء كورونا، تقبّل الإنسان هذا الوباء بأسابيع قليلة، وتعايش مع إرتفاع أعداد المصابين به، فاستأنف أغلب المواطنين أنشطتهم اليومية وعملهم المعتاد، وعادت عجلة الحياة إلى ما كانت عليه قبل الوباء، ولكن الفرق، اليوم، ان الإنسان يأخذ بالإعتبار بعض الإحتياطات المفروضة عليه لتجنّب الإصابة بالفيروس.

حتى إن المُصابين بما يُسمّى «بالوسواس القهري» عند فرويد، قد تفوّقوا على المعاناة النفسية واعتادوا على الواقع الجديد شيئاً فشيئاً، وعادوا إلى حياتهم الطبيعية. إن التخوّفات التي حصلت عند الإنسان، في بداية انتشار فيروس كورونا، هي شيء طبيعيّ، لكن الخوف ألزم الإنسان على التعامل مع الجائحة بطريقة سلوكية ونفسية ومنطقية وعقلانية بهدف تأقلمه مع الظروف التي فرضها هذا الطارئ الصحيّ.

تملّك الخوف بعض القلوب، ولكن الحماية الجسدية للأفراد، كفرض الحجر الصحي ووضع الكمامات وتعقيم كل شيء، غيّرت وأثّرت في النواحي الإجتماعية، فأضحى التعايش مع الفيروس حذراً، والإلتزام بالبُعد الإجتماعي بات مُحتماً ويترتب عليه العديد من الآثار النفسية والإجتماعية السلبية.

لكن حب الحياة، وليس الخوف من الموت، ألزم الإنسان على التأقلم مع جميع المتغيرات المحيطة به، فالإنسان، فطرياً، قادر على التعايش مع مختلف الوضعيات، بالمقابل إن العديد من البشر يستصعبون التكيف مع الظروف الراهنة، فتزداد الضغوطات عليهم معتبرين أن التباعد الإجتماعي ليس أمراً سهلاً، وهو منافٍ للطبيعة البشرية، «فالإنسان كائن إجتماعي بطبعه» بحسب قول ابن خلدون يتميّز بعقله ولديه حاجات ضرورية لا يستطيع تلبيتها بمفرده، لذلك إن التعاون داخل الجماعة يسهّل الكثير على الإنسان.

### أين الله في زمن كورونا؟

من الناحية الدينية، من النافل القول أن الكنائس والجوامع خلت من المؤمنين، يغيبون لأول مرة عن المناسبات والإحتفالات الدينية، الكهنة يقدّمون الذبيحة على مذبح الرب منفردين، والشيخ يصلي وحيداً في المسجد، والكثير شكك بوجود الله في ظل هذا الوباء،

مع أن المتعارف عليه ان الله لا يحويه مكان ولا يحده زمان، فهذان البُعدان محصوران بالكائنات الحية فقط، والله هو خالق كل شيء.

من المعيب ان نسأل «أين الله»، فالمكان هو نسبيّ، وعليه لا يجوز وصف الله بالحوادث او حده بمكان معين وبجهة معينة، الشرّ يقترب من البشر، ومن أكثر ظواهره الإلحاد والبعد عن التدين وعن الصلاة، ومن الممكن أن تكون أحد أسباب الوباء، العودة إلى الله والإيمان والتوبة والصلاة، ومن المؤكد، في ظل هذا الوباء، إلترام البشر بالصلاة، بالأخص، عندما ينزل بهم بلاء.

ها هي الروح الإنسانية تطلب المغفرة والرحمة من الخالق، والخاطئون يسارعون للرجوع إلى الله والدعاء له والإستغاثه به والتضرع إليه. فالكثير ممن أغفلوا الصلاة استغلوا فترة الحجر الصحي المفروضة بسبب الفيروس في اكتشاف المزيد عن الدين، فأعدّ الحجر فترة تيقّظ روحيّ ودينيّ في ظل الاحداث التي تعصف بالبشرية.

إن هذا الفيروس صغير جداً لدرجة أنه لا يُرى بالعين المجردة، ولكنه ساهم في ولوج نور الهداية والإيمان إلى قلوب الناس، فسمع صوت الأذان والصلوات السماوية يدخل إلى أعماق القلوب، بكل صدق ووجدان، ويُنبّه الإنسان إلى حقيقة انه من خلق الله.

#### الفيروس بين العقل والنقل

بالمقابل، بعض الناس لا يستجيبون للدعوات، للوقوف امام عجائب الله، إلا إذا رأوها بالعين ولكن الإنسان بطبيعة شعوره، بضعفه وعجزه عن إتمام بعض من أعماله، نراه يعيد حساباته مفكراً بعمق ومقارناً بين الماضي والحاضر لاتخاذ القرار المناسب.

فالملاحدون واللا دينيون يعتبرون أن هذه المصائب والكوارث ليست إلا عوارض طبيعية، يعود سببها للطبيعة وحدها فقط، ناكرين أي سبب غيبي غير خاضع للتجربة والملاحظة في مختبراتهم، فهذه المصائب قد أصابت آبائنا منذ القدم وعادت بفعل الطبيعة وحدثت في زمننا الحالي.

إن العديد من البشر اعتمدوا على القوة البشرية للتغلب على هذا الوباء غافلين قوة الله، سخر العديد من العلمانيين والملحدين من الذين تهافتوا إلى الصلاة والدعاء لئيبعد عنهم الله شرّ الوباء، معتقدين أن الدعاء ينفع في حين ان الأخذ بالإحتياطات الصحية هي الأساس، والحقيقة أن هؤلاء المعترضين لم يفهموا فلسفة الدعاء في الأديان، جاهلين أن الدين أمر الإنسان بالصلاة والدعاء والتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: «لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى»، «أعقلها ثم توكّل».. الخ.

يأتي الرد على الملحدين أنه مهما أخذ أحدهم بالأسباب من علم وتجارب إلا أنها تبقى

محدودة ولا تلغي تعرضه للضرر وإصابته بالوباء، ولكن اللجوء إلى الله والتوكل عليه أمر ضروري ومحتم.

إن المريض لن يُشَفَّ إلا باللقاح والعلاج، لذلك على رجال الدين أن يرحموا البشر، بعضهم، يدعون إلى طاعة الله عبر الترهيب، مستغلين تأثير الكورونا على الناس، ومنهم أصحاب النوايا السليمة، ولكن المستغلين قد تختلط عليهم الأمور فيرهبون الله ويصلون، وهم مرعوبون، داعين إلى تحقيق مبتغياتهم الدنيوية.

البعض الآخر من رجال الدين يقومون بترغيب الجنة ولكنهم ليسوا من أصحاب النوايا السليمة فهدفهم الطاعة إلزام المؤمن بالطاعة في الدنيا، معتبرين أن الطاعة هي التي توصل إلى الجنة في الآخرة. أما البعض الآخر فيدعون إلى المعرفة الحقيقية، لا طمعاً ولا خوفاً، بل هم لا يتغيرون ولا يتأثرون في أي زمن حتى في فترة كورونا، فهم يعرفون الحقيقة ولا يرون البلاء والوباء إلا أنها وجهاً من نظام الكون المتوازن الذي يدل بخيره وشره على الحقيقة المطلقة.

إننا نعيش في فترة فريدة من نوعها، ففي الماضي، وفي أوقات الكوارث الطبيعية، توافد الناس إلى الكنائس والجوامع وتمت الدعوة لإقامة الصلوات، ولكن أحداث اليوم مختلفة: صحيح قد طلبت الصلاة، ولكن طُلب أن يحضر إلى الكنيسة والجامع أقل عدد من الناس، وفي فترات محددة، تم إغلاق المعابد الدينية في جميع أنحاء العالم للحد من انتشار الفيروس.

مثلاً، وقف البابا فرنسيس الثالث وحيداً في عيد الفصح، واحتفل بالقداس دون أي مشاركة عامة بسبب تفشي وباء كورونا، حيث دعى الجميع من أنحاء العالم للصلاة والتضامن من أجل مواجهة الوباء.

صحيح أن الصلوات كانت تُتلى دون أي حضور جسدي إلا أن المنصتين إلى هذه الصلوات لا يمكن عدّهم، فلا يجب حصر المؤمنين والمصلين فقط بالحضور الجسدي، إن في الكنائس أو في المساجد، بل إن الإيمان الموجود داخل البشر أقوى من مجرد وجود مادي للأجسام، فالخطبة التي ألقاها البابا ألغت الغياب، لأن عِظته دخلت إلى كل منزل من خلال شاشات التلفزة والراديو، أيضاً إن مشهد حرم مكة المكرمة فارغاً هو حدث غير مسبوق ولكن المتعمرين أكثر.

كما وحصل إشكال في إحدى الكنائس اللبنانية من قبل المؤمنين عندما أصرّ الكاهن على عدم إداء طقس المناولة كالمتعاد، أي رفض الكاهن وضع قطع القربان في فم المؤمنين، وذلك بناءً على قرار السلطة الكنسية العليا، كإجراء للوقاية من إنتشار الفيروس.



يتشبَّث المؤمن بالإيمان والصلاة معتبراً أنه بالإيمان يقدر الله أن يحمي أبناءه ويشفيهم من أي وباء وشر أو خطر إلتقاط العدوى، ولكن التجربة أثبتت العكس، فالكثير من الكهنة والشيوخ قد أصيبوا بالفيروس، لكن الصلاة قد تمنح المؤمنين الراحة والطمأنينة والتغلب على الخوف والخشية من المرض.

السلطة الدينية لها تأثير على الشعب أكثر من السلطة السياسية، أو بالأصح إن بعض المعتقدات الشعبية الصغيرة تسطو على العقل البشري، فهناك مثلاً بعض المعتقدات ليست مكتوبة في نص ديني ولا في كتاب مقدس ولا في شريعة ولا في تعليم، مثلاً فكرة إلغاء صلاة الجمعة في طرابلس أو عدم زيارة أماكن دينية لا يمثل الناس لهذا القرار لأنهم مأخوذون بالعواطف الدينية وليس بالمعتقدات.

الجميع ينتظر معجزة تفوق الإدراك للقضاء على الوباء، وكل يوم يزيد يأسنا في الإنتظار، فهل صلواتنا نابعة من القلب أم مجرد واجب وفرض على الإنسان؟ سقطت كل الضمانات المالية والإقتصادية وحتى الإجتماعية، والصحية، في زمن كورونا، والعودة إلى جوهر الحياة والإيمان يكسر بعض الإنحطاط الذي يعيشه الفرد.

ان هذا الفيروس غير المرئي قد اثبت فعاليته على الغني والفقير، على الصغير والكبير، على الجميع دون استثناء، فالكُل معرّض للإصابة بهذا الوباء، وأكبر الدول لم تجد حلاً، حتى اليوم، يحُدّ من الإبتلاء به.

ان صراع العلم والله في عقل الإنسان ليس بجديد، ولكن تَمَّت البرهنة على أن عبادة المال تَسْقُطُ أمام الوباء الذي ضرب الأغنياء والفقراء، فأكبر الدول والشركات فقدت الملايين، ذهب البعض إلى عبادة العلم بسبب الحاجة إليه والبعض الآخر قد عاد إلى عبادة الله.

وقع المؤمنون في فخ الجهل، هرع الناس إلى الكنائس والمساجد وتهافتوا لتناول بعض الرموزات المقدسة فوضعوا العلم مقابل الإيمان بعد اعتبارهم أنهما متناقضين، ولكن القيام بهذه الأعمال وضعت الدين في مواجهة العلم، غير عالمين أنهم يصغّرون الله بهذه الطريقة ويضعونه في مواجهة مع فيروس صغير.

ليس على المؤمن أن يدفع الله للقيام بمعجزة، لان الله إن لم يقم بما نبتغي نكون قد وضعناه كدليل في أيدي الملحدين والعلمانيين حيث يظهر الإيمان باطلاً، لذلك يجب الإنتظار لإيجاد دواء لكورونا، فكل من العلم والإيمان عمله الخاص، الكنيسة هي التي ساهمت في تطور العلم والطب، الدين لا يُغض العلم، فهما يقومان على جناح العلم والإيمان معاً.

اختلفت وقفة كل من رجال الدين ورجال العلم مقابل الفيروس، فالعالم هدفه إيجاد حلّ والقضاء على الفيروس من خلال اكتشاف المصل واللقاح، أما رجال الدين فأردوا أن يزرعوا في الرؤوس فكرة أن هذا الوباء هو عقاب من الله وامتحان للناس. إن أكثر الناس في العالم هم من الطبقة الفقيرة، وهم الأكثر تضرراً من هذا الوباء، قديماً كانت تعتبر بعض المؤسسات الدينية أن الذين أُصيبوا بالمرض هم من أغضبوا الله، وأن الله قد أرسل هذا الفيروس نتيجة غضبه على الإنسان الذي ابتعد عن الإيمان مُهملاً صلواته، لكن الأكثر تديناً هم الفقراء وكبار السن، لأن منفذهم الوحيد هو اللجوء إلى الله، لكن طريقة التفكير العلماني الحديث أسقطت التفكير القديم، فعلماء الدين درسوا مصدر الفيروس وتأثيره وبُعده الأخلاقي والاجتماعي واللاهوتي محاولين إيجاد طرق العلاج.

عانت البشرية مثل هذه الأوبئة والأمراض منذ زمن طويل، ولكن هذا الفيروس بالذات مختلف عن فيروس «إيبولا» و«إيدز» وغيرهما، فالنظر إلى الفرد أصبح «جسد» مشكوكاً به انه حامل العدوى، والإجراءات الوقائية غيّرت في جوهر الفرد وخصوصيته وحتى أخلاقياته، حيث تغلبت عليه ثقافة الخوف، أي الخوف من الوباء غير المرئي، الوباء المختبئ في جسد الآخرين.

#### الحاجة إلى التقنيات الرقمية

إن هذه الجائحة غيّرت عاداتنا العقلية والحضارية، فاختلفت طريقة التفكير تحت ضغط الهلع، ففي الغرب مثلاً، وبسبب ضغط المرضى، استقبلت المستشفيات الفئات العمرية المتوسطة والصغيرة مؤمنة لها العلاج للتغلب على الوباء، في حين تركت كبار السن يلقون حتفهم بسبب الأعداد الهائلة التي وفدت إلى المشافي لتلقي العلاج، فهي غير مجهزة لاستقبال كل المصابين بالوباء، ولكن بعد مرور أسابيع وجدت حلاً مناسباً في بناء المستشفى الميداني الذي ساهم في تأمين أماكن وعلاجات للمصابين.

حتى أن هذا الوباء فرض عليها استخدام التقنيات الرقمية لتلبية احتياجاتهم في كافة المجالات منها التربوية أي التعليم عن بعد، والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية. فالإنترنت مثلاً أضحى ديناً جديداً بعد أن ارتفعت نسبة الاشتراك به، فهو مثلاً ليس المصدر الحقيقي للأخبار بل هو ناقل للخبر، فالأخبار تقتصر على الأشخاص والمؤسسات فقط.

إن الثورة الرقمية سميت بثورة لان أعداد مستخدميها الحاسوب قد زادت حوالي 70 بالمئة، والأغلبية أصبحوا متصلين بالإنترنت في المنزل وخارجه، وتصدرت الأجهزة



الذكية أعلى أرقام مبيعات، فالثورة الرقمية ليست حدثاً تقنياً بل حدث فلسفي أيضاً، لأنها تحقق ما هو واقعي، وتجسّد وتولد الواقع.

إنّقلت الأنشطة الإنسانية إلى العالم الرقمي في العشر سنوات الأخيرة، وقد تغيرت علاقتنا بالعالم بفضل الحواسيب الشخصية والإنترنت والهاتف النقال والذكي، فأصبحت العلاقات الاجتماعية كلها تتم من خلال التكنولوجيا.

إن كل التطورات التكنولوجية والإلكترونية التي تتم تنشأ من خلال ثقافة تمزج بين الفن والتقنيات والصناعة والهندسة والعلم والفلسفة معاً، فمثلاً القطاع التربوي اعتمد كثيراً على عملية التعليم عن بعد، حيث عمل الإبداع، أي الثقافة الفكرية، على تسهيل هذه العملية التي تصب في مصلحة الفكر والعمل.

إن العبقورية الصناعية ارتكزت فقط على العبقورية الإنسانية التي تُبنى على إلهام الفلاسفة، فهي نشاط فكري ذو مستوى رفيع، فالثقافة الفلسفية تهدف لتأمين مستقبل أفضل ومتطور، مرتكزة على الابتكار والإبداع، والمخاطرة لتحقيق النجاح. التقدم التقني في زمن الثورة الرقمية يحمل الأمل للبشرية.

سبق وذكرنا، أن الكورونا فرضت علينا استخدام التقنيات الحديثة، وأن الثورة التقنية اجتاحت كافة مجالات الحياة، بحيث أصبحت من الأساسيات ولا يمكن الإستغناء عنها في حياتنا اليومية، والتعليم عن بعد اليوم في لبنان يتطلب فقط امتلاك جهاز كمبيوتر واتصال بشبكة الإنترنت، للوصول إلى كميات هائلة من المعلومات لا يمكن حصرها.

إن الثورة الرقمية ليس مقيدة بزمان ومكان محدد بل هي مستمرة في تغيير الحياة، والنظام التعليمي مستمر في مواكبة هذه التطورات، فهذه التقنيات سوف تستحوذ على المزيد من الإهتمام في المستقبل، وسيسارع الناس لقضاء المزيد من الوقت على وسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات الإتصال والمعلومات.

#### حسنة الثورة الرقمية

من حسنة هذه الثورة، تعلّم المزيد عن العالم وعن وسائل الإعلام وتكنولوجيا الإتصالات مما سيخلق نوعاً من التواصل الاجتماعي فيتعلم البعض من خبرات الآخرين والتعرف إلى اللذين لديهم نفس الإهتمامات، فيزيد هذا الأمر من فرص الإبداع ويتم التعاون لبناء مشاريع خاصة بالأفراد.

ومع مواكبة التطور إن دور المدرسة سيتغير، فليس هدفها التأكد من مهارات القراءة والكتابة وتعلم العلوم والرياضيات، بل توجيه الطالب إلى المهارة التي يمتلكها وكيفية تطويرها والإستفادة من مهاراته بالإضافة إلى تعليمهم كيفية استخدام المعلومات والفرص

المتاحة أمام الطلاب للإستفادة من هذه التقنيات. إن العمل على كيفية التواصل في الشبكات الإجتماعية هو أمر معقد، لذلك على المدرسة ان تسهل على الفرد وتعلمه كيفية التعاون مع أشخاص مختلفين عنه، وإيجاد حلول للمشكلات التي تواجه الطلاب والتغلب على كافة المصاعب، لذلك فإن دور المدرسة سيتغير، بهدف تعليم التواصل والتعاون وحل المشكلات بالإبداع. يرغب العالم العربي في مواكبة العصر والحاق بقطار التطور التكنولوجي الذي يُسهّل ويطوّر الأنظمة التعليمية واعتماد التعليم الإلكتروني، ولكن النظام التعليمي العربي يشكو من الكثير من الصعوبات والنواقص.

لم يتصور أي من الطلاب أو الأساتذة أن تتبدل طرق التعليم وأن يصبح التعليم عن بعد جزءاً من يومياتهم، ولكن خطر انتشار الوباء أدى إلى اغلاق المؤسسات التعليمية في جميع انحاء البلاد، وقد اتخذت وزارة التربية في لبنان مسارين: يتمثل الأول في البث التلفزيوني لتأمين المحتوى التعليمي وتوفيره لأكبر عدد من التلامذة الذين لا يملكون هواتف أو كمبيوتر أو انترنت، ويتمثل المسار الثاني في شرح الدروس عبر المحادثة بالفيديو بين الأستاذ وتلامذته في أوقات معينة.

تكمن الصعوبة في وجود التلميذ ذهنياً عبر وسائل التواصل، فالتواصل والحركة ووجود التلميذ والاستاذ جسدياً من أساسيات التركيز والمشاركة والفهم في الصف وهذا ما لا يمكن تأمينه في زمن الكورونا.

بالمقابل توصلت بعض الدراسات إلى أن التقنيات والبرامج ساهمت فعلاً في التخفيف من إصابات الناس بفيروس كورونا، فالتجمعات الكبيرة التي كانت تحصل في مراكز العمل والمؤسسات وفي المدارس ساهمت في ازدياد عدد الإصابات، بالأخص أولئك الذين لا يتقيدون بالإجراءات الوقائية.

إن الأعمال التي يتم إنجازها بالعمل الإلكتروني، وعن بُعد، قد قلل أو خفف من عدد المصابين بهذا الفيروس القاتل. كما وان مالك برنامج «زوم» قد تربع على عرش الأثرياء، لأن إنجاز الأعمال تنفّذت عبر الإنترنت والوسائل المرئية، والأولوية كانت لهذا التطبيق. دفعت هذه الجائحة فئة الشباب إلى التسلح بالتقنيات الإلكترونية المتاحة وفق أهميتها في إنجاز الأعمال، ومن المرجح مستقبلاً ان كل وظيفة شاغرة سوف تستقبل من يُبدع في استخدام مثل هذه التقنيات الحديثة، وهذا الأمر يدفع الموظفين السابقين والحاليين والقادمين إلى متابعة تطور مثل هذه التقنيات وكيفية العمل عليها.

كما وان هذه الجائحة سرّعت مرحلة الإزدهار والتطور فانتشرت الدراسات والبحوث

السوسيولوجية والفلسفية متسائلة حول تأثير التكنولوجيا في الإنسان، فتوقف إيقاع الحياة بغفلة، وتوقفت حركة السير ونظام الإقتصاد، فرض هذا الوباء على الإنسان الإنسحاب من الواقع المادي، ومواجهة الحجر المنزلي، فتحولت التكنولوجيا إلى مواجهة الحجر والتدابير الإقتصادية والتعليمية والإعلامية.

في كوريا الجنوبية مثلاً تمت الإستفادة من التكنولوجيا وصّبّها في مواجهة الوباء، حيث تم تتبع أماكن المصابين بالوباء والمخالطين للمصاب من خلال الهواتف الذكية، كما رصدوا عمليات الشراء التي قاموا بها من البطاقات، كما تم تكثيف الفحوص بشكل كبير حيث تمت فحوصات الفيروس داخل السيارات وظهور النتيجة في غضون دقائق.

كما وتمت معالجة الإصابات غير الحرجة والإستشارات من خلال التكنولوجيا وذلك لتخفيف الضغط على المستشفيات، وتركيز هذه الأخيرة على الحالات التي تحتاج عناية فائقة.

لقد تعرضت التكنولوجيا لبعض الإنتقادات والإتهامات في ظل فيروس كورونا، فتوقع البعض أن التكنولوجيا ستؤدي إلى اكتشاف أو فعل شيء يقضي على الجائحة، ولكن، لا يجوز القول أن التكنولوجيا قد خيّبت الأمل، فالذكاء الإصطناعي هو أول من أطلق إنذاراً ضد الفيروس موضعاً خطره، وبفضل الذكاء الإصطناعي تم التوصل إلى التسلسل الجيني لفيروس 19 -Covide خلال شهر.

كما وتطورت أجهزة لفحص المشتبه بإصابتهم من قبل تقنيات الذكاء الإصطناعي، فكل الأدوات التكنولوجية التي تطورت ساهمت في تحقيق الحجر الصحي والتباعد الإجتماعي، كما واستعملت السيارات الذكية في الصين لنقل المرضى، وتوصيل طلبات الناس تفادياً للإحتكاك.

لعبت الكاميرات الحرارية في الصين دوراً كبيراً في الكشف على وجوه المسافرين في محطات النقل خوفاً من أي أعراض مشبوهة، وما زلنا حتى اليوم نشهد اختراعات ومساهمات تكنولوجية للحد من هذا الوباء الفتاك.

#### خاتمة

لا ريب أن فيروس كورونا قد انتشر في العالم كله من شرقه إلى غربه، من أقصاه إلى أدناه، مُربكاً الحكومات والدول والمنظمات الدولية، فهذا العالم قد تعوّد على إخضاع كل شيء تحت سيطرته ولكنه فقد السيطرة أمام هذا الوباء. المختبرات والمستشفيات والعقول النيرة كلها وقفت في صف واحد عاجزة ومستسلمة أمام هذا الفيروس الذي أودى بحياة مئات الآلاف، شالاً القطاع الإقتصادي وفارضاً قيوداً على مليارات من البشر إلا أن

العمل على إيجاد اللقاح ما زال قائماً، وعلى أمل توفره للجميع. صحيح أن التكنولوجيا أمنت استقراراً للحياة ولكنها تُعرضها لبعض المخاطر حيث تتم مراقبة الأفراد وتحركاتهم مع انتشار الوباء، لذلك على الإنسان إما الاعتراف بدور التكنولوجيا في تأمين استمرار حياته وإما الخوف من خطورة هذا الاستغلال التكنولوجي. إن الاعتماد على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات قد خفف من التدهور الاقتصادي، واعتماد هذه الطرق سيساعد في بناء فرع إلكتروني خاص لكل شركة لتسهيل الأعمال وانتشار خدمات المؤسسات إلى مناطق يصعب الوصول إليها. في نهاية المطاف سوف يكشف التاريخ إذا كان هذا الإغلاق قد فجر حقبة جديدة أم ستعود الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً.

---

#### الهوامش

- 1- راجع، غنام، فاديا، كورونا عامل تحول وتغيير في المجتمعات، مجلة اتجاه، العدد 49، (ص 136-150).
- 2- راجع، المسكيني، فتحي، الرهان على تنصيب الوباء عدواً، مجلة اتجاه، عدد 50، (ص 30-3).
- 3- كثير، إرديس، الكينونة والشاشة، كيف يغير الرقمي الإدراك، هيئة البحرين للثقافة والآثار، مملكة البحرين، ط1، 2018.
- 4- الجزيرة، برنامج «حياة ذكية»، تاريخ 2020-4-22.

■ مجموعة مؤلفين ■

# الحكومة العربية في دمشق

## التجربة المبكرة للدولة العربية الحديثة

(١٩١٨ - ١٩٢٠)



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات  
Arab Center for Research & Policy Studies



# **Implementing Clinical Supervision for professional development The Case of an Economics teacher at a private school in Beirut, Lebanon**

**Adiba Hamdan**

Associate Professor  
at LU

**Nancy Ghazzawi**

MA Applied  
Economics at  
LAU

---

## **1- Introduction**

The Lebanese educational system is a highly structured and prescribed system that focuses primarily on two official exams that middle and high school learners have to perform at each phase, so called “high stakes” exams. The schools’ credibility and reputation employs a heavy weight on the results and success rates of their learners’ official exams grades. However, with the advancement of educational curricula, teaching strategies, learners’ demands, and technological advancement and their integration in the educational fields; teachers are faced with various challenges in the classroom to maintain a balance with the rigid Lebanese curriculum. Supervision is a process, schools resort to, to enhance their educational system and meet up with the national and international standards. Clinical supervision is a disciplined, tutorial process wherein principles are transformed into practical skills, with four overlapping foci: administrative, evaluative, clinical, and supportive (Pawell & Brodsky, 2004). Clinical supervision is a process used in order to help various teachers attain professional development and overcome the challenges faced in and outside the classroom. Professional Development is the act of enhancing the teacher’s overall communication, research, professional knowledge, ICT, and technological literacy. These skills will help the teacher have a more positive and effective attribute to the teaching process (Professional-development, 2013)

This action research will focus on analyzing and interpreting a case study, of a qualitative research paradigm, of the various challenges faced by Economics teachers of a private high school in Beirut. It will propose a plan of action to be set in order to help the teachers overcome these challenges and attain professional development, which will enhance the teaching effectiveness and the learners' learning experience.

### **1.1. Essential Research Questions:**

- 1- Does implementing clinical supervision enhance the teacher performance and the learners' engagement in the classroom?
- 2- Why is implementing clinical supervision for Economics high school teachers important?
- 3- How can the results facilitate professional development?

The major problems faced by Economics teachers teaching in the private sector, are:

- Lack of any teacher initiative to use proper information and communication technology (ICT) and active learning strategies due to the lack of vocational training and support from the school
- Application of a prescribed curriculum set by the Ministry of Education since 1997 to all types of students; not updating nor catering to different needs, types of intelligences, and learners with learning difficulties...
- Difficulty in integrating and engaging learners with learning difficulties in the classroom
- Demotivation of senior (grade 12) learners since the curriculum is teacher centered and does not incorporate student initiated activities and learning strategies.

### **1.2. School Overview**

The school under study adopts a global instructional system which aspires to build a balanced and virtuous individual who is well-equipped with the knowledge and education needed to pass the official examinations and succeed in the community. Learners are trained on how to make responsible decisions and choices. The basic educational goal is also to build the team-oriented spirit in individuals who will excel in society. Accordingly, the learners, teachers, and parents are invited to discuss this "Protocol" in class and at home. Since the school believes in the cooperation and interaction between the administration and parents for the learners' benefit, and in order to provide the learner with security and reassurance within an orderly



environment where he/ she feels apt to succeed, both adults and learners are asked to adopt and respect the Protocol of School Life.

A clear vision is set whereby it aims at preserving a dynamic interactivity with the holistic teaching methodology due to the professionalism of its human resources, teachers and staff that enables learners to build their own future and the future of their nation.

Stemming out of this vision, various objectives have been set, some of which are:

- Assist the learner in developing a balanced and integrated personality for the good interaction with the community to which he/she belongs.
- Develop qualities of initiative, leadership, and collaboration in the learner's personality in order to establish cultural and human values and concepts
- Provide the learner with sufficient knowledge and skills to develop the sense of scientific research, innovation, and the ability to relate between culture and education as complementary parts.
- Prepare the learner academically, thus qualifying him/ her to pursue university studies and take advantage of available job opportunities

In order to achieve these objectives, the school needs to assess the performance of the educational and administrative bodies on a regular and continuous basis in order to develop their abilities and competencies; select experienced and competent members for the teaching, educational, and administrative bodies; ensure permanent training for academic and administrative bodies to cope with constant changes at the social, educational, and intellectual levels; provide curriculum and textbooks in accordance with the Official curriculum and the objectives adopted by the Ministry of Education in Lebanon under Decree 10227, dated May 8, 1997, and its amendments; and adopt teaching and evaluation methods aligned with the targeted educational objectives.

The school's general environment focuses on the harmony, coherence, and positive relationship that the learners and the educational team has. The positive environment focuses on equal opportunities amongst the learners alongside encouraging cooperation among them. It also promotes integrated learning for learners with special needs.

## **II- Literature Review & Data Collection**

Since the early 1990s, clinical supervision has been a common development technique in nursing (Butterworth and Faugier, 1994). During supervision, the two individuals should meet on regular basis to identify problems and incur solutions to improve practices and increase understanding of professional

issues (Fowler, 1999). Economic studies for high school is considered a new path and is still developing whereby the demand of recruiting professional and well educated economics teachers has become a struggle. The field is facing a shortage in the quality and number of Economics teachers (English Language mainly) which is causing disguised employment of teachers, with skills and educational background irrelevant to the economics field, to teach the subject matter. This is causing a major problem in the school and the classroom environment. The purpose of this study is to implement clinical supervision to enhance the professional development and effectiveness in the classroom by examining an economics high school teacher. In all models, clinical supervision enhances performance with reflection and proper guidance (Farhat, 2016). The basic 5 step model for clinical supervision include: Pre-observation and establishing a relationship with the supervisee, observation of teaching in the classroom and collecting data, analyzing and interpreting the observation, and post observation conference to reflect and set a plan of action with the teacher.

Based on a qualitative and quantitative study (triangulation) done by Farhat (2016), formative interventions were implemented to track the teacher's managerial development of the required professional skills over the scope of thirty observations. After the second observation, the teacher showed improvement in the communication managerial skill applied and was able to implement more collaborative activities in the classroom. However, significant results reflected the inconsistent improvement in the classroom management and lesson planning skills (pedagogical) whereby it was encouraged to emphasize on the repetition of the clinical supervision model as a cycle. However, clinical supervision positively reflected on the teacher's self-confidence whereby it helped build better student teacher relationship, improve efficiency in class, and create a more positive and engaged classroom.

A case study was done in Lebanon by Nabhani, Sabra, and Bahous (2015) that aimed to improve the overall performance of teachers (classroom management, student centered teaching strategies...). The school aimed at implementing clinical supervision and coaching as a mean to motivate the teachers' performance in class and their collaboration to the overall teaching process. Results showed that the teachers required addition professional development workshops and less managerial paper work in order to boost their productivity. Furthermore, quantitative results showed a positive and significant relationship between professional development and clinical

supervision of the study done in Lebanon.

Further research done by Veloo, Komuji, and Khalid (2013) analyzes pre and post teaching supervision performance. Quantitative t-test results show positive and significant increase in lesson planning criteria, lesson delivery, questioning techniques, reinforcement, student exercises and involvement in class. Formative intervention via clinical supervision helped emphasize on the weakness the teacher was facing and work on improving them. With that happening, the overall classroom environment reflected a more coordinated, cooperative, and efficient atmosphere. Furthermore, this study (and the implementation of clinical supervision) helped teachers reflect on their teaching and find ways to improve and professionally develop.

Another case study- qualitative research done by Damalie (2018) on four economics teacher in Uganda that faced various challenges while teaching economics; such as inadequate textbooks and curriculum that were biased and prescribed, an increasing student-teacher ratio, poor culture that reinforces reading and academic performance etc. Results showed that with proper supervision and reinforcing better classroom communication will improve the overall situation.

### **Case Study- Observation**

After receiving several complains about the Economics teacher's teaching methods and her communication strategies used in class with various learners, colleagues, and the parents; the principle asked to move to more focused observations in order to solve these challenges. Based on the school's set objectives, immediate intervention ought to be taken to guide the teacher towards achieving these objectives and attaining professional development.

Twenty classroom observations<sup>1</sup>were done over the course of the academic year 2018-2019 to collect anecdotal data. The observations were done in neutral settings; following an inductive qualitative approach. Based on the results of the two observations that occurred, the teacher was showing inability to integrate and adjust the rigid curriculum to learners with special needs and different intelligences. Some learners were visual learners, others were auditory, some preferred to practice and drill more (hands- on activities) for them to be able to relate and understand the content. Yet this task was overwhelming and not achieved by the teacher. For example, when the

teacher was explaining about economic systems, the class was passive and the teacher used a teacher centered approach which was clearly restricted by the content of the text book at hand. No technology, simulation, or project based techniques were integrated in the classroom which created a sense of demotivation and negligence amongst the learners.

A formative intervention was done with the teacher, in the presence of the principle, in order to highlight on the weaknesses and challenges faced by the teacher in the classroom. Later on semi-structure interviews were done with the coordinator and head of cycle. The coordinator believed that implementing teacher centered approach that coincides with the Lebanese Curriculum is the most effective and prominent strategy in order to guarantee 100% success rates in the official exams.

No active learning strategies or technology (no videos, no simulation programs, no project based teaching...) were used while preparing the lesson plan which did not cater to different needs and created a sense of demotivation towards the subject matter. In addition, the text book used was outdated since 2002. The teacher was feeling frustrated and unable to meet with the questions raised by the learners that reflected real life situations. Previous economics teachers have been teaching in the same manner for over ten years with no upgrade or ICT integration.

### **III. Data Analysis & Interpretation**

Having had more detailed observations, it was clear that the teacher needed more guidance and support to improve the situation. There was a reflection of acceptance to all new ideas and methods of teaching because the teacher felt that clinical supervision is not done under the title of evaluating her, but for the purpose of improving desired skills and creating a more professional atmosphere for her career.

Based on the set pre-conference and observation there is a major issue when integrating ICT and active learning strategies with the prescribed Economics curriculum; whereby economics is a real-life dynamics subject matter that requires constant update and real-life involvement. Gesturing clearly that the Lebanese Economics curriculum needs to be adjusted and updated, teachers have to find other ways to integrate life, leadership, research, and communication skills in their lesson plan to help the learner retain the information in the long-run, alongside developing their critical thinking skills

to use this acquired information in different real life situations.

Furthermore, the observations done, and the literature review, validate the hypothesis and answer the proposed essential questions. Clinical supervision works on helping the teacher emphasize the weaknesses in her classroom and identify resolutions to help her attain better professional development. It is crucial to implement clinical supervision for Economics high school teachers in Lebanon despite the various limitations of the curriculum so that they can provide more meaningful learning for their student.

As previously described the work and observations was broadened and moved from hypothesis testing to a more explicitly emergent research methodology that intended moving to listening and to understanding the teacher's experience.

Notes were taken after each independent observation and followed by a discussion on similarities and differences on what is being seen. The research findings provided some rich detail on the development of the work; while focusing on creating a positive and coherent classroom environment and student structure instructional methodology.

#### **IV. Conclusion and Plan of Action**

Clinical Supervision is related to self-development, professional growth and career development of teachers. The supervisor's role is to support teachers to achieve their goals. Good communication is a major key to achieving those set objectives and attaining professional growth. Economics teachers in Lebanon are faced with various challenges that do not comply with the teaching goals of the 21<sup>st</sup> century. Some of these teachers might be frightened to raise out these challenges; afraid of negatively being evaluated. Therefore, clinical supervision can be a perfect system that focuses on helping teachers develop actual classroom performances. Some recommendations were developed and implemented by the teacher in the case study on a recurring and ongoing cycle to improve classroom effectiveness despite the limitations of the curriculum: (1) Shifting from traditional assessment to project-based assessment for grades 10 and 11 whereby learners will be able to acquire research, communication, cooperation, interpersonal, and time management skills. This method will help learners utilize the content acquired in the class to real life situations which will create a sense of relation and motivation towards the subject matter. (2) Integrating more technology in the classroom, especially for learners applying for grade 12 official exams; videos, PowerPoint, virtual online simulation programs, and other ICT techniques could be used to have the learners more

engaged in class. This strategy will help the teacher explain the lesson at hand and cater to different intelligences found in class. (3) Building a student initiated atmosphere in class where active learning strategies ought to be used to make the learner feel more motivated and responsible for the education he/she is acquiring.

For example, when analyzing the 1929 stock market crash, some learners might recall the movie “The Wolf of Wall Street”; the teacher can encourage the learners to watch and write a short critique while relating it to the concepts acquired in class. Although the curriculum bounds Economics teachers to explain in a traditional manner, there are various approaches teachers can use in order to help them create a more engaged and dynamic atmosphere in the classroom. (4) Organizing the lesson plan in a manner that shows a dynamic balance between the academic and hidden curricula. The teacher ought to increase drilling and practice exercise sessions to allow the learner to apply the acquired concepts. This will help them retain the information in their long-term memories.

## Appendix A

### Teacher Observation Form I

Name:

Date:

School:

Teacher's Name:

Subject Taught:

Age of Students:

Class:

Time in class:

Check the appropriate categories: What did you observe in class?

-----Lecture-----Discussion-----Board Work

-----Test-----Lab Work-----Assessment

Comments:

**The classroom setting:**

**The teacher student interaction:**

**The most striking of this observation**

**How the students react to my presence?**

**What insights on teaching I got from this observation?**

## Teacher Observation Form II

Professional Employee: \_\_\_\_\_ Conference Date: \_\_\_\_\_

School: \_\_\_\_\_

Grade/Subject/Dept: \_\_\_\_\_

Option: \_\_\_\_\_ (Action Research, Peer Coaching, Portfolio, Study Group) Goal:

## I. Summary of Progress

A. Strategies Used

B. Progress on Timeline

C. Data Collected

Frameworks (If a domain does not pertain to an option then fill in N/A)

## Teaching Professionals - Observation/Practice

| Instructional Framework                                                                                                                                         | Professional Employee's Comments | Administrative Supervisor's Comments (completed by administrator) |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------|-------------------------------------------------------------------|
| DOMAIN 1 Planning and preparation, including Selecting standards-based lesson goals and designing effective instruction and assessment                          |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 2 Classroom environment, including establishing a culture for learning and appropriate classroom management techniques that maximize instructional time. |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 3 Instruction, including the use of research-based strategies which engage                                                                               |                                  |                                                                   |
| students in meaningful learning and utilize assessment results to make decisions about student needs.                                                           |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 4 Professional responsibilities, including using systems for managing student data and communicating with student families.                              |                                  |                                                                   |



## Non-Teaching Professionals - Observation/Practice

| Instructional Framework                                                                                                                                                                 | Professional Employee's Comments | Administrative Supervisor's Comments (completed by administrator) |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------------------------|-------------------------------------------------------------------|
| DOMAIN 1 Planning and preparation, including Selecting standards-based lesson goals and designing effective instruction and assessment                                                  |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 2 Classroom environment, including establishing a culture for learning and appropriate classroom management techniques that maximize instructional time.                         |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 3 Instruction, including the use of research-based strategies which engage students in meaningful learning and utilize assessment results to make decisions about student needs. |                                  |                                                                   |
| DOMAIN 4 Professional responsibilities, including using systems for managing student data and communicating with student families.                                                      |                                  |                                                                   |

Supervisory Administrator's Comments (completed by administrator)

Satisfactory \_\_\_\_\_ Unsatisfactory \_\_\_\_\_

---

## References

- Jabbour, K. (2013). Issues that restrain teachers from adapting student-centered instruction in lebanese school. *Tejuelo*, 85-96.
- Veloo, A., Komuji, M. M., & Khalid, R. (2013). The effects of clinical supervision on the teaching performance of secondary school teachers. *Procedia - Social and Behavioral Sciences* 93 , 35 – 39 .
- Abinader, J. (2019). *Challenges in Lebanon's Education Sector Detailed in World Bank Report*. American Task Force For Lebanon.
- Avvisati, F. S.-L. (2013). *Review of the Italian Strategy*. No. 90, OECD Publishing.
- Baldrige Foundation. (2020). Pennsylvania Ave, United States. Retrieved from Baldrige Foundation.org.

- Burton, J. (2020, August 12). List of Countries By Literacy Rate. *Society. Business Dictionary*. (2020). Retrieved from <http://www.businessdictionary.com/definition/digitalization.html>
- Butterworth, T., Faugier, J., & Burnard, P. (1992). *Clinical Supervision and Mentorship in Nursing*. Chettenham: Stanley Thornes Publisher Ltd., 2nd Edition.
- Cogan, M. L. (1973). *Clinical Supervision*. Boston: Houghton Mifflin Company.
- Commission/EACEA/Eurydice, E. (2019). *Digital Education at School in Europe*. Luxembourg: Publications Office of the European Union.
- Damalie, S. N. (2018). Teachers' Perspectives of the Challenges of Teaching Economics: A Case Study of One Public Secondary School in Uganda. *African Research Journal of Education and Social Sciences*, 5(2).
- Farhat, A. (2016). Professional Development through Clinical Supervision. *Education*, 136(4), 421–436.
- Fowler, J. (1999). *The Handbook if Clinical Supervision. Your Questions Answered*. Wiltshire: Mark Allen Publishing Limited.
- France, R. (2015, June 26). France: digital plan for education – 500 schools and collèges to be connected to the Internet. France.
- Hassinen , S., & Kuisma, A. (2018). *IO2. Innovative training models, methodsandtools for teachers in the digital age*. [http://decode-net.eu/wp-content/uploads/2018/01/IO2\\_Finland\\_National\\_Report.pdf](http://decode-net.eu/wp-content/uploads/2018/01/IO2_Finland_National_Report.pdf).
- HOW TO BRING DIGITAL TRANSFORMATION TO EDUCATION*. (n.d.). Retrieved from [digitalmarketinginstitute.com: https://digitalmarketinginstitute.com/blog/how-to-bring-digital-transformation-to-education](https://digitalmarketinginstitute.com/blog/how-to-bring-digital-transformation-to-education)
- HUMPHRIES, L. R. (2020, Apr 02). *Government & Policy*. Retrieved from Investopedia: <https://www.investopedia.com/articles/professionaleducation/12/top-educational-systems.asp>
- Lebanon-EDUCATIONAL-SYSTEM-OVERVIEW*. (n.d.). Retrieved from [education.stateuniversity.com: https://education.stateuniversity.com/pages/827/Lebanon-EDUCATIONAL-SYSTEM-OVERVIEW.html](https://education.stateuniversity.com/pages/827/Lebanon-EDUCATIONAL-SYSTEM-OVERVIEW.html)
- Lee, N. T. (2020). *Bridging digital divides between schools and communities*. Brookings. Retrieved from [brookings.edu/research/bridging-digital-divides-between-schools-and-communities/](https://www.brookings.edu/research/bridging-digital-divides-between-schools-and-communities/): <https://www.brookings.edu/research/bridging-digital-divides-between-schools-and-communities/>
- Loo, B., & Magazine, J. (2017, May 2). Education in Lebanon. *World Educational News+ Reviews*.
- Lynch, M. (2018, December 22). *DIGITAL LEARNING THEORIES AND MODELS THAT ALL EDUCATORS SHOULD KNOW*. Retrieved from The Tech Edvocate: <https://www.>

- thetechadvocate.org/digital-learning-theories-and-models-that-all-educators-should-know/
- Nabhani, M., Sabra , H., & Bahous , R. (2015). Teachers' and Supervisors' Views on Clinical Supervision: A Case Study From Lebanon. *The Educational Forum*.
- Powell, D., & Boolsky, A. (2004). Clinical Supervision in Alcohol and Drug Abuse Counselling: Principle Models Methods. *San Fransisco CA: Jossey Buss*.
- Professional-Development*. (2013, 08 29). Retrieved from edglossary.org: <https://www.edglossary.org/professional-development/>
- Saari, A., & Sääntti, J. (2018). The Rhetoric of the 'Digital Leap' in Finnish. *European Education Research Journal*, 442-457.
- Vogels, E. A. (2020, September 10). *59% of U.S. parents with lower incomes say their child may face digital obstacles in schoolwork*. Retrieved from FactTank: <https://www.pewresearch.org/fact-tank/2020/09/10/59-of-u-s-parents-with-lower-incomes-say-their-child-may-face-digital-obstacles-in-schoolwork/>
- Zain , F. (2016). The Potential of Technology in Education: A Case in Point of Tablets Use in a School in Lebanon. *Lebanese American University*, 81.
- Veloo, A., Komuji, M. M., & Khalid, R. (2013). The effects of clinical supervision on the teaching performance of secondary school teachers. *Procedia - Social and Behavioral Sciences* 93 , 35 – 39 .

# Saint Phocas Church in Amioun Archaeological and History Study

**Khawla El Khoury**

Phd in Arts and  
Archaeology

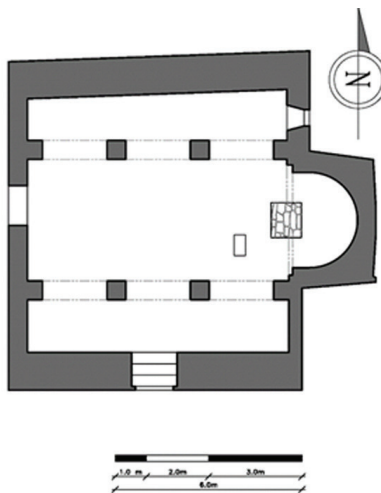
## Introduction

There are many small churches in North Lebanon, but they carry a great history and a special identity as they are considered an archaeological and religious heritage, especially since the history of their construction dates back to the Middle Ages, specifically to the period of the Franks' existence in what was known as the Count of Tripoli.

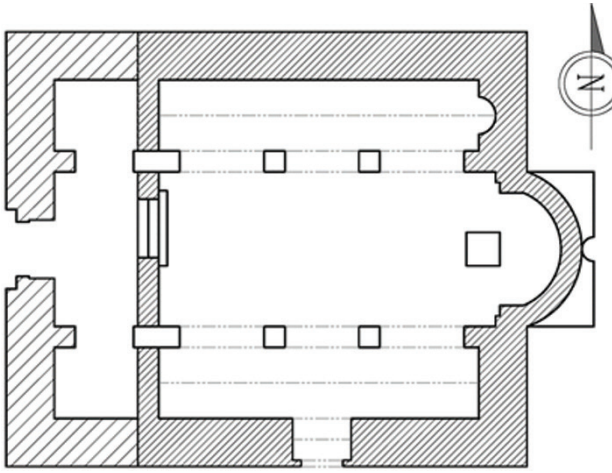
Saint Phocas Church is located on a small hilltop in the town of Amioun in Koura. It is 80 km from Beirut and is 370 meters above sea level.

The current shape of the church dates back to after 1918, as "Virolleaud Charles" says that the church was severely damaged as a result of an earthquake that struck it in October of 1918. We note that the apse is the most affected from this earthquake (Virolleaud, Ch. 1924).

## Description



Scheme according to Enlart, C. 1934; 36.



Another church plan showing the basic boundaries of the church, according to Coupel, P. 2003; 37.

The church has almost a square shape, since the difference between its length and width is about two meters in relation to its current length. As for the Coupel plan, it is rectangular and its sides are not precisely equal, in the west it is seven meters wide, while in the east it is eight meters. Which indicated that the Enlart plan is more accurate. This eastern wall includes a semicircular apse outside of it, but it was wrapped after the earthquake, which cracked its foundation with a rectangular wall and a small niche. This apse does not resemble the central apses that are outside the wall, which are mostly semicircular on the outside as well. This distinction here may be due to the restoration of the apse, after the earthquake that destroyed it at the beginning of the twentieth century, with the aim of strengthening this area. However, it appears clearly that the old apse was visible on the outside, similar to its counterparts in the churches of that era.

This plan is for the current church, but Coupel and Enlart indicated that the church was taller than what actually appears in the Coupel plan. This destroyed area, whose wall remains are found in the garden adjacent to the church, indicates the existence of possibly additional bays for the church at least two (It is difficult to determine here whether one or two bays are on the western side of the church because no excavations have been carried out. But all the data indicate that), like the church of Saint John in Byblos, Enlart says it was six bays instead of the current three (Enlart, C. 1934).

The length of the church is currently 11.80 m, but “Coupel” thinks that its length was 14.40 m in the past, due to the presence of the remains of two

arches in the western wall of the church, which indicates that they form a broken part of the church, and it may be right, especially since the wall that it now forms a fence for the house near the church and separates it from the church. The road is made of the stones of the church itself. The exterior ceiling of the church is uneven, as the roof of the central nave is slightly higher than the rest of the roof, and it is slightly arched. As for the ceilings of the two side naves, they are flat and lower than the level of the central nave. The main nave is four meters wide and seventy-three centimeters wide. It is wider than the two side naves, and ends in a semicircular apse with a hollow dome. This apse is divided by a double frieze into two parts that divides the shell from the wall of the apse. The latter opens with a broken double arch and is decorated with frescoes. This apse includes a square altar that Coupel says that it dates back to the history of the church's construction. The most striking feature of this apse, then, is the frescoes that decorate it. What is also striking is the frieze that separates its conch, which is decorated with a ledge topped by an ornament that looks like a channel lined on both sides.

In the arch separating the apse from the roof of the nave is a round small window known as the vent, crowned with stones and it has a rectangular shape on the outside.

The northern nave is one and a half meters wide and ends on the eastern side with a niche that rises sixty centimeters from the ground. It is one meter long and forty centimeters wide and includes an equilateral triangular dome. We found a similar niche in the south side nave in the Saint Saba church in Edde-Batroun. These two niches are, according to Dodd, like an altar to place the baptismal font (Dodd, E.C. 2004), and it is a topic that we will discuss in the section devoted to problems, especially since Coupel believes that it does not have to be the same age as the church's building (Coupel, P. 2003). As for the south side nave, it is two meters wide and ends in the east with a straight wall. It appears to be newly built, and most likely it dates back to after 1918, that is, after the earthquake.

The church is divided into three naves by two rows of free and adherent pillars square design, they are similar and show unity and precision in form. The four free pillars are distributed as follows: two in each nave, were decorated with frescoes on all four sides, but now more than half of them are missing.

Adherent pillars: There are two in the western wall of the church on either side of the door. In the eastern wall, we also find two pillars attached to the apse's wall from the north and south sides of it. These pillars are similar to the free pillars, half of them are visible and the other half are hidden in the

wall, separated from the beginning of the arches by a molded and undecorated frieze, but it is striking that they do not bear drawings similar to free pillars. Perhaps earlier it was painted like the rest of the church, which was likely all painted, but the peeling of the wall and the changes that have occurred in it makes it difficult to be sure of the matter.

All of these pillars bear massive triangular and broken arches. Three rectangular small windows penetrate below these arches on each side, it is to construct the vaults. most likely to carry wood scaffolding

The middle nave was roofed by the open barrel vault, while the two side naves were topped by the slightly broken barrel vaults. It should also be noted that the height of the central hallway slightly exceeds the two side vaults, which will not allow windows to be opened above, similar to the basilica buildings, which are generally characterized by openings in its upper section that provide the interior with light. We see similar openings in the Saint John Church in Beirut (Al-Omari Mosque), which is a Frankish building, as well as in the Saint Saba Church in Edde-Batroun, which is of a local building, and both are based on a basilica design (Folda, J. 1995; Helou, N. 2013; Pringle, D. 1993/1998).

The church has two doors-the first in the western wall and the other in the south wall. It seems that the western door is modern due to the presence of the remains of the arches and the wall on the opposite side, which, as we indicated earlier, shows that the church was taller on this side. In addition, the opening of the door, the stones, and the arch that tops it, the courses of the stones, and the quality of their polishing on the whole of the western wall differs from the stones of the other facades, because it may go back to a late stage, while the southern door appears older than the inner mortar, which looks old. Also through the technique of which was built with older stones. This form of arches prevailed in Lebanese architecture in the Ottoman period. The shingle also bears ancient writing, but neither Coupel nor Enlart have noted its existence (Coupel, P. 2003). However, this wall is recent, that is, either after the earthquake or before the earthquake.

The church does not have any window but rather there are four rectangular medium-sized vents, in addition to another small square window in the same wall. As for the apse, it is penetrated by a small, round window that we have already refereed to, while we find one rectangular window locked into the north wall. Despite the presence of these vents and two other doors, the interior remains submerged in darkness.

The church consists of one floor, and its walls consists of two rows of stones.



The two walls, the north and south ones, appear thicker than the east and west walls. The walls of the two side naves were rebuilt, according to Coupel (Coupel, P. 2003). However, what Coupel says does not seem convincing, as the northern wall was decorated with drawings that go back to the thirteenth century (Helou, N. 2013) and the header column is a western technique and it was spread in Lebanon with the arrival of the Franks (Salame-Sarkis, H. 2008). However, the southern wall appears to have been recently restored, dating back to just after the 1918 earthquake.



The northern wall is where the wall pictures are clear. (© Khawla El khoury in 2020)

On the southern wall a large portion of the paint fell off and the stones appeared: on the east side of this wall, there are the remains of a pageant column supporting the door, as well as the remains of granite stone that form its shingle. In this wall, stones of various sizes also overlap, as the basis is large, reused stones, followed by medium-sized stones (for example, 0.30 meters long and 0.50 meters wide), and then smaller stones. This wall is supported by round Roman pillars that connect the wall from the outside to the inside (some of them are 40 cm in diameter).

Four medium-sized rectangular vents and a small fifth square vents penetrate the center of this wall.

As for the eastern wall, it is new, as it was restored after the earthquake of 1918 and it includes the apse: its small and cut stones are symmetrically paved, unlike those of the rest of the church. As for the free pillars, which are attached to the wall, they are cut, of medium size, precisely paved and held together with clay. The pillars' stones, polished with very fine shells, remind us of the Frankish architecture, like the ones that are found in St. John in Byblos. The arches that emanate from these columns are also made of

elegantly polished stones and are very delicately paved, which reminds us of the Frankish churches, such as Saint John in Byblos and Saint John in Beirut. From the outside, large stones, originating in Roman architecture that may have been in the place of the church or beside it, form the basis of the church's south and west walls (chainage). One of these stones in the southwest corner of the church is 1.60 meters long and 0.80 meters wide.

The rest of the western wall of the church is made of medium-sized cut limestone, with a frieze on the right side of this wall. From this façade, a barrel arch appears, which shows the height of the main nave more than the two side naves, and a symmetrical stone frame also appears to support the edge of the roof, which is newly manufactured, just like the surface is molded with concrete. The stones appear to vary in size between the middle and the small ones, some of them are not cut and built without symmetry. They are mainly gray local limestone penetrated by some brick colored stones. It seems that the wall is not of the same age of the church, since it has similar stones. We mentioned earlier that this section of the church was larger, which means that the wall was built later, which is difficult for us to determine, but most likely after the earthquake in 1918.

In the northern wall we find large stones as well, topped by gray and brown uncut small stones. We mention here that the brown color distinguished the stones of the southern, northern and eastern wall also from the inside, as for the outside, the stones are gray due to the accumulation of dust from time and weather factors. In addition, the stones that have been collected with dense mortar, appear on the wall where the paint has fallen, and the most distinctive feature of this wall is the remnants of the frescoes, as mentioned before.

From the outside, on the eastern façade, the height of the middle nave is evident from the two side naves, and the barrel vault that is crowned with rectangular small windows appear. The rectangular wall enveloping the apse is also evident, while its dome remains visible. Small cut limestone was used, but it was built asymmetrically, like the rest of the church. The stones of the arches above the pillars and the roof stones are small and still bear burning traces.

We notice the presence of a niche in the east-north pillar and a parallel niche in the east-south pillar facing the apse. These two niches might be for using wooden stilts for the curtains to separate the apse from the people at a specific time during the mass. As for the arches, they hold rectangular niches, and these niches may also be for carrying scaffolding to implement the vaults.

The cornice separating the wall of the apse from its shell, which we have mentioned is decorated with a ledge, surmounted by an ornament that looks

like a channel striped on both sides, similar to that found in the apse of the Church of Our Lady of Balamand, and in the corniche in Saint John in Byblos, which according to Enlart also resembles those in the skylight in the Church of the Holy Sepulcher (Enlart, C. 1934 ), which indicates the influence of Western architecture. However, this decoration is almost the only one in the apses of the medieval churches.

Saint Phocas church is one of the twelve basilicas in the county of Tripoli, but it differs in size and function. Some of these basilicas bear the remains of frescoes, such as the Saint Saba Church in Edde-Batroun, which is also a basilica, but it is larger than the American Church in terms of area and differs from it in the ceilings as Saint Saba has its ceilings from the groin vault, while Amioun, its ceilings are made from barrel vault. It also has openings on the upper floor and it opens in the middle of each tympanum, it is rectangular and larger than the air vents in Amioun. In Rashkida village, there is a church with a distinctive design, where we find two consecutive churches in one building. One of these two churches, the eastern one, also carries drawings, but it differs from Amioun in terms of shape, as it is very small and its ceilings are of groin vault. However, the first church in Rashkida, or the basilica, also contains murals, is similar to Amioun since it also contains barrel vault in its ceilings. In the Saint Sarkis and Bacchus Church in Kaftoun, there is also a medieval basilica, which also bears drawings, but they differ in term if the ceiling, the middle ceiling is made from barrel vaults, as for the two sides, they are intersecting.

The drawings on the northern wall in Amioun indicate a complete absence of openings in this wall, and the presence of the drawings here is evidence that the church was without openings except for the window above the apse, while the openings at the top of the southern wall are most likely modern and may date back to the date of its restoration after 1918.

### **The history of the church:**

According to Coupel, the church's building dates back to the twelfth century. Erica Dodd, who wrote about the churches of Lebanon, including this one, suggested that the murals belong to the twelfth century (Dodd, E.C. 2004). That is the case for the Lebanese researcher Mahmoud Zibawi, who believes that the murals date back to the twelfth century. That is the case for the Lebanese researcher Mahmoud Zibawi, who believes that the murals date back to the twelfth century (Zibawi, M. 2009).

This date was adopted according to the frescoes remaining in the apse, on the northern wall, and the pillars, which represent images from the New Testament, the most prominent of which is the resurrection of Christ, the Virgin and a number of saints, including Saint Phocas after which the church is named. Immerzel, who dated the church at the end of the twelfth century, considered that these murals were executed by Byzantine painters (Immerzel, M. 2009).

Nada El-Helou, an expert in Christian art, her opinion differs from that of the other researchers, as she considers that the murals do not go back to the twelfth century, which is characterized by being influenced by Byzantine art, but to the thirteenth century, so that it has a local character due to the “artistic divergence” from Constantinople after it was fallen between the hands of the Latin in 1204 (Helou, N. 2008).

Compared to the churches of Palestine, built or restored in the twelfth century, we find that the free pillars decorated with frescoes in the Saint Phocas Church in Amioun are similar to those found in the “Holy Cross” Church in Palestine (Pringle, D. 1993). This church was restored by the Crusaders around the year 1125, and was originally built on the ruins of a Byzantine church dating back to the sixth or seventh century (Pringle, D. 1993).



The pillars of the Holy Cross Church in Jerusalem. ( Pringle, D. 1993. vol. 2, p. 33)



Pillars of the Saint Phocas Church in Amioun. (© khawla Elkhoury)

Although the Church of the Holy Cross has a dome over the choir, which is absent from the churches of Lebanon, it resembles the Church of Amioun in terms of the plan as well, and the absence of windows from the main nave. Apart from the fact that the free pillars are similar, the two churches have the same frieze at the base of the vault (Enlart, C. 1934). The base of the arch in the apse of the Saint Phocas church is decorated with a large and protruding ledge, surmounted by a kind of channel, in addition to a notch on both ends of this ledge, a technique also found in the Church of the Holy Sepulcher in Palestine which was restored by the Crusader in 1149 (Enlart, C. 1934). Despite the great difference between the Saint Phocas Church in Amioun and the Church of the Resurrection in Palestine in terms of the magnitude of the scheme in the latter and its richness in sculpture and decoration from inside and outside, however, we can find even a simple resemblance between the two churches through the similarities between the pillars of the two churches. The pillars of the Saint Phocas church in Amioun also resemble the pillars of the Abu Ghosh Church in Palestine in its rectangular shape and the base of the vaults that separate the pillar from the arch, it is similar in terms of square bases at the bottom of the columns, in addition to the wall drawings in both churches, and the date of construction of this church was determined in the twelfth century (Deshamps, P. 1964; Pringle, D. 1993). However, this church was preceded by a Byzantine church from the ninth or tenth century, then the Muslims converted it into a mosque before it was transformed with the Franks into a Romanesque church (Enlart, C. 1934).

The Palestinian churches that we mentioned in this article as a means of comparison are churches restored by the Franks, and by comparing many Palestinian churches with Lebanese churches (Elkhoury, Kh. 2020), we find that the Frankish method did not differ in restoration or construction in the



churches of the East, hence the simile was an effective method to date our churches.

It seems clear that the church witnessed several stages in its construction, the Byzantine influence can be seen, but only slightly in the drawing. In shape, it has the character of local medieval architecture in terms of small space and the use of various stones, some of which are large and cut, and some are not cut. By comparing it with the two churches of Palestine dating back to the twelfth century, we can conclude that the church was built in the twelfth century, but it was decorated with drawings later, that is, in the thirteenth century. We point out that the walls of the church were very smooth in terms of the plastering, meaning that it was not intended to receive wall drawings, but, for some reason, the curators decided to decorate its walls with pictures and it became full of wall drawings. Also, through the remaining drawings on the northern wall, the apse and the pillars of this church, it may be the only remaining architectural element from the thirteenth century, while the rest of the church was rebuilt either after the earthquake of 1918 or before it, especially since the area was under the influence of wars, and during this period the hallway may have been removed from the west as well. In addition, a part of the drawings on the apse, was restored along with the church. We discern, through this presentation that the church was planned and executed by Western architects, but the local component had a clear presence.

---

## References:

- Coupe, P. (2003). Trois petites églises du comté de Tripoli. *Bulletin du Musée de Beyrouth (BMB)*, (V), 47-48.
- Cruikshank-Dodd, E. (2004). *Medieval Painting in the Lebanon*. Wiesbaden.
- Deceneux, M. (2010). *La France romane. Une architecture éternelle*. France, Rennes.
- El-Khoury Emmanuel Kh. (2020) . *Basilica Architecture in Lebanon during the Franks Era: An Analytical and Taxonomic Study*. (In Press)
- Enlart, C. (1934). *Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem, Architecture religieuse et civile*.( 2), Paris.
- Folda, J. (1995). *The Art of the Crusaders in the Holy Land (1099-1187)*. Cambridge.
- Hélou, N. (2003). L'église de Saint Saba à Eddé Batroun. *Parole de l'Orient in revue semestrielle des études syriaques et arabes chrétiennes*, (28), 397-434.
- Hélou, N. (2008). *La fresque (II) dans les anciennes églises du Liban. Région du Nord, Beyrouth*, éd. Aleph.
- Hélou, N. (2013). Les lieux sacrés de Beyrouth au Moyen Âges. Les deux églises de saint-

Georges. Le portulan sacré. La géographie religieuse de la navigation au Moyen Âge, *Colloque fribourgeois*, Edité par Michele Bacci et Martin Rohde, 73-94.

Immerzeel, M. (2000). Inventory of Lebanese Wall Paintings. *Essays on Christian Art and Culture in the Middle East* 3:2–19. Leiden: The Projects Egyptian-Netherlands Cooperation for Coptic Art Preservation, Syrian-Netherlands Cooperation for the Study of Art in Syria.

Immerzeel, M. (2009). *Identity Puzzle*. Leiden, Peeters.

Lowden, J. (2001). *L'art paléochrétien et byzantin*. Paris, Phaidon.

Richard, J. (2003). *Francs et Orientaux dans le monde des croisades*. Aldershot, Hampshire.

Salame Sarkis, H. (2008). *Batroun, Ras El Shaqaa*, Publications of the Lebanese University.

Sauma, V. (1994). *Sur les pas des saints au Liban*. T.1 et 2. Paris, FMA.

Virolleaud, Ch. (1924). Les travaux archéologiques en Syrie en 1922- 1923, in *Syria* (5; 2), 113-122.

Zibawi, M. (2009). *Images chrétiennes du Levant, les décors peints des églises syro- libanais au Moyen Âge*. CNRS editions.



Abu El Ghosh interior: Pringle, D. (1993). P. 15



Saint Phocas Church in Amioun (© Khawla Elkhoury)





**Elie Kfoury**

ésgéographie -  
Université Libanaise

## **Changement climatique et céréales (blé et orge) (Étude d'un cas dans la plaine de la Béqaa).**

### **Introduction**

Au Liban, le réchauffement et les tendances futures de séchage résulteront du changement climatique. La plaine de la Bekaa, considérée comme le panier alimentaire du Liban, abrite certains des groupes de population les plus pauvres et les plus vulnérables du pays dont la principale source de subsistance dépend de l'agriculture.

Par conséquent, l'impact du changement climatique sur les systèmes de culture céréalière est évident et les agriculteurs doivent s'adapter en améliorant les pratiques de gestion et en sélectionnant des variétés plus tolérantes aux effets néfastes du changement climatique.

Les variations des facteurs climatiques au Liban (température, précipitations, humidité relative, ...) auront des impacts sur les ressources en eau et sur la couverture neigeuse qui constituent les principaux éléments pour la vie humaines, animales et végétales. La diminution des précipitations et la hausse des températures avec l'augmentation de la sécheresse et la diminution de l'humidité relative auraient des impacts sur l'agriculture dans la plaine de la Béqaa et pousseraient les agriculteurs à l'irrigation en utilisant les puits artésiens ce qui aurait des effets négatifs sur le niveau d'eau souterraine et augmentera le risque de pollution de la nappe phréatique.

La diminution de la pluviosité en sens inverse de l'altitude de la chaîne occidentale constitue le fait le plus

remarquable. La pluviométrie chute aussi du sud vers le nord. Plus de 700 mm reçoivent les stations méridionales. L'effet de foehn est remarquable dans la partie centrale, alors que Qaa el Rim, à 1320 m, reçoit plus de 1300 mm par an, et Zahlé, placé à 990 m d'altitude et à 6 km au sud-est, ne reçoit que 685 mm. Et rapidement plus au nord, les précipitations diminuent pour atteindre moins de 200 mm par an à l'est (ou à l'abri) du massif du Makmel, point ne culminant du mont Liban. Le climat de cette région est aride (Traboulsi M. 2004).

L'étude des données climatiques des stations (passé / présent) basée surtout sur les données des stations de Rayack et Ksara, qui se trouvent à une distance moyenne entre les extrêmes de la Béqaa, et la comparaison avec celles des données prévues par les scénarios, présentent une méthode d'étude sur la vulnérabilité des cultures dans la plaine de la Béqaa et leurs capacités à supporter ces anomalies climatiques.

### **Les scénarios des variables climatiques pour le Liban**

À 2040, les températures maximales devraient augmenter entre 1°C autour de la côte du Liban jusqu'à 2°C dans l'arrière-pays montagneux; d'ici à 2090, les augmentations seront de 3 à 5°C, respectivement. Les températures minimales vont évoluer de même, mais à la fin du siècle, l'augmentation de la température ne devrait pas dépasser 4 °C dans le domaine du pays. Des réductions significatives sont prévues pour les précipitations qui seront plus sévères de la côte aux régions intérieures, allant de -10% à -20% pour 2040 et -25% à -45% pour 2090.

Ainsi des influences seront considérables sur les cultures au Liban. D'où les variations « négatives » des facteurs climatiques envers les cultures principales qui auront des impacts sur les différentes variétés des cultures céréalières, (blé et orge), dans la plaine de la Béqaa, notamment dans sa partie septentrionale. L'analyse géographique de la culture du blé implique non seulement la prise en considération de la répartition spatiale des pluies mais aussi de leur distribution qui peut, combiner avec les températures, influencer sur la production agricole et impliquer la mise en place d'un système d'irrigation. (Youssef Fayed, 1972 : Une pluviométrie faible qui correspondrait à une région fraîche pourrait permettre la culture du blé, alors qu'elle ne le pourrait pas en région chaude). Le blé demande, pour couvrir ses besoins totaux en eau, de 500 à 700 mm de pluie mais la distribution des ressources hydriques est décisive car ses besoins sont maximaux lors de la montaison puis de l'épiaison. Le blé étant semé en décembre, ces stades végétatifs coïncident avec le début du printemps –mois de mars. Cette culture doit donc nécessairement être partiellement irriguée, dans des proportions variables selon la localisation dans la plaine de la Béqaa.

## 1- Le contexte géographique

Située entre les chaînes du mont Liban et de l'Anti-Liban, à une altitude moyenne d'environ 900 mètres, la plaine de la Béqaa couvre 4 000 kilomètres carrés, soit plus du tiers de la surface du Liban. La plaine s'étend sur 120 kms sur une largeur de 8 à 14 kms.

Le nord (vallée de l'Oronte) est une région semi-aride ou aride, menacée de désertification. Le centre et le sud bénéficient de ressources en eau plus abondantes. La séparation entre, au nord, le bassin de l'Oronte et, au sud, celui du Litani se trouve juste au nord de la ville de Baalbek.

La partie méridionale, que les Libanais appellent « Béqaa Ouest » du fait de l'axe nord-est/sud-ouest de la plaine, est limitée par le Jabal Gharbi à l'ouest et le mont Hermon à l'est. Elle est traversée par le fleuve du Litani.

Dans la plaine de la Béqaa, la pluviométrie annuelle observe ainsi le même gradient latitudinal et fait apparaître trois zones distinctes :

- la Béqaa septentrionale, au Nord de Baalbek, est la plus sèche avec une pluviométrie comprise entre 100 et 300 mm,
- la Béqaa centrale qui s'étend de Bar Elias jusqu'à Baalbek reçoit une pluviométrie variant entre 300 et 700 mm,
- et plus au Sud, la zone de Rachaya reçoit entre 700 et 1000 mm de pluies par an. (Cette partie méridionale de la plaine est nommée Bekaa Ouest par le Ministère de l'Agriculture).

Dans ces trois zones, les stations de haute altitude peuvent néanmoins recevoir une pluviométrie supérieure à 1400 mm ; n'étant pas concernées par la culture du blé, elles sont de fait exclues de l'étude.

Par ailleurs, la température peut avoir un rôle décisif à certains stades du développement phénologiques des plantes. Au moment de la floraison du blé, celle-ci peut ainsi être affectée par des températures négatives. Or, dans la plaine de la Béqaa, le risque de gel est possible d'octobre à mai, particulièrement dans la partie septentrionale de la plaine. On observe, en effet, une diminution du nombre de jours de gel par an vers le Sud de la plaine protégé par la chaîne du Mont-Liban. Celle-ci constitue une barrière qui empêche l'air maritime d'accéder à la plaine, mais, cette chaîne s'abaisse en se dirigeant vers le sud permettant alors au vent humide méditerranéen de pénétrer. Ceci donne au Sud de la Béqaa un climat modéré par rapport au centre et au nord.

## 2- Les données climatiques

Les données climatiques sont indispensables pour étudier l'état actuel du climat et l'influence que chacun de ces éléments exercent et va exercer ultérieurement sur les cultures. Ainsi on pourrait prévoir l'impact de ces données sur les cultures (céréales ; blé et orge), tout en réduisant l'influence négative sur ces cultures en adoptant des moyens et de nouvelles techniques pour l'agriculture.

### a. La température

Dans la plaine de la Béqaa, et pendant l'hiver, la température annuelle moyenne est voisine de 7°C tandis que celle de l'été est de 24°C. L'amplitude moyenne annuelle atteint 17°C, la température moyenne des mois les plus chauds peut atteindre 40°C tandis que celle des plus froids atteint 3°C (tableau 01). Une hausse de la température moyenne annuelle de 1 à 2°C, n'empêche pas les agriculteurs de continuer avec les mêmes types de cultures et dans les superficies consacrées à ces types, en prenant compte que l'élévation de la température serait équilibrée par l'irrigation ou l'utilisation des nouvelles techniques de culture.

### b. Les précipitations

La moyenne brute de toutes les stations dans la Béqaa, est de 678 mm entre une période très longue de 1953 à 1970. Or s'il y avait une baisse de précipitations dans les années qui viennent, on devrait le prévoir. Les scénarios climatiques pour le Liban montrent que cette baisse n'atteindrait pas 25 % des précipitations, dans le futur proche et lointain (fin du 21ème siècle). La vulnérabilité des différents types de culture dans la Béqaa varie donc entre faible et moyenne.

Toutefois, on remarque que les précipitations sont réparties effectivement à partir du mois d'octobre jusqu'au mois de mai, donc les précipitations sont réparties sur un plus grand nombre de mois et par suite de jours et dans des quantités interannuelles presque semblables, ce qui rend l'agriculteur à l'abri du risque de sécheresse. Malheureusement la diminution et l'irrégularité des précipitations, prévues par le changement climatique, et les phénomènes extrêmes attendues au futur proche et lointain, mettront l'agriculture à des risques divers.

Les précipitations moyennes projetées montrent une réduction significative d'environ 10% pour 2050. Toutefois, les changements dans les précipitations projetées varient, avec une incertitude comprise entre -2 à - 19%. La réduction des précipitations sera plus évidente en hiver et partielle au printemps. La

température élevée augmentera l'évapotranspiration et les besoins en eau des végétations. Ceci, combiné avec la réduction des précipitations, va amplifier le déficit en eau du sol. Les opportunités d'améliorer les rendements des céréales (blé et orge) par exemple, dépendent de l'application d'un ensemble de variétés améliorées résistantes à la sécheresse, avec le labour de conservation et l'utilisation rationnelle de l'irrigation surtout au printemps.

### c. L'Humidité relative

De même, pour les autres paramètres, les changements de la moyenne annuelle de l'humidité relative seront très faibles en 2040, mais des réductions jusqu'à -10% dans la partie orientale seront projetées pour le 2080. Cela est envisageable dans les deux futures périodes.

Pour conclure, on prévoit que le changement climatique et les tendances futures du développement affecteront négativement et globalement le secteur de l'agriculture en général, et aussi en particulier sur les céréalières (blé et orge).

Tableau 01 : Les variations prévues des facteurs climatiques pour la région méditerranéenne et pour le Liban (GIEC, 2007)

| Facteur climatique       | Les projections pour la région méditerranéenne                                                                                                                                                                                                                                                                                     | Les projections pour le Liban                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |
|--------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <b>Température</b>       | Le réchauffement moyen annuel de la période 1980-1999 à 2080-2099 varie de 2,2°C à 5,1°C. Le réchauffement dans la zone méditerranéenne est susceptible d'être plus important en été. Le risque de sécheresse estivale sera augmenté, et près d'un an sur deux serait considéré comme sec en 2080-2098. (Christensen et al. 2007). | L'augmentation de <u>T<sub>max</sub></u> devrait se situer entre 1°C sur la côte du Liban et de 2°C à l'intérieur en 2040, et entre 3°C sur la côte et 5°C à l'intérieur d'ici à 2090.<br><br>On prévoit que l'intensité des précipitations va diminuer de 6 à 15 pour cent sur trois sites (Beyrouth, Zahlé, <u>Daher-el-Baydar</u> ) en 2098 après une hausse de 6% dans la région de <u>Daher-el-Baydar</u> par 2044. les chaudes journées d'été devraient augmenter de 12 à 29 jours en 2040 et d'environ deux mois à la fin du siècle en 2090. |
| <b>Précipitations</b>    | Le changement moyen annuel de la période 1980 -1999 au 2080 - 2099 varie de -4% à -27% dans la région méditerranéenne. (même référence (Christensen et al. 2007).                                                                                                                                                                  | La réduction des précipitations devrait se situer entre -10 Et -20% d'ici 2040, et entre -25% et -50% D'ici à 2090.                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |
| <b>Humidité relative</b> |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    | Les changements de l'humidité relative moyenne annuelle sera très faible en 2040, mais des réductions jusqu'à -10% dans la partie orientale sont prévues pour les années 2080.                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |

### 3. Les Céréales au Liban

Les plus importantes céréales cultivées sont le blé, l'orge et le maïs. (MoA, 2007). La production céréalière est importante pour garantir l'auto-suffisance alimentaire. Les céréales constituaient en 2005 la deuxième culture la plus répandue, avec l'occupation de 65,2 mille hectares ou 23,8% de la superficie cultivée totale. (MoA, 2007). La production a atteint 394,4 milliers de tonnes en 2005, avec une valeur totale de 92,9 milliards LBP. (MoA, 2007).

Le blé dur est le type de céréales le plus cultivé (49,5 mille hectares en 2005) (Figure 01), la production est 143,700 tonnes, évaluée à 60% de la valeur totale de la production céréalière. Il est suivi par l'orge (14,5 mille hectares en 2005) et le maïs (900 hectares en 2005). (MoA, 2007).

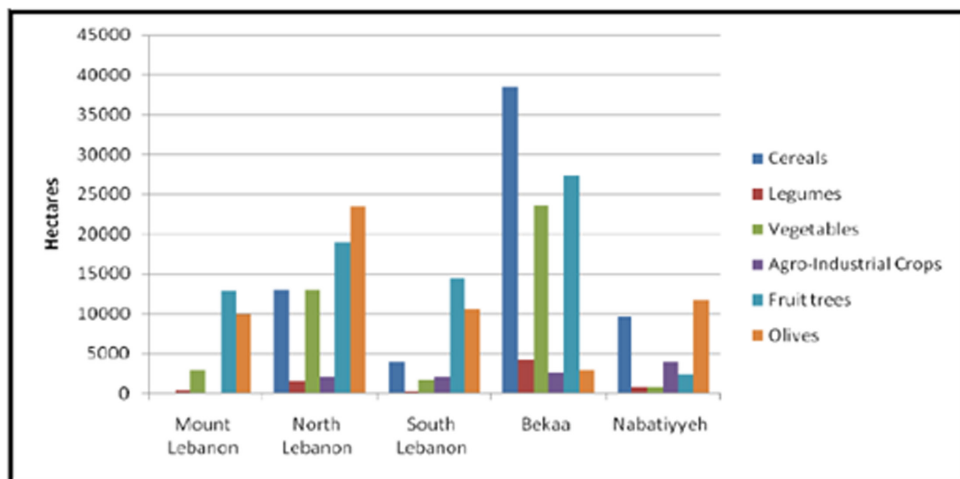


Figure 01 : Répartition de la superficie cultivée par gouvernorat. (Source: MoA, 2007).

Toutefois le Liban reste importateur de blé, avec des chiffres d'importation atteignant 201 milliards de L.L. en 2005. (MoA, 2007). Le prix du blé importé est beaucoup plus faible que le prix à la ferme du blé localement cultivé (MoA, 2007). En tant que culture stratégique, pour la sécurité alimentaire, l'Etat subventionne le blé, pour préserver la valeur des terres arables non irriguées. Les blés durs restent la seule variété du blé cultivé au Liban, en dépit du fait qu'ils soient impropres à la fabrication du pain. Ce blé reste le seul type de blé utilisé dans l'industrie alimentaire locale (borghul, Freek, Kishek, pâtes, etc.). (les Tableaux de 02 à 04, présentent les différentes variétés de blé, anciennes, traditionnelles et améliorées).



Tableau 02: Les anciennes variétés de blé utilisées au Liban

| Variété         | Type   | Origine        | Date d'utilisation |
|-----------------|--------|----------------|--------------------|
| Florence Aurore | Tendre | France         | 1947               |
| Salmouni rouge  |        | Liban          | 1955               |
| Salmouni blanc  |        | Liban          | 1955               |
| Bayadi          |        | Liban          | 1955               |
| Najah           |        | A.U.B. (Liban) | 1958               |
| Mexipeck        |        | Mexique        | 1969               |
| Sper X          |        | Mexique        | 1969               |
| Baalbeck        |        | IRAL           | 1970               |
| Harmoun         |        | Mexique        | 1974               |
| Siri 82         |        | Mexique        | 1988               |
| Nessr           |        | Mexique        | 1992               |

|                 |     |         |      |
|-----------------|-----|---------|------|
| Senator Capelli | Dur | Italie  | 1947 |
| Hourani 27      |     | IRAL    | 1956 |
| Storck          |     | Mexique | 1970 |
| Jouri           |     | Mexique | 1974 |
| Cipou           |     | Chypre  | 1988 |
| Lahn            |     | IRAL    | 1992 |
| Waha            |     | Mexique | 1993 |

Source: E. Choueiri Octobre, 2003, La Céréaliculture, Analyse de Filières

Tableau 03 : Les variétés traditionnelles de blé jadis utilisées

| Variété        | Utilisation     |
|----------------|-----------------|
| Hourani        | Burghol         |
| Bayadi         | Pain et Burghol |
| Salmouni Rouge | Pain et Burghol |
| Salmouni Blanc | Pain et Burghol |

Source: E. Choueiri Octobre, 2003, La Céréaliculture, Analyse de Filières.

Tableau 04: Les variétés améliorées de blé à fort potentiel identifiées par l'IRAL

| Blé dur       |                                                                                                                                                            |
|---------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| Variété       | Spécificités                                                                                                                                               |
| <b>Storck</b> | Depuis 1970.<br>Bonne production<br>Valable en zones à moyenne et à forte pluviométrie                                                                     |
| <b>Waha</b>   | Depuis 1993.<br>Bonne production<br>Valable en zones à moyenne et à forte pluviométrie                                                                     |
| <b>Beqaai</b> | Variété locale utilisée pour la transformation en Bourghol.<br>Valable en zones à faible et à moyenne précipitation<br>Sensible à la maladie de la rouille |

Source: E. Choueiri Octobre, 2003, La Céréaliculture, Analyse de Filières.

Depuis, le blé est, en grande partie, une culture pluviale (54% des céréales sont les cultures non irriguées), ses rendements varient en fonction de la quantité de précipitations. Le rendement a augmenté sur le global, en particulier en raison de l'introduction de l'irrigation. Le rendement du blé a atteint 2,9 tonnes / ha en 2005 (Figure 02). L'orge est surtout cultivée comme fourrage pour les animaux.

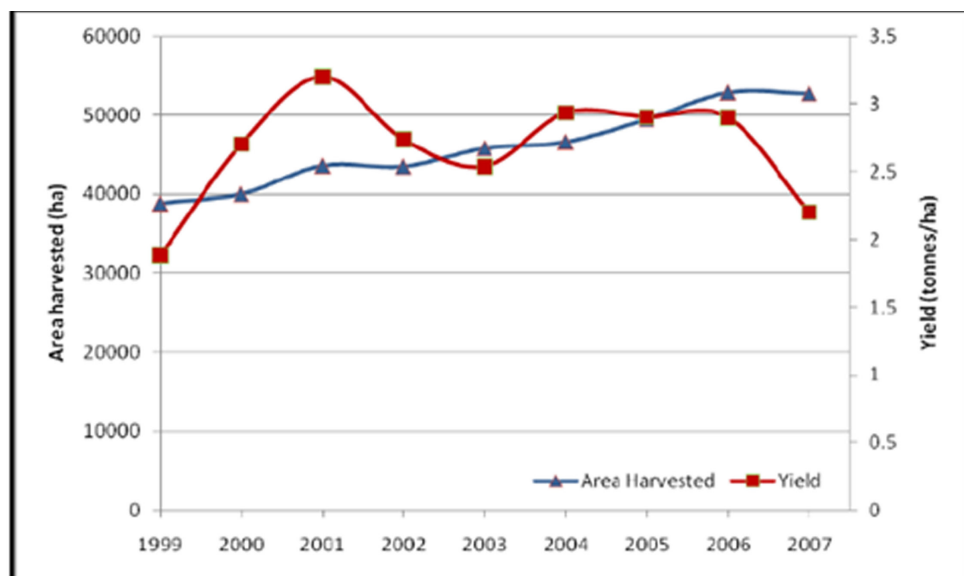


Figure 02 : La superficie cultivée et le rendement du blé (Source: FAO, 2009).

#### 4. La vulnérabilité globale du blé

C'est dans les zones où la pluviométrie annuelle est supérieure à 400 mm que se situe la limite de la production de blé au Liban. Toutefois, et en raison de la diminution des précipitations au printemps dans la Béqaa, les rendements sont souvent plus bas que dans d'autres régions climatiques (photo 4-2).

La vulnérabilité globale du blé et des céréales avec des modifications prévues dans les facteurs climatiques pertinents, est considérée comme modérée, puisque le rendement du blé est principalement corrélé à la quantité de précipitations. (Ventrella, 2006).

Les zones de la Béqaa sont les plus vulnérables au Liban où la réduction des précipitations et le gel, constituant des conditions extrêmes, sont plus fréquents.

Etant donné que les précipitations printanières portent plus préjudices que la quantité de pluie annuelle globale, les zones où la pluviométrie atteint plus de 800 mm/an sont toujours considérées comme présentant un risque modéré.



**Photo 01 : Un champ de blé dans la Béqaa centrale près de Zahlé où l'irrigation est assurée par des canaux passant sur le bord du champ, par Elie KFOURY, juin 2016.**

Il n'existe pas d'effet significatif, causé par les changements dans les habitudes de température et des précipitations, sur la production du blé au Liban. Une diminution de l'humidité du sol et une augmentation de l'aridité seront entraînées par une hausse des températures printanières et de

l'évapotranspiration. Ce phénomène réduira les rendements dans la seconde moitié du siècle, en particulier en cas de pluie, pour compléter l'irrigation, qui ne se produit pas au printemps. Venterella, D. (2006).

En tant que question de fait, la fertilisation par le carbone sera à peine capable de compenser les pertes de rendement dues aux changements climatiques. La (figure 03) illustre les modes de culture et la vulnérabilité du blé, principale culture céréalière, avec un classement de la vulnérabilité par zone. La vulnérabilité globale de blé et des céréales en général, aux changements projetés dans les facteurs climatiques pertinents, est considérée comme modérée (tableau 05)

Tableau 05 : Indicateurs pour l'analyse des impacts des changements climatiques sur les systèmes vulnérables (blé) dans l'agriculture

| Système Vulnérable | Indicateur          | Pertinence                                                                             |
|--------------------|---------------------|----------------------------------------------------------------------------------------|
| Blé                | Productivité        | La productivité du blé est étroitement liée à des changements dans les précipitations. |
|                    | Superficie Cultivée | Les zones inférieures à 400 mm ne peuvent pas être cultivées avec du blé.              |

(Source: MOE/AUB (2009)

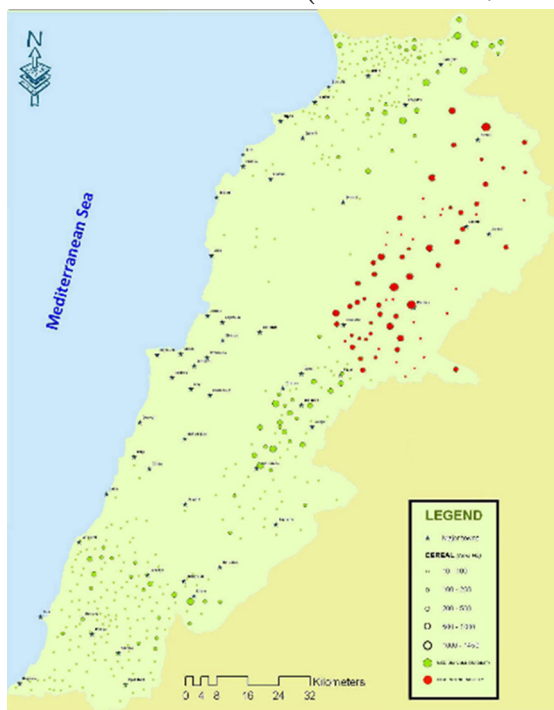


Figure 03 : Les zones de culture et la vulnérabilité de céréales au Liban. Source: MOE-UNDP 2011 : Lebanon's Second National Communication, MoE-UNDP, 2011.

### a. L'amélioration des performances

Vu que le risque climatique diminue l'intérêt économique de l'intensification, les possibilités de développement des pratiques culturales restent limitées.

La nature du sol, caillouteux au nord et au sud, est souvent un obstacle à l'amélioration de la mécanisation. Une autre contrainte pour une utilisation accrue d'intrants est constituée par l'importante autoconsommation au sud et au nord.

Il découle de cette cause que l'amélioration des performances restent limitée, tant en termes de rendement qu'en termes de rentabilité de la culture. (Référence précédente, CHOUEIRI, E.2003) Cette amélioration exige:

#### b. En culture non irriguée:

- L'amélioration des semences et des variétés utilisées ainsi que l'amélioration des pratiques culturales sont possibles et permettraient un accroissement des rendements moyens notamment à la Béqaa et au Nord.
- L'amélioration des sols afin de faciliter la mécanisation sur les terres marginales (rocheuses, caillouteuses...) cultivées en blé.
- L'adoption de l'irrigation supplémentaire au niveau des zones qui reçoivent peu de précipitations.

#### c. En culture irriguée

Si on tient compte de l'existence d'un itinéraire technique connu et expérimenté, et l'écart entre le potentiel agronomique, il est possible de dire que les chances d'améliorations sont possibles : l'amélioration de la mécanisation, l'application d'engrais et de pesticides à des doses optimales devraient permettre d'augmenter la moyenne pour les terres disposant d'un potentiel suffisant d'irrigation pour atteindre les 6 tonnes/ha pour le blé dur dans la Béqaa centrale. (MoE/ AUB, 2009).

Le blé tendre est plus sensible aux variations de température qui sévissent à la Béqaa (gel en avril, chaleur en mai). Les perspectives sont moins favorables tant que de nouvelles variétés adaptées aux contraintes n'auront pas été identifiées. Il est possible avec celles déjà existantes, de parvenir avec des pratiques culturales améliorées, à un niveau moyen de l'ordre de 5 tonnes/ha.

La généralisation de ces performances dépend essentiellement d'un effort de formation et d'information des producteurs via un programme de démonstration et de vulgarisation adéquats.

A cela s'ajoutent d'autres implications, à savoir une amélioration des systèmes

d'irrigation sur l'ensemble des superficies irriguées dans les zones où les conditions actuelles ne permettent pas une irrigation suffisante et régulière (réhabilitation et extension des réseaux).

De plus, il convient à long terme ou à moyen terme, de faciliter l'adoption des itinéraires techniques recommandés et pour les généraliser et d'apporter des contributions pour la solution des contraintes limitantes tels que :

- Le morcellement des exploitations agricoles qui se dresse en obstacle devant l'introduction de la mécanisation.

- L'absence d'une législation sur le crédit aux intrants qui laisse pour seul recours aux agriculteurs, notamment aux plus petits d'entre eux, le crédit fournisseur onéreux ; cependant, cette contrainte peut être palliée par la promotion de coopératives de services à condition d'être gérées efficacement, d'assurer un conseil et une vulgarisation à leurs membres, et que les adhérents soient engagés en assumant la responsabilité au sein de ces coopératives.

Ainsi, un programme ambitieux d'assistance technique, et une mise en œuvre de projets complémentaires de petites irrigations, peuvent, dans les régions pauvres de Baalbeck-Hermel, augmenter les rendements du blé. (Données Statistiques, Liban, 1998-2002).

La généralisation des semences sélectionnées (blé et orge), comme au Liban, rend possible l'intensification de la culture des céréales, et par conséquent l'augmentation des rendements et donc de la production.

## 5. L'importance de l'irrigation

Le développement des rendements de blé dépend de l'apport en eau. Des rendements proches du niveau international sont atteints dans plusieurs unités performantes qui pratiquent l'irrigation.

D'une façon générale, les véritables céréaliculteurs n'existent pas, et l'on cultive d'habitude le blé irrigué, car il fait partie de la rotation des cultures sur le plan des terres irriguées, ou bien du fait que l'agriculteur laisse reposer son champ après diverses cultures intensives et successives, ou encore en raison de l'influence de l'eau disponible pour cultiver l'ensemble de l'exploitation avec d'autres spéculations agricoles plus lucratives telles la pomme de terre ou les cultures maraîchères.

Une mobilisation au niveau des zones où le blé est cultivé en sec, semble nécessaire pour éviter le stress hydrique. Le blé n'est pas habituellement irrigué au moment opportun notamment au niveau des régions qui reçoivent de faibles précipitations annuelles et où le mois d'avril semble être propice à une

irrigation supplémentaire favorisant ainsi une meilleure récolte. (Référence précédente, CHOUEIRI, E.2003).

Pour cette raison, il importe de construire de lacs collinaires pour favoriser les petits projets d'irrigation de complément au niveau de ces zones. Cet apport en eau favoriserait des rendements plus consistants au niveau des cultures en sec.

## 6. Les techniques culturales

Les techniques culturales sont variables selon les exploitants, Les pratiques culturales présentent en général plusieurs insuffisances à plusieurs niveaux :

Par rapport à l'utilisation des intrants, la densité de semis par unité de surface est souvent excessive et l'application d'engrais est hasardeuse et arbitraire.

Le labour est généralement peu profond, et la mécanisation est partielle et souvent manuelle, notamment en ce qui concerne l'application d'engrais et le semis qui se fait à la volée.

Pour remédier aux insuffisances observées au niveau des techniques culturales et qui pèsent sur les performances en terme de rendement et de coût de production, aux intrants à des niveaux utilisés au niveau international, on doit tenir compte de la nature du sol et du type de culture précédente, d'une préparation adéquate du sol par des labours pratiqués en fonction de la nature et de la fertilité du sol ainsi que d'un recours à la mécanisation notamment au niveau des terres marginales qui aura pour but de réduire le surcoût représenté par la main d'œuvre. (FAO,2009a).

En outre, on peut observer plusieurs entraves au niveau de l'accès des agriculteurs à un système de crédits institutionnels, en l'absence de véritables coopératives dont le rôle est d'assurer le cadre propice pour le développement d'unités porteuses de projets économiquement viables.

De plus, certaines mesures doivent accompagner tout programme futur de développement des cultures céréalières en vue de l'amélioration des pratiques culturales et par conséquent de la productivité. Parmi ces mesures, on peut citer l'incitation à l'investissement pour l'achat d'équipements et l'adoption des techniques d'irrigation améliorées. (CIHEAM, Raji Bisat, Montpellier, 1986).

## 7. Etude d'un cas dans la Béqaa

La Béqaa, dans toutes ses régions, représente une plaine très favorable à la culture des céréales, particulièrement le blé qui constitue l'élément principal pour la nutrition. Pour cela il paraît nécessaire de tester les variétés du blé, dans des différentes conditions climatiques, pour constater l'impact du changement climatique sur le rendement du blé, en remarquant, à chaque fois,



l'importance et l'influence de l'irrigation, dans l'accroissement du rendement, dans les différents cas.

#### **a. En non irriguée**

Pour le blé non irrigué, deux typologies d'exploitation (CHOUEIRI, E. 2003) ont été prises à la Béquaa : Une exploitation à Zahlé et une autre à Baalbeck de la variété Storck de blé. L'exploitation à Zahlé a une dimension de 3 ha et un coût de production enregistré aux alentours de 311 L.L./Kg pour un rendement de 4 t/ha et dont 72% du coût total correspond aux coûts variables et 28% aux coûts fixes.

Dans les coûts variables, on compte dans l'essentiel le labour mécanique, la plantation et les semis à 18% suivis des coûts des engrais qui représentent environ 17%.

Dans ce type d'exploitation, la rentabilité du blé se situe autour de 53%. Elle est exprimée par le rapport de la marge bénéficiaire du producteur sur le coût de production. Ce taux dépasse les 100% si on ne prend pas en considération la valeur locative de la terre.

L'exploitation à Baalbeck a une dimension de 2 ha. Quant au coût enregistré pour la production à Baalbeck, il se place à environ 400 L.L./Kg pour un rendement de 2 t/ha et dont environ 56% du coût total correspond aux coûts variables (environ 44% aux coûts fixes). Dans cette typologie d'exploitation, c'est le coût de la main-d'œuvre qui représente l'essentiel des coûts après la valeur locative de la terre avec environ 27% du total des coûts.

On peut remarquer dans la rentabilité du blé à environ 5% dans ce type d'exploitation, une faible performance par rapport à la typologie précédente et qui se reflète par un coût plus élevé de la production et un rendement inférieur. Ce taux de rentabilité atteint les 87% environ si l'on ne tient pas compte de la valeur locative de la terre.

#### **b. En irrigué**

La variété Storck de blé a été prise dans une typologie d'exploitation à la Béquaa Ouest, mesurant 31.5 ha, avec un coût de production dans cette exploitation d'environ 265 L.L./Kg, pour un rendement de 6.25 t/ha et dont 55% du coût total correspond aux coûts variables et environ 45% aux coûts fixes.

Toutefois, le coût des engrais, après le coût de la valeur locative de la terre, représente environ 37% du coût total. Dans ce type d'exploitation la rentabilité du blé est presque 69%, alors qu'il atteint une valeur largement supérieure à

100% si l'on ne tient pas compte de la valeur locative de la terre.

On constate que cette typologie d'exploitation donne une très grande rentabilité de blé au niveau de cette exploitation qui se reflète par un faible coût de production et un rendement très élevé. (CHOUEIRI, E.2003).

## 8. Adaptation aux changements climatiques des variétés du blé et de l'orge dans la vallée de la Béqaa

L'adaptation aux changements climatiques des variétés du blé et de l'orge dans la Béqaa, basée sur une étude projetée par ACLIMAS (Adaptation to Climate change of Mediterranean Agricultural Systems), entre la période du 29-12-2011 à 28-12-2015, est présentée au-dessous par le tableau 06. (Les données sont tirées d'une brochure intitulée « Adaptation aux changements climatiques des systèmes de production des céréales dans la vallée de la Beqaa au Liban », ACLIMAS, durée de projet du 29-12-2011 au 28-12-2015).

| <b>Caractéristiques générales :</b>               |                                   |
|---------------------------------------------------|-----------------------------------|
| Lieu                                              | plaine de la Béqaa                |
| Précipitation annuelle                            | de 200 jusqu'à 900 mm/an          |
| Evapotranspiration annuelle                       | de 800 jusqu'à plus de 1200 mm/an |
| <b>Performance des indicateurs agricoles</b>      |                                   |
| <b>Indicateur</b>                                 | <b>Valeur</b>                     |
| Superficie de blé (ha)                            | 16128                             |
| Superficie de blé irrigué/ pluvial (%)            | 79                                |
| Rendement du blé (t/ha)                           | 3.5                               |
| Variétés de blé existantes                        | Lahn, Cham, Salamoune             |
| Productivité de l'eau du blé (kg/m <sup>3</sup> ) | 0.56                              |
| Superficie de l'orge (ha)                         | 9130                              |
| Superficie d'orge irrigué/ pluvial (%)            | 36                                |

|                                                                                                                                                                                                                                                                                   |                |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|----------------|
| Rendement de l'orge (t/ha)                                                                                                                                                                                                                                                        | 1.85           |
| Variétés de l'orge existantes                                                                                                                                                                                                                                                     | Roumi, Baladi  |
| Productivité de l'eau de l'orge (kg/m³)                                                                                                                                                                                                                                           | 0.31           |
| <b>Performance cible des indicateurs agricoles</b>                                                                                                                                                                                                                                |                |
| Rendement du blé (t/ha)                                                                                                                                                                                                                                                           | 5.5            |
| Productivité de l'eau du blé (kg/m³)                                                                                                                                                                                                                                              | 1.14           |
| Variétés existantes du blé                                                                                                                                                                                                                                                        | Icarasha, Miki |
| Rendement de l'orge (t/ha)                                                                                                                                                                                                                                                        | 3.5            |
| Productivité de l'eau de l'orge (kg/m³)                                                                                                                                                                                                                                           | 0.93           |
| Variétés existantes de l'orge                                                                                                                                                                                                                                                     | Rihane, Assi   |
| <b>Caractéristiques environnementales</b>                                                                                                                                                                                                                                         |                |
| Climat semi- aride<br>Précipitations variables<br>Risque de sécheresse<br>Risque de gelée au printemps                                                                                                                                                                            |                |
| Les variétés sont expérimentées dans des sites d'implémentations, et les locations de démonstrations sont réparties sur les trois années, en trois saisons d'expérimentation : année pluvieuse (2013), année sèche (2014), et année normale (2015).                               |                |
| Les sites d'implémentations couvrent toutes les parties de la <u>Béqaa</u> du nord au sud : <u>Hermel</u> , <u>Laboué</u> , <u>Arsal</u> , <u>Baalbeck</u> , <u>Chmistar</u> , <u>Rayak</u> , <u>Zahlé</u> , <u>Chtaura</u> , <u>Bar Elias</u> , <u>Anjar</u> et <u>Rachaya</u> . |                |

#### a. Remarques :

- Les variétés de blé utilisées sont des variétés sensibles à la sécheresse, ayant une faible productivité, et sensibles à la verse, comme : Lahn, Chami, Salamoune et les variétés d'orge comme : Baladi, Roumi. Tandis que les variétés proposées par ACLIMAS, sont en effet, des variétés résistantes à la sécheresse, ayant une productivité élevée, résistantes à la verse, et adaptées aux régions sèches, comme : Icarasha, Miki pour le blé, et les variétés d'orge comme : Rihane, Assi.

- Les pratiques agricoles existantes : le labour régulier du sol cause sa dégradation, mais par ACLIMAS, la pratique proposée est le labour de conservation qui augmente la capacité de rétention d'eau du sol, améliore sa fertilité et sa biodiversité, réduit la consommation d'énergie et le coût des intrants agricoles.

- La mauvaise gestion des pratiques agricoles, basée sur le propre savoir-faire des agriculteurs, entraîne la plupart du temps une sur-irrigation et surexploitation de ressources en eau. L'irrigation d'appoint n'est pas rationnelle et elle est souvent appliquée durant des stades non critiques de la croissance des cultures. Tandis que dans les variétés ACLIMAS, l'irrigation d'appoint rationnelle est utilisée, tout en conservant les ressources en eau, améliore et stabilise le rendement surtout quand elle est appliquée durant le tillage et le remplissage des grains, dans le cas où la teneur en humidité du sol n'est pas suffisante.

#### **b. Analyse et observations**

L'analyse des combinaisons des variétés et des pratiques agricoles (tableau 07) a été testée dans des différents champs dans la Béqaa, et présente les résultats ci-dessous.

Il est à noter que les chiffres des rendements du blé et de l'orge, sont rapportés dans le texte successivement, en commençant par : la Béqaa nord (figure 04), Baalback (figure 05), la Béqaa centrale (figure 06) et la Béqaa de l'ouest (figure 07). Les variétés sont réparties suivants trois années climatiques non semblables :

#### **c. Le blé dans l'année pluvieuse**

Le rendement des variétés proposées par ACLIMAS (icarasha) est proche de 5 ; 5.5 ; 7.5 et 7 t/ha. Tandis que pour les variétés existantes (salamoune) le rendement est plus faible et il est proche de 4 ; 4.5 ; 7 ; et 6,5 t/ha. Cela montre un rendement élevée dans toutes les régions de la Béqaa . Pour les variétés proposées par ACLIMAS, le rendement le plus élevé est enregistré successivement dans les sites de la Béqaa centrale, la Béqaa de l'ouest, puis à Baalbeck et enfin dans la Béqaa nord.

#### **d. Le blé dans l'année normale**

Le rendement des variétés ACLIMAS reste un peu plus haut que le rendement des variétés existantes, plus de 1t/ha pour les variétés ACLIMAS et presque 1t/ha pour les variétés existantes. Sauf à Baalbeck où les variétés existantes enregistrent un rendement faiblement élevé que les variétés proposées par ACLIMAS.

Le rendement des variétés proposées, successivement par ACLIMAS (icarasha) est : 1.2 ; 3 ; 4.2 et 5.1 t/ha, pour les variétés existantes : 1 ; 3.1 ; 4 et 5 t/ha.

**e. Le blé dans l'année sèche**

Le rendement des variétés ACLIMAS est toujours plus élevé que celui des variétés existantes. Si la différence entre les deux est pratiquement faible pour les années (pluvieuse et normale), on remarque, pour l'année sèche, qu'il y a une différence remarquable entre les deux variétés dans le même site et encore entre les différents sites. Le rendement pour les variétés ACLIMAS est successivement : 1.4 ; 3.5 ; 4.5 ; et 5 t/ha, et le rendement des variétés existantes est : 0.5 ; 0.3 ; 2 ; 2.5 t/ha.

Constatons aussi que le rendement le plus élevé est celui de l'année pluvieuse suivie de l'année normale et enfin celui de l'année sèche. L'importance de l'eau dans un rendement élevé du blé vérifie l'importance de suivre des pratiques d'irrigations convenables.

Rappelons que les variétés existantes suivent toujours: un labour traditionnel et une irrigation supplémentaire non rationnelle. Toutefois les pratiques suggérées par ACLIMAS admettent un labour de conservation avec irrigation supplémentaire rationnelle.

Toujours, les pratiques agricoles pour les variétés d'ogre existantes sont : labour traditionnel et irrigation supplémentaire non rationnelle. Alors pour les variétés suggérées par ACLIMAS : Labour de conservation avec irrigation supplémentaire rationnelle.

**f. L'orge dans l'année pluvieuse :**

Les variétés proposées par ACLIMAS ont un rendement plus élevé que les variétés traditionnelles. Le rendement le plus élevé se trouve dans la Béquaa centrale puis à Baalbeck et enfin dans la Béquaa nord. Les sites de l'étude sont successivement : la Béquaa nord, Baalabeck, la Béquaa centrale. Les rendements enregistrés pour les variétés suggérées par ACLIMAS : 3 ; 6 et 6.2 t/ha. Alors que celui des variétés existantes ; 1.5 ; 2.5 ; et 6 t/ha. Il y a une grande différence entre la Béquaa nord et Baalbeck dans les deux variétés, tandis que la différence est négligeable dans la Béquaa centrale, cela revient peut être à des conditions climatiques, à la nature du sol, ou bien à un mauvais emploi de la pratique utilisée pour l'irrigation.

**g. L'orge dans l'année normale :**

Le rendement pour les variétés ACLIMAS est : 2.2, 0.9, et 2.4 t/ha, tandis que pour celles existantes : 1.1, 1, et 1.9t/ha. La différence est claire entre les deux variétés et dans les trois sites, en comparaison avec l'année pluvieuse. Le double de production est remarqué dans la Béquaa centrale en faveur des variétés proposées. Mais, on remarque que le rendement de la variété existante est plus grand que celui proposé par ACLIMAS à Baalbeck.

### h. L'orge dans l'année sèche :

Le rendement des variétés existantes est presque nul dans la Béqaa nord et à Baalbeck, tandis que dans la Béqaa centrale, le rendement est proche de 1t/ha où l'irrigation supplémentaire, l'humidité du sol, et les pratiques agricoles, jouent un rôle déterminant pour le rendement dans la Béqaa centrale. Pour les variétés ACLIMAS, le rendement dans la Béqaa centrale est le plus élevé suivi par celui de la Béqaa nord et celui de Baalbeck, où le rendement est proche de 2 ; 1.7 ; et 1 successivement.

Il est important de remarquer, dans certaines régions de la Béqaa nord et de Baalbeck, des variétés locales (blé Salamoune, et orge Baladi), qui ont montré une meilleure performance plus que les variétés ACLIMAS, et ceci quand il y a une gelée de printemps persistante.

Tableau 07 : Potentiel d'amélioration des rendements dans la Béqaa (tonne/hectare) des variétés du blé et de l'orge dans la Béqaa basée sur une étude projetée par ACLIMAS, entre la période du 29-12-2011 au 28-12-2015. Étude faite par Elie KFOURY, 2016.

| Potentiel d'amélioration des rendements à la Béqaa (tonne/hectare) |         |                                |                                           |                                |                                           |                                |                                           |
|--------------------------------------------------------------------|---------|--------------------------------|-------------------------------------------|--------------------------------|-------------------------------------------|--------------------------------|-------------------------------------------|
| région                                                             | culture | année pluvieuse                |                                           | année normale                  |                                           | année sèche                    |                                           |
|                                                                    |         | pratiques agricoles existantes | pratiques agricoles suggérées par ACLIMAS | pratiques agricoles existantes | pratiques agricoles suggérées par ACLIMAS | pratiques agricoles existantes | pratiques agricoles suggérées par ACLIMAS |
| Béqaa nord                                                         | blé     | 4                              | 5                                         | 1                              | 1.2                                       | 0.5                            | 1.4                                       |
|                                                                    | orge    | 1.5                            | 3                                         | 1.1                            | 2.2                                       | 0                              | 1.7                                       |
| Baalbeck                                                           | blé     | 4.5                            | 5.5                                       | 3.1                            | 3                                         | 0.3                            | 3.5                                       |
|                                                                    | orge    | 2.5                            | 6                                         | 1                              | 0.9                                       | 0                              | 1                                         |
| Béqaa centrale                                                     | blé     | 7                              | 7.5                                       | 4                              | 4.2                                       | 2                              | 4.5                                       |
|                                                                    | orge    | 6                              | 6.2                                       | 1.9                            | 2.4                                       | 0                              | 2                                         |
| Béqaa de l'ouest                                                   | blé     | 6.5                            | 7                                         | 5                              | 5.1                                       | 2.5                            | 5                                         |

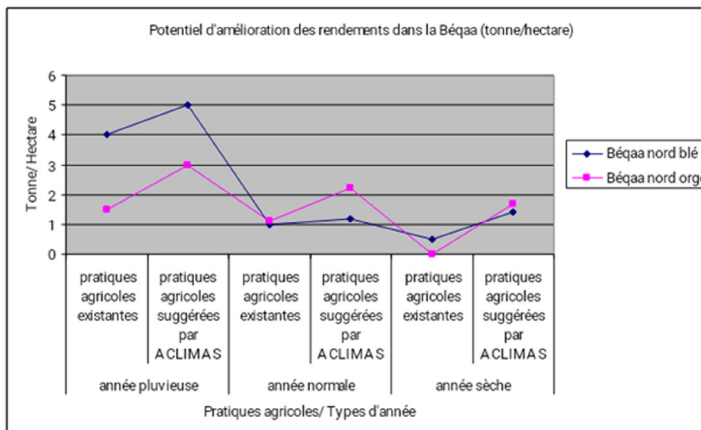


Figure 04 : le potentiel d'amélioration des rendements dans la Béqaa nord.  
Par Elie KFOURY, juillet, 2016.

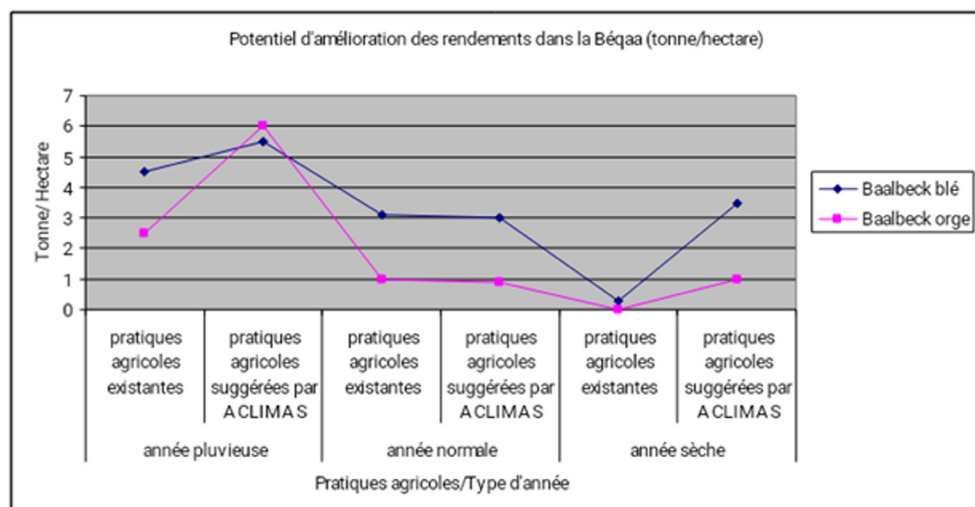


Figure 05 : le potentiel d'amélioration des rendements à Baalbeck. Par Elie KFOURY, juillet, 2016.

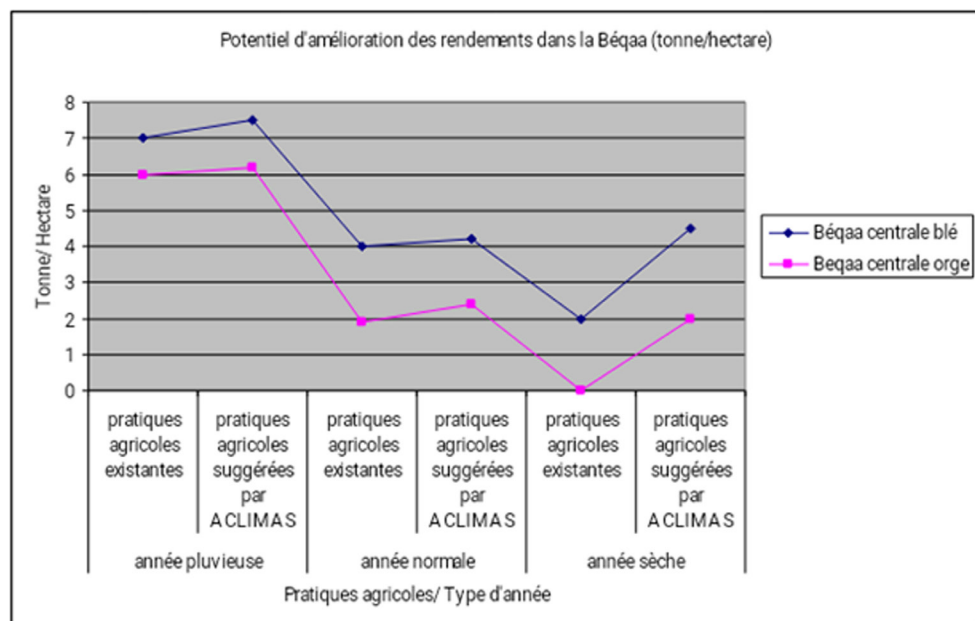




Figure 06 : le potentiel d'amélioration des rendements dans la Beqaa centrale.  
Par Elie KFOURY, juillet, 2016.

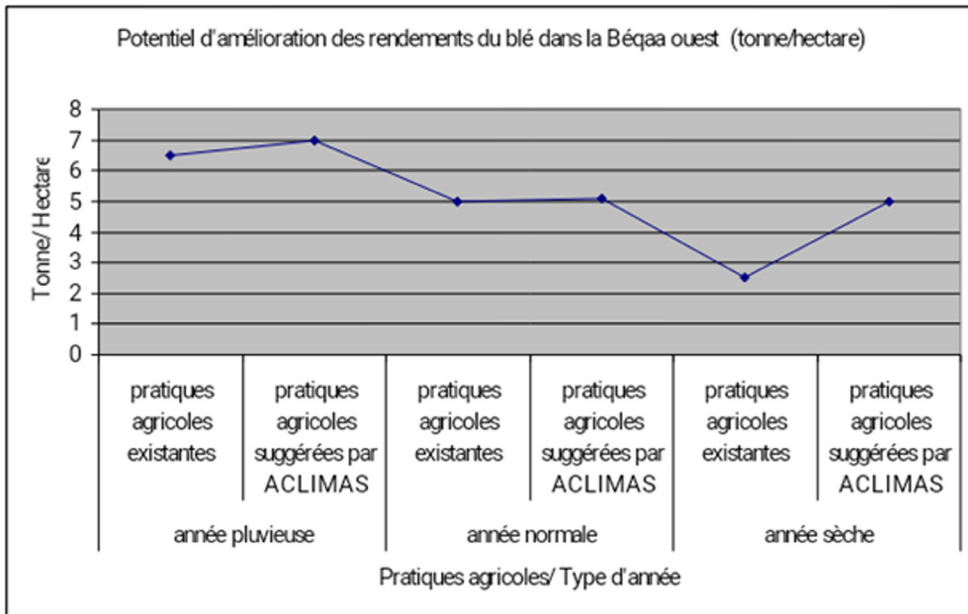


Figure 07: le potentiel d'amélioration des rendements dans la Beqaa ouest. Par Elie KFOURY, juillet, 2016.

**N.B : Les quatre figures (04 ; 07) sont basées sur le tableau 07.**

## Conclusion

Cet article a pour objectif l'analyse de l'impact des changements climatiques sur le rendement de la céréaliculture dans la région de la Béqaa, surface quasi plane insérée entre les chaînes occidentales (mont-Liban) et orientales (anti-Liban). Les variables explicatives du rendement sont des variables climatiques (précipitation et température), la superficie par culture et le progrès techniques. Pour ce faire, des modèles de régressions multiples ont été estimés pour les trois cultures céréalières (blé dur, blé tendre et orge) dans la région d'étude. Les estimations du modèle ont montré que le rendement dépend différemment des variables climatiques, de la superficie et du progrès technique.

Les variétés céréalières ont été expérimentées dans une étude projetée par ACLIMAS, dans des sites d'implémentations et des locations de démonstrations réparties sur les trois années, en trois saisons d'expérimentation: année pluvieuse (2013), année sèche (2014), et année normale (2015).

Les sites d'implémentations couvrent toutes les parties de la Béqaa du nord

au sud : Hermel, Laboué, Arsal, Baalbeck, Chmistar, Rayak, Zahlé, Chtaura, Bar Elias, Anjar et Rachaya. Deux variétés de blé et d'orge ont été testées : l'une présente les variétés existantes sensibles à la sécheresse comme (Lahn, Cham, Salamoune) pour le blé, et (Roumi, Baladi) pour l'orge, tandis que l'autre présente celles proposées par ACLIMAS qui sont en effet, des variétés résistantes à la sécheresse, comme : Icarasha, Miki, pour le blé, et Rihane, Assi pour l'orge.

Les résultats montrent que le rendement des variétés projetées par ACLIMA, a été plus élevé, que celui des variétés existantes, presque dans tous les sites et dans toutes les années, et que ces variétés peuvent assurer la durabilité de l'agriculture, en particulier face aux défis du changement climatique. Les agriculteurs sont encouragés à adopter ces variétés, étant donné que les techniques utilisées sont productives et relativement simples. Les techniques peuvent améliorer l'efficacité de l'utilisation de l'eau et stabiliser les rendements céréaliers.

Ensuite, une projection des effets du changement climatique sur les cultures céréalières a été faite en utilisant les scénarios climatiques pour le Liban. Ces derniers ont montré que cet impact sera plus accentué à long terme dans la région d'étude.

Donc, une augmentation de la pluviométrie affecte positivement le rendement céréalier alors qu'une augmentation de fréquence des sécheresses peut avoir des effets néfastes sur la productivité céréalière. Les coefficients du second ordre indiquent la non-linéarité des variables climatiques. Au total, les variables, ayant une masse importante, sont celles des précipitations, des températures, des superficies et du progrès techniques.

Les résultats des projections montrent un effet négatif sur le secteur céréalier dans la région qui se caractérise par des pertes importantes, ayant un impact néfaste sur le rendement céréalier.

Afin de réduire cet impact négatif sur le secteur céréalier, des mesures d'adaptation doivent être prises, telles que l'encouragement de la recherche en matière d'identification d'un nouveau paquet technologique agricole adapté aux changements climatiques et la diffusion de nouvelles variétés tolérantes et de variétés précoces adaptables aux changements climatiques. Tout cela fait partie des stratégies d'adaptation pour la réduction des effets des changements climatiques sur le secteur céréalier à long terme.

L'adaptation du secteur céréalier doit figurer parmi les priorités du pays en raison de son importance capitale dans la sécurité alimentaire et de son poids stratégique dans la balance commerciale.

L'adaptation du secteur céréalier aux changements climatiques peut prendre plusieurs années ainsi que l'exploitation de nouvelles terres et le recours à de nouvelles variétés. Le Liban doit réagir dès maintenant en fonction de la prévision du climat futur. Dans ce sens, différentes options s'offrent.

Dans le court et le moyen terme, les possibilités d'adaptation du pays doivent passer par une réorientation de certaines cultures et par une modification des processus de production pour résister à la variation du climat et répondre aux besoins croissants de la population. Ces décisions individuelles ne sont pas souvent suffisantes et demandent d'être accompagnées de politiques d'orientation plus complètes.

À long terme, il s'agit d'envisager une réduction significative de la part accordée au secteur agricole au profit d'autres activités économiques. Dans ce cadre, les institutions internationales semblent être les mieux placées à gérer les financements à l'échelle mondiale permettant d'aider les pays en développement à s'adapter en vue de limiter l'impact du changement climatique sur toute la planète.

Plus précisément, si la réduction mondiale des émissions de gaz à effet de serre peut limiter l'ampleur du changement climatique à long terme, le développement des stratégies d'adaptation sera une voie incontournable pour réduire les dommages attendus dans le court terme. En ce sens, le changement climatique va fortement intensifier et accélérer des problèmes existants plus qu'il ne va en créer de nouveaux (Downing et al., 1997).

Face à cette charge potentiellement lourde, la problématique de réponse consiste en deux stratégies capables de limiter les impacts des difficultés croissantes de l'agriculture : d'une part résister aux modifications du climat et adapter les systèmes cultureux par des semences résistantes à la sécheresse et au stress hydrique par une gestion de l'eau, d'autre part organiser le retrait progressif de l'agriculture ou de certaines cultures exigeantes en eau, face à l'inadaptabilité croissante à l'environnement.

Pour mieux expliquer les différentes options d'adaptation au Liban, qui réduiraient les conséquences de la perturbation du climat sur le rendement de la céréaliculture, il faut préciser qu'elles consisteront à accélérer la mobilisation

de nouvelles ressources par la construction des barrages et la redistribution de l'eau des barrages vers l'agriculture et aussi le recyclage et la récupération des eaux usées pour l'agriculture.

L'utilisation des techniques optimales d'irrigation permettrait des économies de la dotation hydrique de l'agriculture. Dans l'industrie, le recyclage réduirait fortement la demande et l'amélioration des réseaux d'association se traduirait par des économies importantes sur les besoins des ménages.

Dans ce contexte, la tarification des usages inciterait les acteurs à maîtriser leur consommation et à utiliser des techniques économes. D'autres mesures adaptées à l'agriculture seraient liées aux pratiques culturelles, telles la refonte progressive des calendriers agricoles traditionnels, l'optimisation des dates de semis en fonction des changements du climat, l'utilisation des semences sélectionnées et le choix de variétés à cycle court et résistantes à la sécheresse et enfin la reconversion et le repositionnement des cultures selon l'évolution du contexte bioclimatique.

Ce choix serait cependant cautionné par un accompagnement technique et financier des agriculteurs.

Le renforcement de l'offre d'irrigation apparaît primordial et nécessite, d'une part, l'extension du réseau irrigué et l'application d'une irrigation de complément à des exploitations initialement pluviales pour faire face au stress hydrique de la saison estivale, et d'autre part la limitation de la superficie dédiée aux céréales et l'intensification de l'irrigation.

Les deux options sont pour une disponibilité permanente de la ressource rare qui est l'eau. L'utilisation des nouvelles techniques d'irrigation (goutte-à-goutte) au niveau du secteur de l'agriculture est conseillée afin d'assurer des économies en eau.

Enfin, le développement de la céréaliculture avec toutes ses composantes est étroitement lié au problème de l'eau. Sous l'effet du changement climatique, cette ressource qui est limitée dans nos régions sera plus menacée, d'une part, d'épuisement, et d'autre part de salinisation et de pollution.

L'agriculture libanaise, qui couvre une grande proportion des besoins nationaux, demeure tributaire de ces ressources hydrauliques. Alors que le secteur irrigué est pratiquement peu vulnérable aux sécheresses, le secteur pluvial est sensible aux manques de pluie.

## Bibliographie

1. Christensen, J., Hewitson, B., Busuioc, A., Chen, A., Gao, X., Held, I., et al. (2007). Regional climate projections. In *Climate change 2007: The physical science basis*. IPCC AR4 WG 1. New York: Cambridge University Press.
2. Données Statistiques. Projet Recensement Général de l'Agriculture. Ministère de l'Agriculture / Organisation des Nations Unies pour l'Alimentation et l'Agriculture. Liban, 1998-2002.
3. Downing T.E.L., Hulme M.E.T., et Waughray D., (1997). *Adapting to climate change in Africa. Mitigation and Adaptation Strategies for Global Change*.
4. E. Choueiri Octobre, 2003, *La Céréaliculture, Analyse de Filières*
5. FAO. (2009a). *Système d'information sur l'agriculture - Liban*. Organisation pour l'alimentation et l'agriculture. Récupérée de <http://faostat.fao.org/>
6. FAO. (2009a). *Système d'information sur l'agriculture - Liban*. Organisation pour l'alimentation et l'agriculture. Récupérée de <http://faostat.fao.org/>
7. Fayed.Y, 1972- *Le climat du Liban entre le littoral et la plaine*, 50p., Dar el Ahad, Beyrouth.
8. *Les Céréales au Liban*. Raji Bisat, CIHEAM – IAMM : Options Méditerranéennes, Céréales et Produits Céréaliers en Méditerranée. Montpellier, 1986. Website : [www.ciheam.org](http://www.ciheam.org).
9. Ministère de l'agriculture. (2007) : *Projet de recensement agricole 2005*. Liban: Ministère de l'Agriculture
10. MoE/ AUB (2009). *The National Economic, Environment, and Development Study (NEEDS) for Climate Change- Country Brief*, Lebanon
11. Reilly J., (1997). *Changement du climat, agriculture globale et vulnérabilité régionale*. Rome: FAO et Paris: Polytechnica.
12. Traboulsi M. 2004 : *Les précipitations au Proche-Orient, variabilité spatio-temporelle et relations avec la dynamique de l'atmosphère (1960-61/1989-90)*, Lille Atelier National de reproduction des thèses.
13. Venterella D. (2006). *Le changement climatique, la vulnérabilité et l'adaptation dans Agriculture- la situation en Italie*. ARC-SCA, Bari, Italie.
14. Venterella, 2006, *Les précipitations annuelles minimales devraient être supérieures à 400 mm, Tmax en Novembre et Tmin en Mars*.



**Jean Wardé**

---

Doctorant à  
l'université  
Libanaise – Faculté  
des Lettres et des  
Sciences Humaines  
– Sciences de  
l'Education.

## **Les normes professionnelles enseignantes canadiennes : entre le droit et l'éthique.**

---

Au Canada et ailleurs dans le monde, nombre d'associations dans le domaine de l'enseignement précédant le cycle universitaire, se sont munis d'un code d'éthique qui présente leurs normes définissant leurs standards professionnels. D'après l'analyse de Philippa Ward (2007), l'auteur a trouvé deux orientations dans la conception philosophique des codes à base de l'éthique des enseignants dans les pays anglo-saxons. Nous avons affaire à deux genres de codes, ceux qui sont avec des procédures disciplinaires et ceux qui sont sans ces procédures. Mais sans prendre en compte le mode choisi sur le plan de la régulation, le code d'éthique met en valeur tout un choix de valeurs, d'exigences, de normes et de principes qui sont obligatoirement à respecter dans l'activité professionnelle de toute association d'enseignants.

Dans toutes les provinces du Canada, sauf au Québec, les associations des enseignants ont adopté un code d'éthique. On doit rendre hommage à la Fédération des enseignants dans la province d'Ontario, qui depuis des années, ont pris sur eux de bien clarifier des normes d'éthique précises avec les sanctions professionnelles correspondantes (Khandelwal et Van Nuland, 2006). Cette fédération se trouve du coup en tête des groupes qui analysent et travaillent sur le sujet de l'éthique



des enseignants. En ce qui concerne le Québec, on se débat encore jusqu'à maintenant sur la question de l'existence d'un ordre professionnel et d'un code d'éthique bien défini (Gauthier et Tardif, 1999) ; quant au Comité d'orientation qui s'occupe de former les enseignants au Québec a mis les bases avec un document sur l'éthique du corps enseignant (COFPE, 2004). En effet, le comité reconnaît que la profession enseignante existe bel et bien, que de lourdes responsabilités incombent aux enseignants, que la profession de l'enseignant affronte un grand nombre de questions d'éthique et qu'il faut faire face et d'une manière urgente aux problèmes de la moralité des enseignants. Mais ce comité refuse jusqu'à présent d'adopter un code d'éthique qui ne représente pour lui qu'un outil de discipline. Par contre, et comme Ward l'a montré, l'ensemble des codes d'éthique n'ont pas de but disciplinaire et ceux qui en ont, ne sont pas forcément autocritiques.

Nous nous pencherons au début de cette analyse sur le problème de la moralité des enseignants, car cette tendance se dessine depuis des dizaines d'années, et qui consiste à promouvoir et à mettre en relief les règles morales du corps enseignants. Cela est tout à fait normal puisque l'enseignant est obligé de répondre de ses actions face à ses élèves mais aussi devant leurs parents et devant tout le monde en général (Chevalier, Charbonneau, Bouchard, Anadon et Gohier, 1999). Les jugements de la Cour suprême du Canada ont en effet glorifié cette tendance. A ce sujet, Mme Linda Lavoie (2001) note que les juges de cette Cour et depuis 1996, définissent les normes professionnelles en se fondant sur des bases morales de haut niveau. Ils demandent et exigent même des enseignants d'être en classe et en dehors des classes des modèles parfaits de moralité ; ils veulent aussi que l'employeur vérifie si les enseignants possèdent des garanties morales. On pourrait ainsi refuser catégoriquement l'embauche de l'enseignant qui aurait un mauvais casier judiciaire. Nous nous sommes penchés sur cette moralité posée comme un exemple à suivre par les enseignants afin de parvenir à bien définir la responsabilité dont elle dépend. La deuxième partie du travail se déroule autour des objectifs et des recherches entrepris sur l'arbitrage et les sentences du Greffe des tribunaux qui tranchent, concernant l'éducation au Québec. De la sorte, dans le cas où la commission scolaire ou l'employeur ne respectent pas la convention et ses règlements, le syndicat et face au problème soulevé, a le droit de protester afin de remédier à la situation.

Finalement et avec la dernière partie de notre étude, nous présenterons les avantages tirés des normes communes au profit des enseignants, normes qui seraient réunies dans un code d'éthique. Nous ne sommes plus en mesure

d'éviter ces avantages après les sentences prononcées par arbitrage en éducation et à la suite des décisions des Juges canadiens quand il s'agit de poursuite ordonnée contre un enseignant.

### **I- Moralité exigée des enseignants**

Le métier des enseignants est dirigé par un grand nombre de règles établies par la loi et qui se réfèrent à une logique imposée. Lesquelles règles sont de deux natures : celles qui proviennent des législations ou fédérales ou provinciales (Loi sur la protection de la jeunesse, Charte québécoise des droits et des libertés des personnes, Code criminel, Charte canadienne des droits et des libertés, autres lois relatives à l'éducation et à l'instruction publique, et l'ensemble des règlements appartenant aux conventions collectives des enseignants et des accords locaux et des règlements particuliers d'un établissement scolaire ; et celles qui sont issues des jugements de la Cour suprême du pays et des cours des provinces, des tribunaux qui arbitrent et tranchent et des comités qui sanctionnent les écarts de discipline. Ces règles et ces jugements sont indispensables dans le sens qu'ils définissent les responsabilités des enseignants dans l'exercice de leur fonction (Jutras et Desaulniers, 2006. LeGault, 1997). Même à leur issu, ils jugent leurs activités professionnelles. Un bon nombre de ces jugements et de ces règles concerne la moralité des professeurs.

Avec les cas Audet, Bhadauria et Ross que nous allons détailler, les sentences de la Cour suprême du Canada sont formelles et très claires qu'il est exigé des enseignants d'avoir une moralité exemplaire et irréprochable. Partout où il se trouve, que ce soit dans son travail ou dans sa demeure en privé, l'enseignant doit être exemplaire par sa conduite et sa façon d'agir. En se prononçant sur le cas de l'enseignant, les juges de la Cour suprême énoncent ceci : « Puisqu'ils ont notre pleine confiance, par leur enseignement et leurs actes, les enseignants sont obligés de donner le bon exemple et dans les salles des classes durant les leçons et en dehors des établissements scolaires. Par voie de conséquence, tout écart dans la conduite même en dehors des salles de classe peut mener à des procédures de discipline. » (Bhadauria, par. 54). D'après Mme Lavoie (2001) on devrait dans l'enseignement imiter les nobles d'autrefois dans les villages sur le plan d'une moralité exemplaire, incarnée par ces derniers. Ainsi, l'enseignant doit être à un niveau moral supérieur à celui d'un notaire, d'un médecin, d'un avocat ou même d'un curé en paroisse. De même, l'arbitre André Truchon renchérit que le rôle de l'enseignant est celui de l'intégrité morale et de la droiture et la possession des vertus morales dans tous ses actes : « Il ne suffit pas à un enseignant d'être au même niveau que le citoyen ordinaire ; ce qu'on veut d'eux, c'est qu'ils soient supérieurs à la

moyenne des gens. Pour la population comme pour les tribunaux, l'enseignant est perçu comme un modèle sur le plan du savoir, celui des vertus morales et de la doctrine. » (Greffes des tribunaux d'arbitrage du secteur de l'éducation, SAE 3788). Toujours durant le jugement Bhadauria par la Cour suprême, les juges énonçaient que le niveau éthique des enseignants doit être nettement supérieur à ceux des autres professionnels étant donné le contact permanent avec la jeunesse, ces hommes du futur (Bhadauria, par. 487). Pourquoi cette moralité si dure et si sévère exigée du corps professoral ? La justification de cette moralité exemplaire est expliquée par deux arguments qu'on invoque si souvent :

1) Vu leur autorité, les enseignants exercent une grande influence sur les élèves. 2) Avec eux et grâce à eux, on acquiert la confiance des gens vis-à-vis du système scolaire. Des prises de position des juges cherchent effectivement à garder la confiance que le public entretient avec le système scolaire d'une part, et les vertus morales à l'école d'autre part. Dans le cas Ross, les juges ont noté ce qui suit : « les professeurs représentent la véritable image morale de l'intégrité dans tout le sens du mot. Étant donné la totale confiance qu'on leur accorde, ils occupent une place de choix et une influence toujours grandissante auprès des élèves. Les façons d'agir et de se comporter d'un professeur des écoles ont un impact direct sur l'avis qu'a le public sur sa capacité de mériter la confiance placée en lui, ainsi que sur la confiance de la collectivité envers l'école et le système éducatif. » (Ross, par 43). Donc, on est en droit de se poser des questions sur les conséquences de telles décisions sur les enseignants.

Il est fort possible que cette exigence morale ait des répercussions négatives sur leur liberté dans leur travail, sur leur liberté face à l'académie et même sur leur vie en privé. Aussi devons-nous nous demander si les décisions des juges canadiens de la Cour suprême sont en mesure d'influencer les autres juges des provinces et les commissaires des comités de discipline comme en Ontario, qui a étudié, entre 2003 et 2006, 142 plaintes concernant des fautes commises au sein d'une profession (Khandelwal et Van Nuland, 2006). C'est la raison pour laquelle il est nécessaire de revenir à l'avis des tribunaux afin de bien discerner les responsabilités et les devoirs des professionnels qui ont trait à cette moralité qui doit être citée en exemple.

Puisqu'il incombe aux juges de décider des fautes des enseignants, il est également de leur devoir de bien préciser dans leurs jugements les normes éthiques de la profession et les standards. À coup sûr, il y a une façon de voir une différence entre les juges qui prennent leurs décisions à la lumière d'une logique fondée sur le choix et sur une conception scolaire particulière, et entre les enseignants qui pensent autrement leurs conduites professionnelles. On

peut lire l'arbitrage en 1988 de Angers Larouche dans lequel on condamnait les contacts physiques commis par un enseignant même dans un but pédagogique, en voici les commentaires : « À notre sens, il ne s'avère pas nécessaire au point de vue pédagogique qu'un professeur et pour n'importe quelle raison pose ses mains sur l'épaule d'un écolier ou d'une écolière pour le féliciter, l'aider à comprendre un texte ou pour l'encourager. » (Greffé des tribunaux d'arbitrage du secteur de l'éducation, 9 DE 4988). On constate que les juges mettent tout en balance avant de prendre leurs décisions à la lumière des normes éthiques et des bases qu'ils posent. Sans la nommer d'une façon explicite, l'arbitre fait allusion à la question de la distance professionnelle entre le maître et les enfants. Il est clair que l'arbitre et grâce à telle décision a toute la latitude pour influencer les rapports entre élèves et enseignants. L'étude approfondie des références juridiques et des arrêts des juges est capitale pour bien comprendre ce qu'on demande et qu'on exige des enseignants sur les plans professionnel et déontologique. A propos de cette distance à tenir entre maîtres et élèves, Boudreau et Jutras (1997) rappellent qu'elle exige une négociation permanente entre les deux groupes pour rendre la relation bien claire. Du moment où la bonne distance est difficile à définir, il est demandé aux élèves autant qu'aux enseignants de s'entendre entre eux.

Les cas sortant de l'ordinaire ne peuvent pas constituer des modèles pour se retrouver dans les situations malséantes qui se présentent tous les jours en classe.

## II- Recherche sur le plan éthique

On a entrepris des recherches sur les normes proposées sur le plan éthique et ce implicitement et explicitement, par des spécialistes en droit et des juges de cours différentes. Trois objectifs sont visés :

- 1- Elle recense l'ensemble des règles, des lois et les jugements du pays (toutes les décisions relatives à la discipline, tribunaux d'arbitrage de l'éducation, cours des provinces et Cour suprême) qui ont trait aux normes éthiques des maîtres des deux niveaux, celui du primaire et celui du secondaire.
- 2- Elle procède à l'analyse des devoirs et des responsabilités professionnelles contenant ces normes.
- 3- Elle détaille en examinant les répercussions politiques sociales de ces normes sur la bonne marche et la régulation des actes professionnels des professeurs (Liberté académique et leur propre vie privée, sur la liberté accordée dans la profession). Notre travail se propose comme objectif la connaissance en profondeur de nos normes juridiques et éthiques qui commandent les actions et les comportements des enseignants en tant que professionnels.

Notre dessein est de mettre en lumière les jugements des cours canadiennes et québécoises des causes qui ont rapport à l'éthique des enseignants dans leur travail. Mais nous ne sommes pas à la fin de nos peines car notre recension et notre examen des sentences ne font que commencer. Tout d'abord, nous sommes efforcés de recenser les jugements qui émanent de la Cour suprême du pays et ceux du bureau du secrétariat des tribunaux d'arbitrage concernant le secteur éducatif au Québec. À mentionner que les sentences émises par le bureau du greffe nous a beaucoup intéressées, du coup, une grande part de notre travail porte sur ce sujet et à son analyse détaillée. D'ailleurs, tous les griefs étudiés concernent l'aspect éthique de l'enseignement. Une plainte est portée normalement par un enseignant ou par son syndicat, s'estimant lésé par une sanction disciplinaire contre lui. À ce sujet et vu le grand nombre de décisions rencontrées, nous avons aimé de mentionner les plaintes relatives au manquement d'ordre administratif comme le non-respect d'un contrat de travail, les problèmes de salaire ou les conditions d'admission dans une profession. Nous avons ainsi retenu plus de deux cents jugements de 1970 à 2007.

Chacun des griefs est placé dans l'une des catégories suivantes :

A-Grief touchant au sexe. B-Discrimination. C-Manquement dans la profession. D-Mauvaise conduite morale. E-Emploi de la force. F-Toxicomanie. G-Accusation de la part d'un enseignant.

Le tableau 1 mentionne les fréquences selon les catégories. Aussi faut-il noter que les plaintes portent surtout sur les fautes de profession et sur les problèmes sexuels.

Tableau 1

Fréquence selon les catégories

| Catégories                               | Fréquence | Pourcentage | Pourcentage cumulatif |
|------------------------------------------|-----------|-------------|-----------------------|
| A. Grief touchant au sexe                | 35        | 17.6        | 17.5                  |
| B. Discrimination                        | 8         | 5.8         | 19.4                  |
| C. Manquement dans la profession         | 171       | 77,2        | 92.6                  |
| D. Mauvaise conduite                     | 13        | 7.9         | 96.5                  |
| E. Emploi de la force                    | 16        | 9.3         | 101.8                 |
| F. Toxicomanie                           | 8         | 5.8         | 103.6                 |
| G. Accusation de la part d'un enseignant | 5         | 4.4         | 104.0                 |

Il y a les sous-catégories qui détaillent chaque catégorie. Nous avons par exemple la catégorie A appelée Grief touchant au sexe, elle englobe une dizaine de sous-catégories : accolades, relation amoureuse, attouchements sexuels, toucher indécent, rapport sexuel affectif, Harcèlement sexuel, agression sexuelle, manières indécentes, rapport amoureux, proposition immorale. Toute plainte, classée sous le nom de l'une de ces sous-catégories peut constituer une accusation contre l'enseignant dénoncé. Les plus courantes des fautes professionnelles sont l'incompétence en classe (4), l'insubordination (49), fautes pédagogiques (24) et la négligence dans le travail (18). On a également trouvé des accusations sur le devoir de collégialité (au nombre de trois) et une plainte portant sur la discrétion.

On a procédé par analyse effectuée sur 27 variables en classant chaque plainte d'après le sexe de l'enseignant, la matière qu'il donne, son Age et sa formation, le niveau scolaire, le secteur d'enseignement avec la commission scolaire ; on a pris en considération aussi l'année du différend, la langue, les plaintes déposées par les parents, la réputation de l'accusé, les activités syndicales, le genre de sanction ainsi que la décision de l'arbitre, etc. On a étudié ces données avec le logiciel SPSS et les résultats ne sont pas encore sortis. Des 230 griefs analysés, on a opté pour une trentaine de sentences exemplaires.

Pourquoi le choix de sentences exemplaires ? Parce qu'elles mettent plus en lumière les règles morales ou d'éthiques de la profession étudiée. Trois facteurs nous ont déterminés à opter pour ce choix : le caractère universel du jugement pour cette profession, les arguments très judicieux de l'arbitre et les devoirs légaux qui en découlent.

À chaque fois, donc à chaque plainte déposée, il s'avère que le professeur a fait une faute professionnelle pour non-respect des règles éthiques. Pour toutes les plaintes qui ont été déposées contre la direction de l'école par un enseignant, l'arbitre lui a donné raison pour la moitié de ces accusations. Très souvent, et dans beaucoup de cas, on a posé le grief pour avoir été sanctionnée pour discipline dont la gravité est vraiment variable : reproche, avis de discipline, lettre d'avertissement ou de doléances ou dossier, suspension de salaire, suppression du nom du professeur de la liste de rappel, plus de priorité d'emploi, suspension, réprimandes, plus de contrat d'engagement, emprisonnement, remboursement, congédiement.

Il faut remarquer le nombre impressionnant des expulsions qui s'élève à 172, en ajoutant ceux qui sont licenciés et ceux qui ne sont pas réengagés ; nombre record qui atteint les 80% des peines infligées. Cela, tout en notant que dans la

moitié des cas les arbitres ont donné raison aux enseignants.

L'arbitre a le pouvoir de faire diminuer ou d'augmenter la peine prononcée par la commission scolaire dans le cas où l'enseignant perd le grief. Par conséquent, les arbitres et leurs décisions font autorité, car ils reviennent très souvent aux décisions d'avant de leurs collègues pour ne pas se tromper dans leurs décisions. Ces décisions constituent en effet un cadre moral solide et prescriptif, ce qui fait qu'elles ont non seulement des répercussions sur l'enseignant qui pose un grief mais aussi sur l'ensemble des enseignants.

Il est malaisé de bien préciser s'il y a lieu de manquement d'ordre éthique. Puisqu'au Québec, nous n'avons pas d'ordre professionnel ni de code d'éthique qui définirait les devoirs au sein d'une profession, du coup nous devons nous référer ou bien aux règles basées sur la loi et aux accords nationaux de la convention commune, ou bien à la jurisprudence des tribunaux de la province ou du Canada avec leurs tribunaux pour arbitrer. A ces propos, l'un des buts recherchés de notre travail est la mise au clair des normes éthiques en présence dans l'ensemble de ces notes. Un bon nombre de ces normes constitue des devoirs professionnels sans être vraiment analysés ou même nommés, ni transmis aux professeurs. Dans leurs décisions, les tribunaux du Québec reviennent très souvent à la convention collective et à ses énoncés : négligence vis-à-vis des devoirs, incapacité dans le travail, insubordinations, mauvaise conduite et immoralité. Un effort d'interprétation de ces énoncés est demandé, vu leur imprécision et leur généralité, et cela afin de pouvoir être juste et impartial dans le jugement. C'est cette jurisprudence précisément qui est la base des règles morales au Québec qui dirigent l'agir des enseignants. Aussi faut-il rappeler que l'arbitre qui s'appuie sur la jurisprudence de griefs du passé, se réfère également aux tribunaux fédéraux qui ont trait aux accusations contre les enseignants. Prenons l'exemple du jugement d'Audet par la Cour suprême, concernant l'autorité de l'enseignant, il est mainte fois cité par les arbitres.

À bien analyser les plaintes au Québec, on constate de plus en plus de sévérité des arbitres, ce qui conduit du même coup à plus de rigueur des autorités scolaires. Si nous prenons les sentences prononcées de 1970 jusqu'à 2007, nous trouvons des mesures plus sévères contre les attouchements sexuels, ceux qui possèdent des drogues et contre l'insoumission. Prenons comme exemple le cas de Roberval (Tribunaux d'arbitrage de l'éducation, SAE 7605).

Il s'agit en fait de l'expulsion d'un enseignant en classe de cinquième à la suite d'une insoumission et d'une proposition indécente à l'une de ses élèves.



Le règlement de l'école stipulait qu'il était interdit à tous les enseignants de participer aux festivités de « l'après-bal » qui ont lieu tous les ans en fin de l'année scolaire. Non seulement, l'enseignant va à ces activités mais en plus il commet une faute grave en proposant à une élève de 17 ans de l'accompagner à un motel. Il n'insiste pas devant le refus de l'élève mais le bruit avait couru et tout le monde était au courant de cette invitation jugée indécente. Par conséquent, à la rentrée scolaire, le professeur est licencié de son travail car la double faute qu'il a commise l'a fortement défavorisé. Ayant même déposé une plainte, il a essuyé le refus de l'arbitre de se faire réengager. Vu la gravité de la faute, l'arbitre avait mis dans la balance les deux fautes réunies, celle qui est liée à l'indécence et celle qui est qualifiée d'insoumission aux supérieurs qui avaient interdit à tout le personnel la participation aux festivités.

Si l'on établit une comparaison entre ce jugement avec d'autres sentences prononcées durant les années 1970, on remarque qu'on devient de plus en plus sévère dans les décisions prises par les juges des tribunaux d'arbitrage s'occupant du secteur éducatif de la province du Québec. Tout cela est justifié en avançant l'argument de l'influence des professeurs sur leurs élèves d'une part, et d'autre part la confiance en l'école qu'il faut préserver auprès du public. En fait, les juges fédéraux aussi bien que ceux du Québec tiennent à ces deux arguments et d'une manière régulière, tout en considérant aussi que l'enseignant doit en tout temps donner l'exemple par son intégrité morale ; d'ailleurs cette intégrité totale de l'enseignant reste primordiale aux yeux des juges. C'est ainsi que durant le jugement de Roberval, l'arbitre s'était renseigné sur le comportement de l'accusé et sur son image dans son entourage au point de vue moral. Toujours est-il que cette image du professeur n'était pas reluisante selon les témoignages recueillis.

Il aurait été intéressant de connaître l'avis des pairs vis-à-vis de la conduite de ce même enseignant. A bien réfléchir, on peut presque affirmer qu'ils auraient eu le même agissement que le juge, rien que pour préserver leur propre image de marque. Par ailleurs, on se doit de prendre en compte que le jugement d'un arbitre qui définit un idéal de moralité sans faille et une vision spécifique de l'éducation scolaire, ne soit pas toujours en harmonie avec les préceptes déontologiques des enseignants face à leur agir professionnel.

Afin d'éviter tout genre de soupçon, l'arbitre Larouche avait précisé qu'il valait mieux n'avoir aucun contact physique avec ses élèves. Par la suite, il essaie de définir ce qu'il pense être la bonne distance entre les professeurs et les écoliers. Ce qui prouve sa méconnaissance du métier d'enseignement dans la vie de tous les jours et dans la pratique. L'arbitre propose son point de vue personnel,

vu l'absence de règles éthiques pour cette norme qui est pourtant discutée et contrôlée dans les autres métiers. Par ailleurs, les façons d'agir de ce juge mettent en évidence la nécessité de l'analyse de ce grief, de même pour d'autres griefs présentés devant les différentes cours qui traitent de la profession des enseignants.

Il est presque normal et pour de multiples raisons que le statut de bonne moralité soit perçu comme élément de flatterie et un compliment, et un professeur considéré comme tel peut s'enorgueillir car il sera désormais estimé de tout le monde autour de lui. De nos jours où le travail est de plus en plus menacé, où les enseignants sont fragilisés et subissent parfois les des violences (Jeffrey et Sun 2006), où les conditions sont draconiennes pour travailler et demeurer à son poste (Gold, 1996 ; Provasnik et Dorfman, 2005), il serait vraiment bon pour le moral d'être honoré en recevant la palme d'or pour une conduite exemplaire. Serait-ce uniquement un hommage qu'on rend aux enseignants ou aussi un mauvais cadeau, une sorte de boîte de Pandore, source de tous leurs maux ! Des statistiques ont mis en lumière que nombre d'enseignants, épuisés et souffrants, subissent des dépressions nerveuses (Royer, Loiselle, Dussault, Cossette et Deaudelin, 2001). On les presse tellement en exigeant d'eux des sacrifices à tel point qu'ils en pâtissent sans arrêt (Martineau, Presseau et Portelance, 2005). Dans cet état donc, et ayant de lourdes charges, ils n'ont presque jamais de rôle de coopérants pour décider des normes morales en relation avec leur métier.

### III- Normes éthiques générales

Rares sont les professeurs qui sont conscients que des valeurs et des normes morales sont à la base de leurs activités pédagogiques au sein de leur profession, car ils s'entretiennent très rarement avec leurs collègues sur ce sujet précis. Ce qui fait qu'ils connaissent vaguement les balises ou les points de repère de leur profession. De bonnes définitions de ces balises leur donneraient l'occasion d'avoir les outils appropriés et de théories adéquates pour bien concevoir leur travail de pédagogie, leur véritable identité professionnelle, leur façon d'enseigner et pour bien connaître leurs valeurs idéales de moralité auxquelles ils désirent donner la priorité. Comment être en mesure de juger et de discerner et de se retrouver pour démêler les problèmes d'éthique ou même de reconnaître la nature d'un problème de morale professionnelle, sans être aux faits des règles et des obligations morales de leur profession ? Il y a encore un tas de recherches à entreprendre chez les enseignants pour expliciter et rendre clair des normes morales qui demeurent vagues jusqu'à présent. Il

serait même urgent de traduire par des mots ces normes éthiques. Quelle est en effet, l'utilité de ce travail ?

On avance trois arguments détaillés pour cela par les associations de professeurs dans les provinces du Canada. Tout d'abord, se baser dans son travail sur des normes et des valeurs claires donne l'opportunité aux enseignants de connaître à fond leur identité comme professeurs. Certes, il se trouve des liens solides et étroits entre la moralité et l'affirmation de l'identité (Larouche et Legault, 2003). Dans le langage d'éthique professionnelle, appartenir à une identité professionnelle comme communauté, c'est mettre en relief et faire admettre ses valeurs communes. Adhérer à ces valeurs de la communauté prête de la constance à l'identité de la profession. Ce qui est nommé par Ricœur (1990, p. 146) comme « identité idem » qui consolide le maintien face aux houles du présent mais aussi du passé. Vu la nécessité d'être reconnus, les enseignants ont besoin d'être soutenus par des valeurs qui durent. Pour être reconnue à son tour, une communauté professionnelle doit tenir à des valeurs sûres dont elle se réclame ce qui leur confère de légitimité et d'autorité pour être crédibles. Les gens sont rassurés quand ils savent que les enseignants font bien leurs devoirs. D'où la nécessité d'un statut identitaire consolidé par une moralité exemplaire qui procure de la confiance et chez les enseignants et chez les parents des élèves. De se sentir ainsi en sécurité, les enseignants sont plus confiants et donc plus compétents pour décider, entreprendre des innovations ou pour être maîtres de la classe, cela d'une part, et pour satisfaire l'école et les parents d'autre part. De surcroît, l'adhésion et l'appartenance à des règles éthiques communes rehausse et donne du prestige à la profession des enseignants. Voilà le facteur en lien avec la promotion de la profession, l'autre facteur qui est celui des règles communes est pour beaucoup à contribuer à mettre fin et une fois pour toutes au dénigrement entre collègues. Ainsi, et vu les problèmes posés à pouvoir se donner une identité professionnelle dans le domaine en début de carrière (Mukamusera, 2005, Nault, 1993, 94), il est impérieux d'approfondir l'adhésion entre cette identité et les normes communes en éthique.

En second lieu, les enseignants ont vraiment besoin de ces points auxquels revenir qui sont les normes éthiques bien définies pour diriger et juger leurs propres actions, mais également pour prendre leurs décisions à la lumière de ces normes. Il faut dire que souvent dans le métier de l'enseignement, on est acculé à se prononcer avec des décisions rapides et urgentes que les situations exigent. Aussi, pour se justifier ou répondre de ses actes, l'enseignant est-il obligé de revenir à des règles communes approuvées par sa propre communauté

qui doivent constituer des bases à la construction de l'argumentation servant à prouver la justesse des décisions à prendre. À l'opposé et sans ces règles communes, on est exposé à l'arbitraire de la morale personnelle, source de toutes les animosités générées par des positions idéologiques venant de toutes parts. À noter également que la transparence de ces normes en éthique aide fortement à contrecarrer les fautes professionnelles et jauger leur degré de gravité. Pourquoi recourir aux hautes instances fédérales ou québécoises pour juger une pratique si elle est dans les normes ou mauvaise, si une action professionnelle est bannie ou acceptable, si telle situation est défectueuse ou non, juger les fautes et les échecs ou discerner si cet acte pédagogique dû à une subordination est fructueux ou non. En fait, une éthique approuvée par les enseignants, non seulement elle limite l'intervention d'un tribunal mais de plus elle leur donnerait l'occasion de définir par eux-mêmes ce qui est bon ou mauvais pour leur métier. À l'exemple des autres ordres professionnels, il est tout à fait logique que les professeurs prennent leurs affaires en main et décident de leurs mécanismes pour se contrôler eux-mêmes.

Dans une troisième étape, ces normes éthiques permettent de délimiter les tâches qui incombent aux enseignants et celles spécifiques des autres professions, et elles délimitent également les responsabilités et les devoirs de la direction et des spécialistes de l'école. À la lumière de l'analyse des plaintes déposées, un bon nombre d'enseignants, ignorent le domaine de leur compétence, ce qui explique les innombrables fautes d'insoumission commises. Ainsi on est responsable uniquement des compétences bien définies dont on dépend, ce qui génère un sentiment sécurisant qui protège contre les exigences exagérées venant de l'école et de sa direction. On se trouve étonné devant les demandes d'un responsable qui réclame d'un enseignant d'exécuter des tâches pour lesquelles il n'a pas suivi de formation précisée. Dans nos recherches, nous avons rencontré plusieurs plaintes pour incompétence en classe où des enseignants étaient forcés d'exécuter des ordres auprès d'enfants troubles.

La sentence d'insoumission serait vite tombée s'ils n'avaient pas obéi aux ordres. Peut-on demander aux professeurs de jouer aux charlatans (Legault, 1997) ?

Recourir souvent aux tribunaux pour trancher mènera de plus en plus aux instances judiciaires. Du coup, on va vers le remplacement par le moyen de la judiciarisation d'une simple régulation sociale plus rapide. Il est bien connu que le droit ainsi que la morale ont pour dessein de surveiller la liberté de la profession. Aussi ne faut-il pas oublier qu'une régulation recourt aux moyens

traditionnels et à l'expérience quotidienne, à de multiples interprétations et aussi aux tentatives de découvrir par l'analyse des événements, tandis que le droit est fixé par des normes et des règles rigides enfermées dans leurs propres façons de penser. Loin de cette rigidité, la tradition et l'expérience chez les professionnels se réfèrent à des arrangements bien admis, à des pratiques reconnues, à des accords et des consensus qui règlent et valident ipso facto des pratiques bien radées, etc. sauf si l'on emploie l'éthique d'une manière déviée avec un processus d'éléments disparates de régulations des pratiques éducatives, on est en droit de prétendre que les règles éthiques sont souvent maniables et adhèrent mieux au travail enseignant. Il faudrait un travail en profondeur pour discerner si l'on doit substituer l'autorité du droit à celle des règles morales communes des professeurs. Aussi serait-il fructueux d'étudier la capacité des enseignants québécois s'ils sont en mesure d'établir par eux-mêmes en tant que responsables, les normes de leur profession.

### **Conclusion**

Pour quelle raison on a le droit d'exiger des professeurs d'être des modèles de droiture ? Cette morale d'être impeccable ferait-elle partie de la logique du droit ?

Nos enseignants doivent-ils se soumettre et avoir un comportement moral au-dessus de la mêlée par rapport aux autres membres qui travaillent en public ? Il faut bien admettre que les enseignants sont plus concernés vu l'influence directe qu'ils ont sur les jeunes générations et vu l'image qu'ils donnent de leurs écoles. Mais pour quels motifs les enseignants du Québec ne sont pas autorisés à s'exprimer et donner leur avis sur leurs devoirs sur le plan de la morale ? Au Québec actuellement, l'accent est mis sur l'urgence de la personnalisation de l'enseignement-autrement, c'est accorder aux maîtres une autonomie professionnelle ; ce qui veut dire qu'un jour on va appuyer sur la question de l'éthique dans les professions.

La question demeure sans solution jusqu'à présent. Les enseignants ont les mains libres avec une large autonomie pour prendre leurs propres décisions, mais n'y a-t-il que les gens de la loi pour poser les jalons de cette autonomie avec tout l'encadrement juridique ?

Il y a des façons et des façons pour interpréter les obligations et les responsabilités dans les milieux enseignants. Comment ça se fait de revenir aux juges et aux cours canadiennes pour définir ces responsabilités dans la profession ? Pourquoi aller si loin pour baliser les actions du domaine éducatif ? Peut-on concevoir de juger la gravité d'une action défectueuse dans la profession enseignante en se référant à des règles établies en dehors du milieu

éducatif ? Comment évaluer l'incapacité à pouvoir contrôler une classe ou à bien traiter les enfants, à donner la matière à enseigner d'une manière efficace, à respecter le programme établi par la direction ou s'y retrouver pour punir un abus de force physique ou juger quelqu'un pour manque de ponctualité ? La rigueur morale des juges serait-elle en mesure de marquer l'acte pédagogique sujet aux diverses contraintes, aux tiraillements des hiérarchies, aux multiples transformations et même à ses complications et les problèmes de responsabilité ? (Mukamusera, 2005). Dans leur vécu de tous les jours, les professeurs affrontent des cas dont les solutions ne sont pas prévues dans les règles, ce qui constitue de vrais dilemmes dans lesquels ils se débattent. En réalité, il est chimérique d'affirmer qu'il y a une solution magique unique et la meilleure pour résoudre tous les problèmes d'ordre éthique affrontés en classe. Est-ce que les plaintes déposées contre les enseignants vont aboutir à la justice pour les juger ?

## Bibliographie

- 1- Audet, R. (1996). Cours suprême du Canada. Canada : PUL.
- 2- Bhaduria, J. (1997). Conseil de l'éducation de Toronto (Cité) c. F.E.E.E.S.O., district 15, 1 R.C.S., Toronto.
- 3- COFPE (2004). Pour une éthique partagée dans la profession enseignante, Québec, Gouvernement du Québec, ministère de l'Éducation.
- 4- Desaulniers, M.-P. et F. Jutras (2006). L'éthique professionnelle en enseignement - Fondements et pratiques, Québec : Presses de l'Université du Québec.
- 5- Gohier, C., M. Anadôn, Y. Bouchard, B. Charbonneau et J. Chevrier (1999). « Vers une vision renouvelée de la professionnalisation de l'enseignement et de la construction de l'identité professionnelle de l'enseignant », dans C. Gohier, N. Bednarz, L. Gaudreau, R. Pallascio et G. Parent (dir.), L'enseignant, un professionnel, Québec : Presses de l'Université du Québec.
- 6- Gold, Y. (1996). « Beginning teacher support : Attrition, mentoring and induction », dans J. Sikula, T.J. Buttery et E. Guyton (dir.), Handbook of Research on Teacher Education, New York : Macmillan.
- 7- Greffe des tribunaux d'arbitrage du secteur de l'éducation, Syndicat de l'enseignement de Chateauguay-Moisson c. Commission scolaire de Chateauguay, tribunal tripartite, décision du 6 juin 1985, rapportée à SAE 3788.
- 8- Greffe des tribunaux d'arbitrage du secteur de l'éducation, West Island Teachers' Association c. Commission scolaire Baldwin Cartier, Angers Larouche arbitre, décision du 21 septembre 1989, rapportée à SAE 4988.
- 9- Greffe des tribunaux d'arbitrage du secteur de l'éducation, Syndicat de l'enseignement de Louis-Hémon c. Commission scolaire du Pays-des-Bleuets, Ginette Gosselin arbitre, décision du 27 avril 2004, rapportée à SAE 7605.
- 10- Jeffrey, D. et F. Sun (2006). Enseignants dans la violence, Québec : les Presses de l'Université Laval.
- 11- Jutras, F. et C. Boudreau (1997). « La dimension éthique dans la relation éducative selon le point de vue d'enseignantes et d'enseignants du secondaire », dans M.-P. Desaulniers, F.

Jutras, P. Lebuis et G.A. Legault (dir.), *Les défis éthiques en éducation*, Québec, Presses de l'Université du Québec.

12- Larouche, J.-M. et G.A. Legault (2003). « L'identité professionnelle : construction identitaire et crise d'identité », dans G.A. Legault (dir.), *Crise d'identité professionnelle et professionnalisme*, Québec, Presses de l'Université du Québec.

13- Lavoie, L. (2001). « L'enseignant : un modèle pour la société », dans *Développements récents en droit de l'éducation*, Cowansville, Les éditions Yvon Blais.

14- Legault, G.A. (1997). « Les codes : une tension entre le droit et l'éthique », dans G.A. Legault (dir.), *Enjeux de l'éthique professionnelle*, Tome II, *L'expérience québécoise*, Québec : Presses de l'Université du Québec.

15- Martineau, S., A. Presseau et L. Portelance (2005). *L'insertion professionnelle en contexte de réforme : naviguer à vue pour se bricoler une carrière*. Document accessible à l'adresse. Québec : PUL.

16- Mukamurera, J. (2005). « La professionnalisation de l'enseignement et les conditions d'insertion dans le métier », dans D. Biron, M. Cividini et J.-F. Desbiens (dir.), *La profession enseignante au temps des réformes*, Sherbrooke: Éditions du CRP.

17- Nault, T. (1993). *Étude exploratoire de l'insertion professionnelle des enseignants débutants au secondaire*, thèse de doctorat en psychopédagogie, Département de psychopédagogie et d'andragogie, Université de Montréal : Montréal.

18- Nault, T. (1994). *L'enseignant et la gestion de classe : Comment se donner la liberté d'enseigner ?* Montréal : Logiques.

19- Provasnik, S. et S. Dorfman (2005). *Mobility in the teacher Workforce: Findings from the Condition of Education 2005 (NCES 2005-114)*, U.S. Department of Education, National Center for Education Statistics, Washington, DC, U.S. Government Printing Office.

20- Ricoeur, P. (1990). *Soi-même comme un autre*, Paris : Seuil.

21- Ross c. Conseil scolaire du district n° 15 du Nouveau-Brunswick [1996] 1 R.C.S. 825. Montréal : PUL.

22- Royer, N., J. Loiselle, M. Dussault, F. Cossette et C. Deaudelin (2001). « Le stress des enseignants québécois à diverses étapes de leur carrière », *Vie pédagogique*, 119.

23- Tardif, M. et C. Gauthier (1999). *Pour ou contre un ordre professionnel des enseignantes et des enseignants au Québec ?* Québec : Les Presses de l'Université Laval.

24- Van Nuland, S. et B. P. Khandelwal (2006). *Ethics in Education, The Role of Teacher Code: Canada and South Asia*, Paris : Unesco.

25- Ward, P. (2007). *Developing a Code of Ethics in an Education Union*, Paper written as part of the requirements for a Masters of Teaching and Learning degree, Canterbury, UK : University of Canterbury.